تأملات في الإنسان

رجاء النقاش

دار المريخ

تأملات فى الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

رجاء النقاش

تأمّلات في الإنسان

الطبعة السادسة

١٩٨٩

دار المريخ للنشر

عن الطبعة الثالثة

صدر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ بعنوان « التماثيل المكسورة » فى سلسلة « اقرأ » الشهرية . وقد نفدت الطبعة الأولى بعد شهور . وصدرت الطبعة الثانية من الكتاب فى دار القلم فى بيروت بعنوان «الحب لا يتكلم كثيرا»، وكانت الطبعة الثانية تضم تسعة فصول جديدة . وها هى الطبعة الثالثة أقدمها للقراء بعد حوالى سبع سنوات من صدور الطبعة الثانية . وأود أن يسمح لى القراء هنا باعتراف خاص ، هذا الاعتراف هو أننى أحب هذا الكتاب أكثر من أى كتاب آخر لى . وذلك ببساطة لأننى كنت أحاول أثناء كتابته أن أعالج نفسى من الحزن والضيق بالحياة . كنت أحاول أن أنتصر على عوامل الهزيمة الروحية التى أوشكت يوما أن تسد أمامى كل الطرق وأن تسلب منى أى حماس للحياة أو ابتهاج . وكلما عدت إلى فصول هذا الكتاب تدفقت فى روحى عزيمة تريد أن تنتصر على الحزن والآسى والتشاؤم .

وبمرور الأيام اكتشفت أن الكثيرين يشعرون نحو هذا الكتاب بنفس مشاعرى؛ وذلك لانهم اصطدموا فى طريق الحياة ببعض الأحزان الكبيرة ، ودخلوا مع هذه الأحزان فى صراع حاد أرادوا أن ينتصروا فيه وأن يواصلوا حياتهم رغم عدوان الحزن والكآبة .

وفى هذه الطبعة الثالثة اخترت اسما جديدا للكتاب هو « تأملات فى الإنسان » . . . لقد كنت حائرا منذ الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى تسميته . واخترت عنوان الفصل الأول عنوانا للكتاب فى طبعته الأولى . وفى الطبعة الثانية اخترت عنوان فصل آخر عنوانا للكتاب . ولكننى لم أكن مستريحا للتسمية الأولى ولا للتسمية الثانية . على أننى أشعر الآن ـ فى هذه الطبعة الثالثة ـ بأننى وجدت العنوان المناسب الصحيح الذى يعبر حقا عن الإطار الذى يدور فيه هذا الكتاب .

إنه تأملات فى الإنسان . . .
تأملات متواضعة ولكنها صادقة .
وأرجو أن يغفر لها هذا الصدق كل ما فيها من أخطاء وعيوب .

رجاء النقاش

القاهرة ـ ابريل « نسيان » ١٩٧٧

مقدمة الطبعة الأولى :

من الحياة

هذه صور من الحياة . . عرفت بعضهـا عن طريق التجـربـة المبـاشرة ، وعـرفت بعضهـا الآخـر عن طريق قراءاتى ، والمشكلة الـرئيسية فى هذه الصـور كلهـا هى المشكلة التى شغلتنى سنـوات طويلة ، فانصرفت إلى التفكير فيها بعقلى وقلبى معا . وهى نفسها المشكلة التى وجـدت الكثـيرين يفكـرون فيهـا مثـلى ، وربما أكثر منى . . ويبحثون لها عن حل .

وهى مشكلة لا يمكن تحديدهـا فى كلمـة واحـدة . إنها مشكلة الخصومة مع الحياة . . هذه الخصومة التى لم يفلت منها إنسان أبدا . حتى الـذين توافرت لهم أسباب السعادة الكاملة من المال والصحة

والحب وراحة البال ، حتى هؤلاء قد تعرضوا لتجارب وقفوا أمامها حائرين ، وحاولوا التخلص منها بسلام .

فكيف يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه ، وفى سلام مع الناس ؟ ما الطريق إلى ذلك ، وما العقبات التى تقف فى الطريق ؟ وكيف يتصرف المهزومون فى معركة الحياة ، وكيف يتصرف المنتصرون ؟ . . ما الأمل . . وما التفاؤل ما التشاؤم . . ما الأسى . . ما الفرح ؟

كل هذه الأسئلة هى التى حاول هذا الكتاب بما فيه من صور نفسية أن يجيب عنها .

والمسألة ـ فى النهاية ـ هى مجرد محاولة ، لا تزيد فى أنجح صورها على أن تكون مجموعة من « أقراص الاسبرين » هدفها تخفيف ذلك المرض القديم . . الحزن البشرى والخصومة مع الحياة .

وحتى هذه « الأقراص » لست أنا صانعها ، فأصحابها الحقيقيون هم أبطال هذه الصور النفسية ، أو الأساتذة الكبار الذين عشت معهم ولهم فترة من الحياة أمثال تشيكوف ، وتولستوى .

فإذا خفف عنك هذا الكتاب شيئا من صداعك النفسى فاشكر أصحاب الصيدلية الحقيقية من الفنانين أو من نماذج الناس المختلفة .

وإذا كانت النتيجة عكس ذلك . . فلا تلم أحدا غيرى . . ثم اغفر لى . . !

القاهرة ١٩٦٣

رجاء النقاش

التماثيل المكسورة

« عندما يصبح الامتياز محنة . . . »

هذا النوع من الناس تقابله كثيرا فى الحياة . .

عنـدما يرى فتاة جميلة يبتسم ابتسامة لها مغزى ، وتسأله : لماذا تبتسم ؟ فيقول لك : يا عم . . إنها فتاة سيئة السلوك ، وإذا رأى وجها ناجحا فى التليفزيون قال لك إنه لا يستحق الشهرة ، لقد وصل إلى مركزه بالمصادفة والنفاق ، وإذا قرأ لكاتب ناجح كان همه الوحيد أن يثبت لك أن هذا الكاتب فاشل لسبب من الأسباب ! .

فما سر هذا الشخص ؟

إنه نوع من الناس يكره الامتياز ، ويعادى التفوق ، ويخاف خوفا عميقا من أن يرى شخصا يتمتع بموهبة لامعة . . لا يحب أن يرى

تمثالا جميلا تنظر إليه العيون بإعجاب ، وتلتف حوله القلوب بأعمق ما فيها من عاطفة . ولكنه يستريح تماما إذا تحطم هذا التمثال ورآه مجموعة متناثرة من الأحجار . . !!

منظر الضعف يريحه ويسعده ، وأوراق الخريف عنده أحلى من زهور الربيع ، ومنظر الدمار يطمئنه على أن العالم بخير . . ليس فيه تفوق ولا امتياز !! .

إن تمثال فينوس الجميلة الساحرة الكاملة يضنيه ، ولكن منظر فينوس ذات الذراع المكسور يريحه !! .

هذا النوع من « النفسيات » يعادى الامتياز فى كل صوره ، سواء كان هذا الامتياز وجها جميلا ، أو شخصا محبوبا صادقا ، أو عملا ناجحا ، والدافع الأساسى الذى يحرك هذه النفسيات هو أن أصحابها لا يملكون صفة جميلة تميزهم عن الغير ، وهم فى الوقت نفسه لا يعملون ولا يجتهدون لاكتساب هذه الصفة الجميلة . . ولكنهم يفعلون مثل الصرصار فى القصة المعروفة . . حيث يلعب فى الصيف بينما يجمع النمل قوته استعدادا للشتاء . . وعندما يجىء الشتاء بعواصفه وأزماته لا يجد الصرصار ما يأكله ، لأنه لم يعمل ولم يجتهد . . بينما يكون النمل آمنا من الجوع لأنه عمل فى الصيف واجتهد .

ولكن الصرصار فى القصة المعروفة يطلب من النمل أن يعطيه بعض الطعام . . أما هذا النوع من النفسيات فلا يجد مخرجا لأزمته

إلا فى كراهية « الامتياز » والعمل على تشويه الممتازين وتحطيمهم . . وفرش طريقهم بالأشواك .

فالشخص الممتاز هو نقد غير مباشر لأصحاب هذه « النفسيات » . . يبرز ما فيهم من نقص ، ويكشف إلى أى حد يعيشون هم على سطح الحياة .

وهذا الشعور يثير القلق ، بل إنه يثير الخوف . . فكيف يمكن التغلب على نار هذا الشعور المحرق ؟

كيف يمكن الوقوف أمام النجاح بدون نجاح ، وأمام القوة بدون قوة ، وأمام الجمال بلا جمال يوازيه ؟

إن الطريق إلى ذلك هو نقد الشخص الممتاز ، وتشويه صورته ، وإقناع النفس أولا ثم إقناع الناس بأنه شخص لاأهمية له . .

بل إن هذا العمل يصبح رسالة كبيرة ، هى إثبات العجز فى الشخصيات الممتازة ، والبحث عن أخطائها ، ثم افتعال هذه الأخطاء إن لم تكن موجودة فى الواقع .

وعندما ينهار الشخص الممتاز تستريح نفوس أعدائه الذين خلقهم امتيازه . . وتنطفىء نار الحقد ، ويعود كل شىء هادئا مطمئنا لا تزعجه تلك القوة الخارجية المتفوقة .

ومن حقائق الحياة المؤلمة أن الشخص الممتاز نفسه يتيح الفرصة لمثل هذا الموقف ، فهو غالبا ما يكون منصرفا إلى الأشياء الجوهرية فى

الحياة ، لا يسمح لنفسه أن تهتم بالأشياء التافهة ، وهو لا يشعر بأى خطر لهذه الأشياء . . وكثيرا ما يتصور الناس على صورته ، فهم يفكرون فى الأشياء الجوهرية مثله ، ويحبون الجمال مثلما يحبه . ويؤمنون بما يؤمن به من أفكار إنسانية ، وهو لا يتصور كثيرا أن أحدا يمكن أن يخطر على باله أى نوع من الغدر والخديعة .

وهنا يمكن أن يكون فى الشخص الممتاز ما يصح أن نسميه « ضعف العظماء » . . وهو الضعف الذى يؤدى إلى عدم رؤية الآخرين رؤية صحيحة ، والعجز عن تصور انفعالاتهم الخفية السوداء وإدراكها .

ولذلك فكثير من الأفراد الممتازين يقعون فى فخاخ الحاقدين عليهم بسهولة غريبة ، بل إنهم يساعدون ـ بدون إرادة ـ مساعدة رئيسية على خلق الأسباب التى تؤدى بهم إلى الكارثة والنهاية الحزينة . . ولم يسلم من هذا المصير إلا نوع من الممتازين الذين جمعوا إلى القوة فهما واقعيا دقيقا للنفس البشرية ، وما فيها من منعطفات ضيقة ودهاليز مظلمة .

ويقدم لنا التاريخ نماذج متعددة عن « محنة الامتياز »وعن سوء النهاية التى كان الممتازون الطيبون يصلون إليها عندما يقعون فريسة للحقد عليهم والإنكار لهم .

وهم عادة لا يسارعون إلى علاج هذه المشاعر ، بل على العكس . يساعدون على إشعالها بتصرفاتهم التى تمتلىء بالبساطة والسذاجة والطيبة ، والتى تمتلىء فى الوقت نفسه بالعظمة .

سقراط أبو الفلسفة الإنسانية مات محكوما عليه بالإعدام ، وكان الـذى قدمـه إلى المحكمة هو رجل من أغنياء أثينا ووجهائها الذين ضاقـوا بعلم سقـراط وشهرته وحب الناس له . . لقد طمس وجود سقـراط اسم ذلك الأثينى الغنى ، وجعله فى حياة أثينا صفرا على الشمال . . ولم تنفعه ثروته ولا قصوره ولا عبيده . . فكان سقراط على فقره وبساطة حياته أقرب إلى الناس منه . . كان نجم أثينا اللامع ، وظلها الذى تستريح إليه النفوس كلما أصابها التعب، وأرهقتها الحيرة .

ولم يفهم سقراط طبيعة الحقد الذى ثار ضده .

أما الأثينى الغنى فقد سعى بكل قوته إلى تحطيم سقراط ، واتهمه بأنه « خارج على دين أثينا مفسد لشبابها » . . ولم يفهم سقراط أن هذا الاتهام ما هو إلا ستار يختفى وراءه الخوف الذى يحمله له بعض رجال أثينا وعلى رأسهم صاحب الاتهام . .

ولم يسارع سقراط إلى علاج المشكلة بحكمة وبراعة . . ولكنه على العكس واجه الاتهام بقوة ، وظن أن المسألة هى معركة فكرية يجب أن ينتصر فيها من يكون الحق بجانبه .

ووقف سقراط فى المحكمة يدافع عن نفسه أمام جماهير أثينا ، وكلما ازداد توفيقا كلما ازداد حنق القاضى عليه . . وكان القاضى الأول هو نفسه ذلك الأثينى الغنى .

دافع سقراط عن نفسه ببلاغة جميلة وشجاعة وحكمة . . برز امتيازه من جديد أمام الناس ، ولو انتصر سقراط فى هذا الموقف فإن معنى ذلك أن وجيه أثينا الغنى قد وصل إلى نهايته وانهار . . إن امتياز سقراط هو مطرقة دائمة مخيفة تهوى على رأس الأثينى الكبير .

قال سقراط للمحكمة :

« أنا جندى قديم ، ورجل طاهر الذيل ، شريف العيش ، وقد جعلت رسالتى هى محو الجهل الشائع فى أثينا ، وجعلت هدفى هو خير الناس ، وإنى أحاول دائما أن أجعل من حياتى بركة على أبناء أثينا، ولو أعفيت من الموت فإننى سأظل أجاهد فى نفس الطريق . . أما الذى يتهمنى فما هو إلا رجل غبى متكبر لا يعرف الحقيقة » .

وظل سقراط يتحدث ببلاغته الساحرة حتى أثبت أفكاره وبرهن عليها ، وعندما وصل إلى هذه النقطة كان فى الوقت نفسه قد حدد نوع الحكم الذى صدر ضده بعد ذلك . . . وهو الحكم بالإعدام .

ويعلق برنارد شو على دفاع سقراط فيقول :

« إن إثبات سقراط لفكرته كان هلاكا له وقضاء عليه . . لقد قضى عليه جهله بمبلغ ما أثاره عليه رجحان عقله فى قلوب الرجال من خوف وكره ، وما كان سقراط يحمل لهم فى قلبه إلا الخير ، وما كان يظن إلا أنه أسدى لهم كل معروف »[(١)] .

---

(١) مقدمة مسرحية جان دارك لبرنارد شو ترجمة الدكتور أحمد زكى .

وهكذا انتهى سقراط بتهمة باطلة . . شرب السم ومات ، انتهى لأنه كان صادقا وجميلا . . كان ممتازا . . وكان كما قال عنه تلميذه وصديقه أفلاطون : « إننى لن أتردد فى تلقيبه بأعدل رجال عصره » .

وقد أثار عليه امتيازه هذه النفسية التى تخاف الامتياز وتكرهه ، وتشعر أمامه بالرهبة ، ولا تستريح حتى تشوهه وتقضى عليه ، وحتى تجعل من التمثال الجميل تمثالا مكسورا . . أجزاؤه كومة من التراب تخلو من التأثير والجاذبية .

وهذا نفسه ما حدث للفتاة الصغيرة المخلصة : جان دارك ، فقد حوكمت ، وأحرقت ، بعد أن قادت فرنسا إلى النصر وهى مهزومة تكاد تركع تحت أقدام الجيوش الإنجليزية .

لقد راحت « جان » ضحية الوفاق بين إنجلترا وفرنسا . وكانت محنة « جان » هى محنة الامتياز أيضا .

وكانت ذات هدف كبير منحها الشجاعة والقوة ، فلم تكن تسعى لخدمة نفسها بل كانت تحاول خدمة بلادها ، على أن تعود إلى قريتها بعد أن يتحقق النصر . . أما رجال فرنسا فكانوا يفكرون فى مصالحهم الشخصية ومراكزهم الرسمية .

وكانت صادقة صريحة ، تقول للمخطىء - فى عينه - أنت مخطىء ولذلك لم يحتملها رجال عصرها ؛ فقد كان امتيازها عبئا عليهم ، وخطرا يهدد وجودهم ، ونقدا دائما لهم . فأكبر من فيهم مركزا وأهمية -

وهـو الملك شارل ـ كاذ شعـر أن آراءهـا أصـوب من آرائه ، وأن شخصيتها أقوى من شخصيته . . إنه إلى جانب هذه الفتاة القروية الصغيرة يبدو عديم الأهمية تماما . .

ولم تكن « جان » تعرف اللف والدوران والحيلة ؛ ولذلك أحرقها هؤلاء الـذين خدمتهم وأحبتهم ، وكانت جريمتها التى لم تجد من يغفرها لها هى : التفوق عليهم . .

وقـد علق برنارد شو على حرق جان دارك وإعدام سقراط فقال : « لقد كان لنابليون مقدرة مخيفة كالتى كانت لجان دارك وسقراط ، ولكنه لم يكن صريحا مجاهرا برأيه . . وكان طموحا فلم ينخدع فى « رواجه » عند الناس ، ولم يخطىء معناه أبدا ، وسئل مرة وهو فى قمة مجده وشهـرتـه : كيف يتصـور حال النـاس إذا تلقـوا نعيه فقال : « سيتنفسون الصعداء » [1] . .

من أجـل هذا مات نابليون على فراشـه ولم يصب بسـوء ، فقد احتمى دائما بالحذر ، وسوء الظن العميق بالنفس البشرية ، ومعرفته أن الـذين يكـرهـون الامتياز ويخـافـون منه أخطر من الذين يحبونه ويتعاطفون معه .

وكـان المسيح يدرك هذه الحقيقة النفسية التى تواجه « الامتياز » وتعمل على سحقه ، ولكن إدراكه لها لم ينقذه مع ذلك من العذاب الذى ذاقه على يد أعدائه والذين يتظاهرون بحبه وصداقته .

---

(١) مقدمة مسرحية « جان دارك » لبرنارد شو ترجمة الدكتور أحمد زكى .

ومما يكشف عن فهم المسيح العميق لهذا الجانب من الطبيعة البشرية قول الإنجيل :

« قال بطرس : إن شك فيك الجميع فأنا لا أشك فيك أبدا ، قال يسوع : الحق أقول لك ، إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات » .

وعندما بدأ اليهود يفتشون عن المسيح لإيذائه اوتعذيبه أخذوا يبحثون عن « حوارييه » وأصحابه وتلاميذه ، وكان من بين هؤلاء « بطرس » أخلص التلاميذ والحواريين ، فأنكر معرفته بالمسيح ، وإن كان قد ندم بعد ذلك على هذا الإنكار وحمل رسالة المسيح من بعده !

وهكذا حدث ما توقعه المسيح ، فقد سيطر الخوف على « بطرس » ودفعه فى لحظة المحنة إلى إنكار أستاذه ومعلمه ! ، فى اللحظة التى كان فيها أعداء المسيح يحاولون القضاء عليه والتخلص من امتيازه .

وهذا ما يحدث دائما لكثير من « الممتازين » إذ يقعون فريسة لتلك النفسية التى يخيفها الامتياز ويقلقها . . .

وليست هذه الأمثلة التاريخية إلا نماذج مجسدة نجد صورا كثيرة منها فى حياتنا العادية . . . فالمهندس الناجح ، والفنان الموهوب ، والفتاة الجميلة ، والشخص المحبوب ، كل هؤلاء يعانون هذه المشكلة . . . فالخوف من الامتياز ـ كما يقول أحد علماء النفس ـ هو ظاهرة معضلة من ظواهر النفس البشرية .

وهى ظاهرة يشعلها الفشل والضعف ، ويخفف منها بل ويقضى عليها أن يحاول الانسان احترام الامتياز ومحبته . . وحب الشخص الممتاز معناه الانتماء إليه والارتباط به ، ولا يمكن لإنسان تعود إحساسه وذوقه على حب الامتياز والاعتراف به إلا أن يصبح فى نهاية الأمر إنسانا ممتازا وجميلا . ولكن حب الامتياز عادة صعبة ، تحتاج إلى قوة نفسية كبيرة ، وإلى ظروف اجتماعية تتيح للجميع فرصا متكافئة ، وتفتح الطريق أمام كل فرد يريد أن يعمل ويجتهد . . ولذلك فإن المجتمع كلما تقدم واتسعت فرص الحياة فيه أصبحت مشكلة الفرد الممتاز أقل انتشارا وأقل عنفا .

فالمجتمع المتقدم دائما يحتاج إلى العناصر الممتازة ويعتمد عليها . . كما أنه يتيح الفرصة لكل فرد حتى يملأ حياته العملية وحياته النفسية بما يشغله . . وما يجعله راضيا عن الحياة غير ساخط على الآخرين .

ورغم ذلك كله فستظل الإنسانية تشكو من تلك النفسية التى تكره الامتياز وتخشاه ، فالامتياز ابتكار وتجديد وخروج عن العادة ، والناس تستريح للعادة القديمة ، حتى لو كانت سيئة ، على أن تحتمل هموم التجديد والابتكار .

ولكن الإنسانية ستظل فى الوقت نفسه تضع سرها وقوتها فى الشخص الممتاز الذى يدفع الحياة إلى الحركة ، وينير طرقاتها المظلمة ، ويغامر دائما فى سبيل الكشف عن الشىء الغامض فيها . . حتى يسير من بعده الناس فى نفس الطريق .

والـذين يكسرون التماثيل الجميلة ، أويسعون إلى تشويهها ، قد ينجحون أحيانا ، ولكن الحياة تعود من جديد فتخلق هذه التماثيل ليحبها البعض . . ويكرهها آخرون . . ولكى تكون دائما الزهرة التى تنثر العطر للناس وتشرب العذاب .

اللـــذة الخطرة ...

كان يقول لكل من يقابله :

ـ أنا موسيقار . . أنا عبقرى . . ولكنى لا أستطيع أن أكتب لحنا واحـدا وزوجتى على ظهـر الحياة . . إنها تفسـد نبـوغى . . وتقتل أحلامى كفنان .

وعندما يذهب إلى البيت الحزين الكئيب . . ينظر إلى زوجته فى نفور . . ثم يضربها . . وهى صامتة لا تتحرك . . لا تعترض . . لا تقول : آه .

وفى صمت تجرى من عيونها دموع . . ثم تقدم له ما يحتاج إليه . . فى طاعة الخادم الذليل .

وظل على هذه الحال سنوات طويلة .

وفى يوم عاد إلى البيت . . فوجد زوجته مكومة فى ركن مظلم . . وصرخ فى وجهها فلم ترد عليه . . ثم ركلها بقدمه . . ولكنها لم تتحرك .

ويدأ يتردد . . وعرفت يده الحنان لأول مرة بعد عشرين سنة من الزواج . . وهو يهزها وينادى عليها . .

ولكنها لم ترد . . لقد ماتت .

وفزع العبقرى . . وخرج من بيته . . وظل يجرى فى الظلام حتى وقع على وجهه فى الطريق ، ومات .

هذه هى خلاصة القصة التى كتبها الأديب العالمى الكبير « دستويفيسكى » .

والقصة تقدم لنا نوعا من الشخصيات يقابلنا كثيرا فى الحياة :

فالموسيقار يعانى ما يمكن أن نسميه « عقدة الاضطهاد » وهو يقنع نفسه بأن زوجته تضطهده ، وتعطله عن الفن . . إنه يلقى عبء فشله على زوجته . . ويبدو فى نظر نفسه بريئا خاليا من المسئولية ، ويتوقف عن كل شىء . . عن تدريب نفسه ، عن سماع الموسيقى ، عن محاولة الإنتاج ، فاللحن الوحيد الذى يعزفه باستمرار هو الشكوى . . والسخط على زوجته .

وتمر الأيام وهو واقف ، يتقدم من هم أقل منه فى الموهبة والكفاءة . . بينما هو يخفى عن نفسه حقيقة فشله ، وعندما تموت

زوجتـه تفـاجئه الحقيقة الرهيبة . . فالمشكلة فى داخله هو ، وسبب فشله هو أنه رجل بلا إرادة ، رجل لا يواجه المشكلة فى عينيها ، وإنما ينـظر إليهـا من بعيد وبـطريقـة ملتـوية . . وهو يخاف من الأسئلة الجريئة ، يخاف أن يعرضها على نفسه ويبحث لها عن إجابة . . ومن هذه الأسئلة الجـريئة : لماذا لا أدرس الموسيقى بعمق ؟ . . لماذا لا أحاول أن أقضى وقتا طويلا مع فنى وأحاول أن أؤلف ؟ لماذا لا أعرف ما يفعله الآخرون فى العالم الموسيقى لأستفيد منه وأضيف إليه ؟ . . ولم يسـأل نفسـه أبـدا : ما ذنب زوجتى ؟ إنها تتحملنى وأنا قاس عنيف . . وهى لا تعترض أبدا ولا تشكو .

لم يفعـل شيئـا من هذا . وظل يخدع نفسه حتى انتهى السبب الوهمى الزائف للفشل . . فعجز عن احتمال الحقيقة . . ومات .

كان طيلة حياته يشعر بعذوبة الشكوى ، ويعيش فى لذة عجيبة ، تصدر عن إحساسه بأنه مضطهد وشهيد . . وكان بحاجة عميقة إلى زوجته ، ليظل مستمتعا بشعوره الزائف المريح .

وكثيرا ما يتعرض الإنسان للفشل ، وليس هذا هو الخطر الأساسى على حياة الانسان . . ولكن الخطر يتركز فى طريقه مواجهة الفشل . . وأخطر مراحل الفشل هى أن يتحول إلى عادة ثم اقتناع . . وفى آخر الأمر يصبح لذة يمارسها الانسان باستمتاع وسعادة . ولذة الفشل تبدأ عندما يلقى الإنسان سبب فشله على الآخرين . . فيشعر أنه برىء أو شهيد ، ويبعد عن نفسه تماما مسئولية الوضع الذى وصل إليه .

فلا يحس بالقلق الذى يشعر به إنسان ينقد نفسه ، ويراقب تصرفاته ويضـع أمـامـه هدفا يريد أن يحققه . . ثم يتعب ويعرق فى سبيل الوصول إليه .

إن الذى يضع مسئولية فشله على الغير ، هو إنسان يشعر أنه خال من العيوب ، وأن العيب يكمن فى الآخرين .

ويشعر هذا الإنسان أيضا أنه على جانب من الأهمية . . ولو لم يكن « مهما » لما فكر أحد فى إيذائه والوقوف فى وجهه ! .

وكل هذه المشاعر لها سحر غريب على النفس . . يسيطر عليها كما يسيطر المخـدر . . وهـو سحر يضع الإنسان فى عالم ملىء بالأحلام والأسـاطـير . . عالم تتردد فيه كلمـة : أنا . . . بما فيها من جاذبية وعـذوبـة . . تستريح إليها الشخصيات الضعيفة . . والتى تعيش حياتها بدون اتجاه أو هدف .

★ ★ ★

وقصة « دستويفسكى » هى لقطة صادقة من الحياة . . وكثيرا ما نلتقى بنفس النماذج على مسرح المجتمع .

عرفت طالبة فى الجامعة ، وأتيح لى أن أرقب تطورها خلال بضع سنوات .

كانت سمـــراء جذابــة . . تتكلم بصـوت هادىء خفيض . . وتتصرف أيضا بهدوء ووداعة . . وكانت تعيش فى علاقة حب مع أحد

زملائها بالجامعة . . واستمرت هذه العلاقة سنتين ، ثم انتهت بالفشل . . حيث تركها حبيبها وتزوج فتاة أخرى .

كانت لا تزال صغيرة وسيمة ، ولكنها انقلبت فجأة . . لم تعد تطيق البقاء فى بيتها لحظة . . وأصبحت تقتحم حياة زملائها ، وتفرض نفسها عليهم . . وتقضى أيامها بطريقة لا تحافظ فيها على شىء من سمعتها أو شرفها . .

ولم تعد تعرف الهدوء، أصبحت كثيرة الكلام، تعلن مشكلتها للجميع بصراحة .

وكانت تدرك أن سلوكها غريب غير طبيعى . . وتبرر ذلك ةتقول : إنه هو المسئول عن كل شىء . . .

لقد تركنى بعد أن أحببته . . أنا لست مسئولة عن شىء .

كان فشلها فى الحب « باسبورا » إلى الفوضى والاستهتار ، وأصبح هذا الشعور عندها لذة . . لذة كبيرة .

وإذا أعطت نفسها بدون تردد للآخرين فكأنها تنتقم من حبيبها . . وعندما تظهر فى الأماكن العامة بسبب وبغير سبب فكأنها تتحداه . . وهى تخرج عن هدوئها القديم خروجا صاخبا، كأنها تقول له : لقد تخليت عن كل العادات القديمة التى كانت لى . . وكنت تحبها وتسعد بها !

رأيتها مرة فكانت على حافة الانهيار العصبى أو الجنون . والغريب أنها فقدت جاذبيتها . . وتحولت هذه السمراء الجميلة إلى وجه أصفر لا جاذبية فيه .

لقد أخذت تستمتع بفشلها ، وتلقى مسئولية هذا الفشل على حبيبها القديم . . لم تحاول أن تعالج المشكلة وتفهمها . . ولم ترسم لنفسها خطة تسير عليها لتعيد لنفسها التوازن بعد خروج حبيبها من حياتها . . . لتبدأ من جديد .

لقد فقدت إرادتها أمام الفشل . وسمحت للجانب الساحر فى الفشل أن يسيطر على تصرفاتها .

واستراحت من التعب .

كانت فى الماضى تحاول أن تبدو جميلة مهذبة ، وكانت تقرأ لتبدو مثقفة ، وتبذل جهدا لتكون شخصية جديرة بالحب فى عين حبيبها ، أما الآن فلماذا تتعب أو تجتهد . . إنها تعيش حياة سطحية . . وتعقد كل يوم علاقة جديدة سريعة مؤقتة .

لقد وقعت فى اللذة الخطرة . . لذة الفشل .

★ ★ ★

وذات يوم تلقيت رسالة من طالب بكلية العلوم جامعة الإسكندرية . . تقول الرسالة :

« . . . . إننى أعيش بلا أحلام . . والشباب فى مثل عمرى يعيشون دائما على الأحلام . . كل واحد يحلم . . وأحلامه فيها من لون الضوء . . ومن رائحة الزهر . . وهى فى النهاية ترسم لوحة جميلة لحياة جميلة .

إلا أنا . . فلا أرى أمامى غير اللون الأسود . . غير الظلام والكآبة . . كثيرا ما أسأل نفسى : لماذا جئت إلى هذه الدنيا القاتمة المزدحمة . . . ؟ ولماذا قدر لأمى أن تنجبنى فى الحياة ؟ ! . . .

إن أحداث حياتى قصيرة ولكنها حاسمة ، لقد أحببت فتاة ، وكنت أخطو الخطوات الأولى من شبابى . . ولكن هذه الفتاة أحبت أخى . . وأحسست بالهزيمة ، وجعلت من نفسى قوقعة ودخلتها وعشت فيها وحيدا صامتا .

وتزوجت حبيبتى من أخى وأنا صامت وحيد .

ومرت الأيام ، وأنا لست إلا حزينا فى قوقعة . ثم حدثت مفاجأة . . فمات أخى فى شبابه ، وعادت زوجته ـ حبيبتى القديمة ـ إلى وقالت لى : إنى أحبك . .

وسكت ! .

كانت بحاجة إلى « كفن » لتبادلنى الحب .

لقد أحسست فى كلماتها بالمرارة . . إن الموت وحده هو الذى دفعها إلى حبى ، وأدرت ظهرى لهذا الحب ، وأنا أرثى لها ، ولنفسى ، ولأخى الذى مات . . وللدنيا !

ولكن أحزانى تعود إلى عالم قديم ، إلى طفولتى . . فقد كنت طفلا صغيرا قبيح الوجه . . وكنت - على صغرى - أحس بالكراهية تحيطنى من كل جانب .

وعندما كبرت ودخلت المدرسة كان عدم ثقتى بنفسى يشلنى . . فكنت بليدا يضربنى المدرسون . . ويسخر منى التلاميذ .

وكثيرا ما أقرأ أن الأطفال أكثر الناس فى الدنيا براءة وطهرا . .

صدقنى : إن الأطفال أكثر كائنات الله أنانية وقسوة ! لقد لقيت فى طفولتى منهم الكثير .

وعندما كبرت بدأت أفهم كلمات كنت أسمعها من أمى . . ولم أكن قبل ذلك أفهم منها شيئا . .

لقد سمعت من أمى كلمات غريبة . كانت تقول لى : لقد صنعت المستحيل لعدم إنجابك . . ولكن الله كان يريد لى التعاسة . . فولدتك بالرغم منى .

أى أننى جئت إلى هذه الحياة عبئا ثقيلا على أمى ! وهكذا تمضى بى الحياة لا أكاد أخرج من القوقعة التى أعيش فيها حتى أعود إليها من جديد . . وجدران قوقعتى : صمت ووحدة وشك عميق فى قيمة الحياة ومعناها !

وهأنذا أمشى مع التيار . . تدفعنى الأحداث ولا أدفعها أبدا . . نفسى ضعيفة جدا . . أبكى لأتفه الأشياء !

وأحيانا أسأل نفسى : « هل لى من أمل ، هل لى ؟ ! » .

انتهت رسالة الطالب الجامعى .

وعندما قرأت الرسالة شعرت أن صاحبها قد صنع من فشله قصيدة جميلة ، وأخذ يتغنى بها بينه وبين نفسه .

لقد وقع هو الآخر فى « لذة الفشل » فهو وحيد مضطهد . والدنيا تظلمه . . ووجهه قبيح . . وحبيبته لا تحبه إلا إذا دفعتها كارثة إلى حبه .

لم يفكر فى مشروع واحد يتعلق به . . كأن يتفوق فى الدراسة . . أو يقرأ ويكون لنفسه شخصية ناضجة . . أو أن يبحث عن فتاة أخرى . . عن حب جديد ، ولكنه اختار أن يقتات من أحزانه ويشرب من دموعه .

لقد كانت أم المسيح تستنكر أن يجىء ابنها إلى العالم من غير أب . . ولكنه جاء وغير الدنيا . . وكان سقراط قبيح الوجه . . ولكنه كان أنشودة أثينا يتغنى بها الجميع . . بمن فيهم حسناوات المدينة . . وكان أبو « دارون » يقول عنه إنه « عار العائلة » ومع ذلك فقد ظل هذا « العار » يعمل ويجتهد . . حتى أصبح ألمع اسم فى العائلة ، بل أصبحت العائلة كلها منسوبة إليه .

إن الحياة لا تعطى سرها وسعادتها بسهولة . . وعلى الإنسان أن ينظر إلى حياته على أنها مشروع ، يجب أن يعمل على تحقيقه

وتنفيذه . . وكما يقوم المهندس ببناء البيت . . فيضيف كل يوم شيئا جديدا إليه حتى يتم ، كذلك ينبغى أن يفعل الإنسان : أن يضيف كل يوم إلى حياته شيئا جديدا . . أن يقرأ صفحة مفيدة . . أن يقول كلمة طيبة . . أن يراقب نفسه ويسألها : إلى أى حد أنا نافع للحياة . .

وهناك حقيقة هامة . . تلك التى عبر عنها أحد المفكرين فقال : إن الرضا الشخصى ينبع عن هدف يخرج عن نطاق شخصية الفرد ، مثل العمل ، مثل الإيمان بشىء . . . مثل محاولة تربية الشخصية وجعلها مفيدة نافعة .

والفشل ليس نهاية للحياة . بل هو تجربة مفيدة يجب أن نخرج منها بنتيجة لنصل بتجاربنا الجديدة إلى شاطىء النجاح .

أما أن تضع يدك على خدك . . وتمشى على الرصيف . . ثم تقضى ليلك على مقهى أبله . . ليس فيه إلا الضجيج والبلادة . . وبعد ذلك تنتظر أن تتغير حياتك بقفزة مفاجئة فهذا خطأ لا تسمح به الحياة .

إن « لذة الفشل » ساحرة . . وخاصة عندما تصبح عادة . . تخدع . . وتقتل الإرادة ، وتملأ حياة الانسان بالأوهام . . والفشل لا يكلف ؛ لأنه حرية وراحة . . فلن تفكر فى قيود تحاول أن تتخطاها ، ولن تتعب نفسك فى خلق حياة إيجابية .

ولكن « لذة الفشـل » لذة خطرة . إنها تؤدى فى النهاية إلى هدم الحياة بقسوة ومرارة .

لقد عاش الأديب العالمى « تشيكوف » حياة صعبة قاسية وصفها هو نفسه مرة فقال : « كان أبى من رقيق الأرض ، وكنت أشتغل بالبيع فى أحد الحوانيت ثم بالغناء فى الكنيسة ، ونشأت على احترام السادة وتقبيل أيدى القساوسة ، وتقديس آراء الآخرين ، والتعبير عن عرفان الجميل إزاء كل لقمـة أصيبهـا . . كنت كثـيرا ما أجلد وأدور هنـا وهناك ، وأضطر إلى النفاق . . لا لشىء إلا لشعورى بالتفاهة وضآلة الشأن » .

ولكنه لم يقف ولم يستسلم . . . فهو يقول :

« لقد بذلت مجهودا عنيفا لأعصـر مشاعر العبودية من نفسى قطرة قطرة . . حتى استيقظت ذات صباح جميل فاكتشفت أن عروقى لم يعد فيها أثر لدم ذليل ، وأنها تفيض بدم إنسانى حقيقى »[1] فابحث فى نفســك عن هذا الصبــاح الجميل . ولا تستسلم أبــدا للذة الفشل . . . تلك اللذة الخطرة .

---

(١) تشيكوف ـ للناقد الروسى يرميلوف ، ترجمة الدكتور عبد القادر القط .

الأمريكى الحزين

أمريكا هى بلد الصخب والعنف و «الجاز» والناس الذين يسرعون فى الأكل والكلام والحركة ولا يجدون وقتا للهدوء والتفكير . . إنها بلد مهووسة بالضجة ، وهى كل يوم تفكر فى تقاليع تغزو بها العالم .

وأمريكا هى بلد ناطحات السحاب والأضواء التى تلغى الفرق بين الليل والنهار . وهى بلد الإعلانات . . كل شىء فيها خاضع للإعلان حتى دور العبادة . . وتستطيع أن تقرأ فى بعض شوارع نيويورك عن إحدى الكنائس تقول :

« يرافق الصلاة موسيقى رائعة ، وسائل الراحة مؤمنة » وإعلان آخر بالنيون عن كنيسة أخرى : « بعد الصلاة يعرض فيلم ملون يصور صعود الرسل تصويرا صادقا » .

وعشرات الملايين فى أمريكا يعيشون هذه الحياة ويتحمسون لها . ولكن نظرة عميقة تخترق هذه الزحمة وتنظر إلى القاع تجد شيئا مختلفا .

إن الصخب والضجيج يخفيان حزنا عميقا يأكل قلب أمريكا . . لقد وقف مهندس فنان ذات يوم فى نيويورك وقال : « هذه مدينة مليئة بالزينة . . لكنها زينة مفجعة » .

وقد عبر هذا المهندس عن الحزن العميق الذى يعيش فى قلب أمريكا ، الإنسان هناك يحس بالضياع وسط الزحام والأضواء وناطحات السحاب . ويحس بالضياع إذا فكر فى تلك المشاكل الكبرى التى لا تجد الحل ، مثل مشكلة ملايين الزنوج المضطهدين الذين ينظر إليهم الأمريكان على أنهم حيوانات .

ففى الحرب العالمية الثانية اشترك الزنوج فى القتال ولعبوا دورا كبيرا فى كسب الحرب . وذات يوم عادت كتيبة زنجية إلى أمريكا بعد أن أسرت جماعة من الألمان . . وفى أمريكا كان الأسرى الألمان يتناولون طعامهم فى المطاعم ، أما الجنود الزنوج فكانوا يذهبون إلى المطبخ . . [1] ومن الذى صنع هذا الوضع ؟ . . الأمريكان أنفسهم . . وقد احتج الزنوج على ذلك ، وانتحر جندى زنجى تعبيرا عن هذا الاحتجاج . . ولكن ما تزال المشكلة قائمة حتى اليوم ، يعانيها الزنوج فى ولايات الجنوب بأمريكا الشمالية . . وفى حى « هارلم » بنيويورك أكبر مدن أمريكا .

وهناك أيضا مشكلة العمال الذين يتعطلون فى مواسم مختلفة ، ويبلغ عدد هؤلاء العمال أحيانا عشرة ملايين ، كانوا يتجمعون

---

(١) أمريكا كما شاهدتها ـ ايليا اهرنبرج ـ ترجمة وصفى البنى .

بالآلاف تحت الكبارى ويعانون ألوانا من الضياع والتشرد . . على أن المشكلة الكبرى التى تفرض نفسها على معظم البيئة الأمريكية هى أن الآلة تسيطر على الانسان وتسبقه فى كل شىء ؛ ولذلك فان المدينة الأمريكية هى فرن ملتهب يبتلع الانسان ولا يعطيه فرصة للاستمتاع بصداقة أو حب أو فن . . أو شىء عميق آخر . .

وبين الحين والحين يظهر نوع فريد من الأمريكان ليكشف للأمريكان وللعالم ذلك الحزن العميق الذى يعيش فى هذا البلد المجنون بالسرعة وعدم المبالاة .

إن هذا النوع هو الأمريكى الحزين . . الأمريكى الذى قاسى حياة مجتمعه فامتلأ قلبه بالأسى لأنه لم يجد فى هذه الحياة تلك المعانى الانسانية الكبيرة التى تجعل الإنسان يحتمل وجوده ويسعد به . . .

من هؤلاء أمريكى حزين ملأت شهرته العالم وأساء الكثيرون فهمه ، حتى أمريكا جعلت منه صورة مائعة خليعة . . ذلك هو الممثل الفنان « جيمس دين » .

وقد بلغ من خطورته وأهميته ـ كظاهرة فى المجتمع الأمريكى ـ أن عكف على دراسة حياته وأزماته كثير من الباحثين فصدر عنه عدد كبير من الكتب .

وحتى وقت قريب كان هناك كل أسبوع ألفا رسالة تكتب إلى « جيمس دين » بعد وفاته . . يكتبها شبان وفتيات يؤمنون به . . . ويؤمنون بأنه لم يمت . .

وفى أمريكا اليوم ٨٤ ناديا تحمل اسم « جيمس دين » وتضم عددا من الشبان والفتيات يزيد على ٤٠٠ ألف عضو .

فمن هو جيمس دين على حقيقته ؟

. . كانت أمه فلاحة عادية وكان أبوه عاملا متواضعا . . وخلقت له أمه فى صباه جوا من الحنان الغامر ، فكانت تجيب له كل مطالبه ، وقد قرر عندما عرف الكتابة والقراءة أن يسجل كل ما يريده فى « أجندة » صغيرة تراها أمه فى آخر الشهر فتحقق له كل ما فيها .

وماتت الأم الحنون وهو فى الثامنة من عمره بعد أن أصيبت بسرطان فى الرئة .

وكانت فجيعة للصبى الصغير ، لم يعرف بعدها ـ وطول حياته ـ طعم الحنان ، لقد تركته أمه لعالم شديد القسوة ، لا يوجد فيه من يهتم بالآخرين . . كل إنسان يهتم بنفسه ولا يفكر فى الغير . . حتى أبوه . . تزوج بامرأة أخرى بعد وفاة أمه . وقال جيمس دين عن ذلك الزواج الثانى لأبيه : « لقد كان يزيدنى شقاء أن أرى فى حجرة أمى امرأة أخرى » . وكان يضع خصلتين أخذهما من شعر أمه قبل أن تدفن تحت وسادته ، ثم يحملهما معه فى الصباح بين أوراق كراسته وهو ذاهب إلى المدرسة . . وكان تلميذا شديد العزلة ، يبكى كثيرا . وأحيانا يبكى أثناء الدروس . . لأن أمه غير موجودة فى هذا العالم ، لقد كان شعوره باليتم هو الشعور الأساسى الذى ظل مسيطرا على حياته حتى مات .

ثم يذهب إلى الجامعة ويهرب منها ، إنها لم تعطه شيئا يريحه ، ولكنه يكتشف فى الجامعة أنه يستطيع أن يمثل ، ويعطيه أستاذ من أساتذته توصية إلى المخرج المعروف « اليا كازان » ويفتح أمامه « اليا كازان » طريق المجد .

ويمثل جيمس دين بطولة فيلم « شرقى عدن» ، وكان البطل فى الرواية يعانى شعور اليتم والوحدة وشعر بأن حياته « خالية من الحب » بعد أن هجرت أمه بيت الزوجية منذ طفولته .

واستطاع جيمس دين أن يمثل هذا الدور تمثيلا رائعا لأنه يجد نفسه فى الدور .

ثم مثل بعد ذلك بطولة فيلم آخر هو « ثورة بدون سبب » . . وكان دوره أيضا هو دور شاب مراهق تخنقه الوحدة ويحاول أن يدافع عن نفسه أمام مراهقين آخرين يسخرون منه ويحاولون أن يسيئوا إليه ويجروه خارج عزلته !

وفى سنة ١٩٥٤ التقى بالممثلة الإيطالية الشابة « بيير أنجلى » وأحبها جيمس دين ، أحبها بعنف وحرارة ورأى فيها طريقه الوحيد للخلاص من كل الأسى الذى يعانيه .

قال عنها : إنها الجنية التى تستطيع أن تفعل كل شىء من أجلى . . وقال لها أيضا : إنك أنت الممثلة الوحيدة التى ينطبق عليها التعريف المثالى الكامل للمرأة . . وأحبته « بيير» بكل ذكائها وحرارتها . . وعلقت صورته فى إطار ذهبى بحجرتها فى هوليود .

ووقفت أم « بيير » فى وجه هذا الحب ؛ لأن جيمس لم يعجبها ، وخضعت « بيير » الصغيرة لأمها وتزوجت « فيك دامون » ، وحضر جيمس دين حفلة زواجها . . .وخرج وهو يقول «إن المرأة كائن يتركك . . إما بالموت أو الخيانة » . . لقد تركته أمه بالموت وتركته حبيبته بالخيانة .

وفى الوقت الذى كان الألوف فيه يشاهدون حفلة العرض الأولى لفيلم « شرقى عدن » وكان شباك التذاكر يسجل أن دخل الفيلم هو ١٥ مليون دولار، كان بطل الفيلم الحزين الضائع.«جيمس دين» قد ترك نيويورك إلى حيث يصلى عند قبر أمه .

إن أمريكا كلها بكل ما فيها ومن فيها لا تستطيع أن تعوضه عن حنان أمه . وعندما بلغه بعد ذلك نبأ مصرع ممثل شاب فى حادث طائرة قال : ليس الأمر بيدنا . سأكون أنا كذلك ، عش شابا ومت شابا . . . وكن كفنا جميلا . . .

وبعدها بثلاثة أيام مات فى حادث سيارة كان يقودها بسرعة ١٥٠ كيلو مترا فى الساعة . . وكان عمره حينذاك ، أى فى سنة ١٩٥٦ ، لا يزيد على ٢٥ عاما !

كان « جيمس دين » يجد هوايته الكبيرة فى قيادة السيارات ، وكان يقتنى عددا كبيرا منها ، ويغيرها بكثرة ، وكان حبه للسيارات نوعا من البحث عن السرعة والعنف والتغيير . وليس هذا هو مرض « جيمس دين » وحده .

. فالأمريكى عموما هو الانسان الوحيد فى العصر الحديث المصاب بما يمكن أن نسميه « عقدة السيارة » .

يقول « إيليا اهرنبرج » عن الأمريكى والسيارة :

إنه يلاطفها ويطلق عليها اسما محببا ويخدمها ويغدق عليها ويغدو عبدا لها ، وكثيرا ما يتناول الأمريكان الطعام فى السيارات ، وهناك سينمات معدة لأصحاب السيارات الذين يرون الفيلم دون مغادرة السيارة .

إن السيارة هى رمز هذا العالم الآلى ؛ ولذلك فإنها هى « الكائن » الأول الذى يهتم به الأمريكان ويمنحونه الرعاية الكاملة . . حتى محطات البنزين . . إنها معدة كما لو كانت عشا للغرام ينتظر فيه الإنسان حبيبه أو يلتقى به . . فغالبا ما يكون فيها مطاعم ومراقص ومحلات للبيع ، وفى وسعك أن ترقص بانتظار تصليح سيارتك . بل إن فيها مكتبات تبيع الروايات البوليسية .

وبعد فترة قصيرة يعدم الأمريكى سيارته فى مكان معروف اسمه مقبرة السيارات . وتلتهم مقبرة السيارات كل يوم مئات السيارات التى يمكن أن تعمل فى أوربا عامين أو ثلاثة »[1] .

---

(١) أمريكا كما شاهدتها ـ ايليا اهرنبرج ـ ترجمة وصفى البنى .

والأمـريكـان أكثـر النـاس اهتـمامـا بسبـاق السيارات . وقيادة السيارات عندهم فن وليست عملا من الأعمال . ولا شك أن موقف الأمـريكى فى الحضـارة المعـاصرة شبيه بمـوقف الهندى فى حضارته القديمة . . إن الهندى كان يتخلص من أزمته فى هذا الكون بتعريض نفســه لخطر ، كأن يمتنــع عن الأكـل مدة طويلة . أو يعيش مع الثعابين ، أو يقف شهرا كاملا على قدم واحدة . . إنه كان يتفنن فى الوصول إلى الوسائل التى تزيد من شعوره بالخطر . . وهى وسائل تنبع كلها من فهم خاص للتصوف . .

والأمـريكى يعـرض نفسه للخطر عن طريق السيارة حتى يشعر باللذة ، وبطعم حاد للحياة . . ويستريح الأمريكى عندما يصل إلى حافة الخطر وينجو ، ثم يعود من جديد إلى المخاطرة .

إنها أزمة البحث عن طعم فى حياة بلا طعم . . لأنها حياة جاهزة أعدتها الآلة إعدادا كاملا .

وقد اختار جيمس دين السيارة ليتخلص عن طريقها من القلق . . فخلصته من الحياة . . وأصبح رمزا عنيفا للحزن والضياع والاحتجاج على عالم يهتم بالآلة أكثر مما يهتم بالإنسان . .

عالم يصبـح الكـائن الإنسانى فيه قزمـا بالقياس إلى ناطحـات السحاب والمدن الواسعة المزدحمة .

ولو كان مجتمع « جيمس دين » يهتم بالمعانى الإنسانية لوجد الفنان الشاب فيه ما يؤمن به ويحل عن طريقه مأساته النفسية : مأساة اليتم بلا أم ولا أب ولا صديق ولا حبيبة .

إن النجاح فقط قد يقنع به المنتج أو أى نوع آخر من التجار . . ولكن الفنان يبحث أولا عن حل لمشكلته النفسية ، لعذابه وقلقه ؛ ولـذلـك لم يعبأ « جيمس دين » كثيرا بنجاحه . . لقد ظل كما كان ضائعا حائرا يرى فى حياته ذلك الشعار الذى ردده قبله فنان أمريكى حزين آخر : « لا شىء حقيقى وناجح سوى الفشل » .

إن جيمس دين ليس الحزين الوحيد فى أمريكا . . فهناك آخرون يعـانـون الحـزن العميق نفسـه . . إنهم فنـانون نابغون مثله ولكن « جلدهم سميك » . . إنهم يحتملون ويقـاومـون . . ويحـاولون أن يقدموا للأمريكى معانى إنسانية جديدة لعله يؤمن بها وينتبه إليها . فلا تأخذه دوامة الآلة بعيدا عن كل ما هو إنسانى .

هناك الأديب المعروف « فوكنر » الذى كان يعمل فى صباه ساعى بريد ، وعانى الحرمان والإهمال وقسوة الحياة الأمريكية ، وهو يكتب عن الزنوج ويصور ما يعانون من عذاب وما يعانيه هو بسبب وجود هذه الـظاهـرة الخالية من الإنسانية . إنه وهو الأبيض معـذب تماما مثل الزنوج . . لأنه يعيش فى العالم الذى يخلق كل هذا الأسى وهذه المرارة .

وهنـاك « جون شتـاينبـك » الـذى كان يشتغل عاملا زراعيا فى الجنـوب الأمـريكى . . وتعتـبر رواياته لوحات « سكوب » للطبيعة الأمـريكية ، فهـو يتحـدث كثيرا عن المياه والحقول والسماء والليالى المقمـرة والشمس الدافئة . كان يريد أن يقول للأمريكان : إن فى

الدنيا شيئا غير الآلة . . إن الحقول أجمل من ناطحات السحاب ، وأشعة الشمس الدافئة أعظم من تكييف الهواء والإنسان أرقى من السيارة .

وكذلك هينمجواى ، إنه يعبد الطبيعة ويقدمها باستمرار فى أدبه كرد على المجتمع الآلى .

وقد عاش هؤلاء الذين يشعرون بالحزن الكبير . . لم ينتحروا ولم يهلكوا أنفسهم ، بل وقفوا يصارعون ويحاولون .

وهذا الحزن « ذو الجلد السميك » الذى يحتمل ويقاوم ، هو الأمل الوحيد فى خلاص أمريكا من المأزق الذى تعانيه والذى يؤدى إلى تدهور النفس البشرية ، إلى العبث والاهتمام بالتافه والرخيص .

بل إن هذا الحزن هو أمل الانسانية كلها . . إنه الحزن الذى يدعو الإنسان إلى أن يعيش بقلبه . . وأن يكون عادلا حرا . . وأن يعطى الحقوق لأصحابها حتي ولو كانوا من الزنوج !

ويوم أن يتحقق ذلك سوف تطمئن روح « جيمس ديـن » ؛ لأن العالم سيتحول إلى كلمة حب وديعة . . تلك الكلمة التى لم يجدها جيمس فى مجتمعه ففارق دنياه وهو شقى حزين .

★ ★ ★

« ملحوظة : بعد كتابة هذا المقال بعدة سنوات توفى الأديب الأمريكى فوكنر ، أما جون شتاينبك فقد اتخذ موقفا سياسيا غاية فى

السـوء والانحراف ، حيث أيد العدوان الأمريكى على فيتنام تأييدا صريحـا، بل وزار القوات الأمريكية المعتدية على الفيتناميين من باب التأييد والتشجيع . أما هيمنجواى فقد انتحر أيضا سنة ١٩٦١ . . لقد قاوم وقاوم ولكن المخاوف والاضطرابات التى تملأ المجتمع الأمريكى تغلبت عليه ودفعته إلى اليأس ثم الانتحار . . وهكذا فحتى هؤلاء الأمـريكـان الـذين كنت أتصـور أنهم أقـوياء قد انهزموا أمام فساد المجتمع الأمريكى » .

ابتســم

« لقـد أتيت بشريعة الضحك
. . . فيـا أيهـا الإنسان الأعـلى
. . . . تعلم كيف تضحك » .

نيتشه . . على لسان
زرادشت

كان المصريون القدماء يقضون نصف عمرهم فى الاستعداد للموت عن طريق بناء المعابد والمقابر . . وكانوا يستغلون أرقى فنونهم وعلومهم فى جعل معابدهم ومقابرهم جميلة . . وقادرة على البقاء الطويل . . ومقاومة الزمن . .

كانوا يخافون من الموت . . ذلك الكائن البشع . . ولم يجدوا أمامهم إلا أن يحاولوا استئناس الموت . . وجعله موتا جميلا أنيقا .

وأعظم ما بقى إلى اليوم من آثار المصريين القدماء : المعابد والقبور . . مما يدل على أن روح الحزن كانت عميقة فى نفوسهم إلى حد بعيد .

ولكن الغريب أن المصريين احتفظوا حتى فى تلك الأيام بروح النكتة والسخرية . . والمرح . . وقد وصفهم مؤرخ قديم بقوله : إنهم شعب لاذع القول . . روحه مرحة .

فما سر هذا التناقض ؟

كيف يجتمع الفرح العميق والحزن العميق فى نفس واحدة ؟

من النظرة الأولى تبدو المسألة غريبة . . ولكن الحقيقة هى أن الابتسام والفرح هما أرقى تعبير عن الحزن العميق . . الأصيل .

إن الحزن هو وليد التجربة الكبيرة ، والخبرة بالناس والأشياء . . إنه دليل على المعرفة العميقة بالحياة . . والمعرفة ـ على رأى حكيم هندى ـ هى قلق عظيم .

فالانسـان كلما زادت خبرتـه وتجـاربه تبين أن الدنيا تنطوى على مأساة . . كل شىء يفلت من اليد ويضيع . . الزهور تذبل والوجوه الجميلة تتغضن . . والعـواطف الحلوة والأطفال والأصدقاء . . كل شىء له محطة يقف عندها ويتلاشى ويذوب .

نضارة الشباب تبتلعها خشونة الشيخوخة وجفافها . . الحب تقتله العـادة والـرغبة فى الامتلاك والتظاهر والمشاغل اليومية الصغيرة . الصداقة تخنقها أنانية الفرد وحرصه على نفسه ومصالحه . . الشهرة والثـروة تصبـح كلها ذات يوم عديمة النفع عندما تتساقط الأسنان ويرتجف البدن ويمشى الإنسان مستندا على عصاه . . فلا تكون لديه القدرة على الاستمتاع بشىء . .

ثم هذه « المصادفة » التى تقف فى طريق البشر وتهددنا جميعا . . الشاب الوديع الجميل الذى كان يعتزم أن يذهب إلى فتاته بعد أيام ويأخذها من يدها فتطيعه فى خجل . . ثم يذهب بها إلى الإسكندرية أو بور سعيد ليقضيا شهر السعادة . . شهر العسل . .

هذا الشاب الذى نسجته أحلام رقيقة حلوة فامتلأ بالبراءة والفرح والنشـوة ، كان يسير فى شارع سليمان . . فصدمته عربة وتحول إلى كتلة من العظام المعجونة بالدم . . ونقلوه إلى المستشفى ، ومات . .

أليست هذه المصادفة شيئا كئيبا ، يترصد الوجود البشرى . ومن الممكن أن تقفز فى أى لحظة من لحظات السعادة لتفسد كل شىء !

أليس فى نهاية الطريق بئر عميقة تبتلع كل شىء وتطويه اسمها : الموت ؟ !

وفجأة . . يقف الإنسان وحيدا . . ليجد أن كل شىء باطل الأباطيل . . وقبض الريح .

حتى الأديان التى ظهرت لتساعد الناس على الحياة والتعاون . . تتضمن هذه المعانى . . فتعطى لحياة الإنسان صورة الشىء الزائل المنتهى . . وتقرع الأجراس ، وتؤذن على مئذنة ، لتنبه إلى أنه مغرور ومشغول بشىء تافه صغير سوف ينتهى إلى العدم . . إلى أن يصبح ترابا رخيصا لا قيمة له . .

ولكن . .

هل هذا هو كل شىء عن وضع الإنسان فى هذا العالم ؟ مما لا شك فيه أن هذه الأشياء كلها حقائق . . وأن الفهم العميق للحياة يؤدى إلى الشعور بضآلة الإنسان . . ويفتح أمام القلب البشرى منبعا واسعا للحزن .

ولكن الإنسان الحزين فقط هو مشروع إنسان وليس إنسانا كاملا . . أما الإنسان الناضج . . الذى يفهم بعمق . . فهو الذى يبتسم ويفرح . .

وإذا كان الحزن دليلا على المعرفة والفهم فالفرح والابتسام هما دليل على احتمال الحياة . .

عندما يبتسم الحزين ويفرح فهو يقول لنفسه وللحياة : أنا طرف فى المأساة . . ولكنى قررت أن أحتمل . . وأستمر فى السير . . وأنا أدرك أن الشوك يملأ الطريق . .

وهذه الحقيقة نفسها هى السبب الذى جعل المصريين القدماء يحملون فى قلوبهم أقوى الأحزان . . ثم يعبرون عن هذه النفس الحزينة بالفرح والنكتة . .

فقد اختاروا أن يكافحوا ضد الحزن . . وأن يجعلوا القبر هرما ضخما . . والمعبد مكانا جميلا أنيقا . . ويذهبوا إلى العالم الآخر فى « زفة » من الرقص والأغانى . . بل ويحملوا معهم الطعام والجواهر التى يتزينون بها كأنهم فى عرس لا فى مقبرة .

وقد كان الشاعر «بيرون» يقول: «ما ضحكت على مشهد بشرى زائل إلا وكان ضحكى بديلا أستعين به على البكاء » .

فكلما اشتد به الحزن قاده إحساسه الجميل العميق إلى : الضحك ، والابتسام . . إنه لم يشأ أن يعبر عن حزنه تعبيرا سطحيا . . . وليس هناك أكثر سطحية من الدموع ، والاستسلام للكآبة . .

أما التعبير القوى عن الحزن فهو الفرح ، والبشاشة ، ومقاومة الآسى . . وتذليله وعزف الموسيقى له . .

أمـا « أوسكـار وايلد » فقـد ناقش نفسه طويلا فى مسألة الحزن والابتسام، وتوصل أخيرا إلى أن الطريقة الوحيدة للقضاء على متاعب الحياة وتغيير هذه المتاعب . . هى الابتسام . .

ويقول الفنان الجميل العذب « وايلد »[1]:

« إنى لأذكر كيف أن دانتى قد جعل فى الدرك الأسفل من النار الذين عاشوا عامدين فى جو من الحزن ، وإنى لأذكر تلك الفقرة التى جاءت فى الكوميديا الإلهية . . وكيف جعل دانتى أولئك العابسين فى الربيع الجميل الضاحك يتمرغون فى الأوحال والمستنقعات » .

« . . . ولقد كان فى نيتى أن أعيش على أن تفارقنى الابتسامة فراقا لا لقاء بعده . . وعلى أن يلازمنى طابع الحزن ملازمة دائمة فلا يكون بيننا انفصال ، وعلى أن أجعل كل بيت أدخله بيت أحزان ، ومأوى هموم ، وعـلى أن أجعل أصحابى يمشون معى وهم فى حزن يحيل الشعر الأسود إلى شعر أبيض . . وذلك لكى أعلمهم أن الكآبة سر الحياة » .

« ولكنى اليوم غيرى بالأمس ، فقـد رأيت غير لائق بى . . بل رأيت من الجحـود فى حق أصحـابى أن ألقـاهم عابسـا واجمـا ، فيصبحوا مضطرين إلى أن يلقونى من باب المشاركة وهم أكثر وجوما

---

(١) وردت هذه الكلمات فى فصل من كتاب « من الأعماق » لاوسكار . وقد ترجم هذا الفصل إلى العربية مبارك إبراهيم .

وحزنا . واجب على أن أتعلم منذ اليوم كيف أبدو سعيدا قرير العين مسرورا » .

هذا ما توصل إليه « أوسكار وايلد » بعد تجربة واسعة فى الحياة . . جرب الشر والرذيلة والفوضى ، كما جرب الخير والحب والسعادة . . وذاق حلاوة الحياة الأرستقراطية المترفة . . بكل ما فيها من نعيم ومتعة وتفاهة وانحطاط . ثم جرته أخلاق الأرستقراطية المنحلة إلى الشذوذ الصاخب الذى أدى به إلى المحاكمة ثم السجن . . وقضى سنتين فى عذاب السجن وحيدا لا يهتم به أحـد . . وقـد تركته أحلام الدنيا الصاخبة لتأملاته وأحزانه .

وتبين أخيرا أن الحياة فى أعماقها هى تجربة محزنة . . ولكن لابد من احتمالها .

كان يظن أن الحزن والكآبة هما سر الحياة . .

وتبـين له أن الابتسـام واحتـمال الحزن هما سر الحياة . . بل ان المبتسمـين هم الحـزانى الحقيقيون فى هذا العـالم . . هم الفـاهمون المترفعون الذين يملكون السر المختفى بين الزحام والضجيج ، أما الكآبة والدموع . . فأصحابها عابرون على السطح .

والمسـألة ليست هى أن نفهمْ وندرك فقط . . بل لابد أيضا أن نتحـرك ونتصرف . . وقـد اكتشف أحـد علماء الاجتـماع أن معظم « الأبـطال » يتميزون بالبشـاشـة والـروح المرحة . . بالرغم من أن

البطولة فى حقيقتها احتمال للمتاعب والمصاعب . . والتعرض عسيرة من الأحزان .

فكل شىء فى نظر « البطل » كما يقول المفكر الأمريكى أمرسون : « ينبغى أن يكون مرحا كشدو الكنارى . . حتى تشييد المدن أو إزالة الكنائس والأمم العتيقة التى وقفت فى سبيل الدنيا آلاف السنين » .

والبـطل ليس هو الإنسان العادى . ولكنه مثل أعلى لنا جميعا . وعلينا أن نفهم تصرفاته النفسية . . فهذه التصرفات هى التى تعطيه وتعطينا معه القوة والحيوية والقدرة على العمل . .

إن البطل يختار التفاؤل والمرح حتى وهو غارق فى لجة الأحزان . وابتسامته قوة تساعد على اقتحام المصاعب . . وتنقذ روحه من التمزق الذى قد يؤدى به إلى التردد وفقدان الهدف وراء ستار من الدموع .

إنه يعيش وهو يبتسم ويتألم وهو يبتسم . . ويموت محترقا أو مشنوقا أو مضروبا بالرصاص . وهو يبتسم . .

وليس بطل التاريخ وحده هو الذى يعرف قيمة التفاؤل والسرور فى معـركـة الحياة . . فالبـطل المجهول الذى يقوم بالأعمال الصعبة يعرف أيضا قيمة الغناء والرقص وهو يقوم بعمله .

ونحن نعرف « المراكبية » هؤلاء البحارة الشعبيون الذين يشدون سفنهم على صفحة النيل من أسوان إلى الإسكندرية ورشيد . . إنهم يغنون دائما وهم يصارعون النيل والملل والريح والطريق الطويل . . .

لا ينطلق الحزن من داخلهم . . بل يظل حبيسا مختفيا . . فالحزن يغرق السفن ويطيل الطريق ويكتم أنفاس الرياح .

★ ★ ★

ولا أعرف فى أدبائنا أكثر حزنا وانطواء على النفس من توفيق الحكيم فقلبه ملىء بالأسئلة والشكوك . وأعماله المسرحية والروائية يبللها حزن وعذاب نفسى عميق ، فهو دائما يتساءل عن سر الحياة . . وسر المرأة . . وسر القلب البشرى . . وسر الزمن . وهذه الأسئلة الحائرة الحزينة لا تجد عنده أى جواب ، ولكن توفيق الحكيم استطاع أن يسيطر على إحساسه بالحزن والمأساة فاستخدم الفكاهة فى كتاباته حتى يخفف من هذا الشعور الكئيب ، ويعبر عنه بطريقة راقية . . وفى روايته الرائعة « عودة الروح » يظهر عنصر الفكاهة دائما كلما اشتدت حدة المأساة وتأزمت أحداث الرواية . . .

كأن توفيق الحكيم يقول بذلك : إن الحياة تصنع المأساة . . ولكن الفرح والابتسام هما الشىء الذى نخلقه نحن لنرش الماء على النار . . ونبنى أسوارا حول العاصفة التى فى داخلنا حتى لا ندع لها أن تدمرنا . . وتقضى علينا . .

وهى قد تدمرنا حينما تدفعنا إلى الانحلال . أو تدفعنا إلى الإحساس بأن مواقف الحياة متساوية . . وأن العمل والجهد لا قيمة لهما . . ما دامت النهاية واحدة ومعروفة .

وقد روت زوجة الأديب العالمى تشيكوف : أنه أضحكها بعمق قبل موته بساعات وهو مريض وملقى على السرير . . ويعلم بإحساسه وبمعرفته بالطب ، أنه يوشك أن يموت . .

ورغم ذلك فقد فكر فى إضحاك زوجته عندما روى لها انه يحلم بكتابة قصة فكاهية . . تدور حول جماعة من السياح الأمريكان والإنجليز فى أحد المصايف . . « كيف اجتمعوا جميعا قادمين من رحلاتهم القصيرة أو نزهاتهم ، وهم يأملون فى الفوز بعشاء طيب دسم بعد المجهود الجثمانى الذى بذلوه طوال يومهم . . ولكنهم يكتشفون فجأة أن الطاهية هربت قبل أن تعد طعام العشاء » وكان يريد بهذه القصة أن يقدم « ضربة موجهة إلى بطون هؤلاء الأشخاص المدللين » .

وضحكت الزوجة من أعماقها . .

وبعد ساعات أسلم الفنان الضاحك الحزين روحه . . كان آخر ما تركه للدنيا التى ظلمته كثيرا ، وعذبته أفظع العذاب . . هو ابتسامة حلوة جميلة . . ورغبة فى أن يضحك الناس معه من قلوبهم . . رغم المأساة . . ورغم الحزن والمرض والموت .

إن روح المرح المنبعثة من الحزن العميق لاتتوافر دائما إلا فى أشرف الناس وأكثرهم نبلا وصفاء . . واجتهادا فى تجميل الحياة . .

إن الابتسامة هى الاكتشاف الذى توصلت إليه هذه النفوس العميقة . . التى شربت أكثر كؤوس الحزن مرارة . وعرفت أن أعظم ما فى الحياة هو احتمال الحياة . .

إن الابتسام هو سر الحياة . . هو الترفع على أذاها والتكبر على مشاكلها . . وهو الجهد المتواضع النظيف لوضع الزهور على المقابر . . واعتصار المحبة من أشواك العواطف الصغيرة . . وهو الاستغناء الجميل والاكتفاء بسعادة الرضا الداخلى وتدريب النفس على الاحتمال .

إن حبيبك الذى هجرك . . وصديقك الذى تخلى عنك . . وزميلك الذى لا يبالى بمشاعرك ، والمرض الذى قد تهاجمك به الطبيعة . .

كل هؤلاء يخافون ابتسامتك . . ويزدهرون وينتعشون على قطرات من دموعك . فابتسم .

المنتحـــرون ...

كان المجتمع القديم فى مصر قبل سنة ١٩٥٢ ضعيفا قاسيا مليئا بالآلام المريرة التى تجعل الطريق فى عيون الناس مسدودا ، وتعكس على حياتهم ونفـوسهم أسـوأ الآثـار . وهذه ثلاثة نماذج من مجتمع زمان .. مجتمع الأزمة والانتحار .

فى صيف ١٩٤٠ شاهـد الناس على شاطىء الإسكندرية رجلا رقيق الجسم يسير وفى يده كمية من الشيكولاتة يأكل منها ، وكلما قابله طفـل أعطاه واحدة ، كانت على شفتيه ابتسامة إذا رآها أحد ورأى تصرفـاتـه أحس أنـه نصف مجنـون ، ولكن إذا تأمل الإنسان هذه الابتسـامـة التى تملأ الوجه الرقيق الشاحب فإنه سوف يجد وراءها شعورا عميقا بالعذاب والضياع .

انتهت الشيكـولاتـة التى كان يحملها ، وفوجىء الناس بالرجل الـذى كان يوزع الابتسامات والشيكولاتة منذ قليل يلقى بنفسه فى

البحـر فتبتلعه الأمواج ، ويحاول الناس إنقاذه ، فلا يستطيعون إلا إخراج جسده الميت من الماء .

وسأل الناس عن هذا الذى انتحر بتلك الطريقة الغريبة الشاذة ، وعرفوا أنه الكاتب العالم إسماعيل أدهم .

لقد انتحر بطريقة غريبة حقا . وقبل أن يموت فإنه عاش حياة أكثر غرابـة وشـذوذا . . لقد انتحر فى سن صغيرة ، لا تتجاوز الخامسة والثلاثين بعد مغامرات غريبة فى الفكر والحياة . .

حاول إسماعيل أدهم فى حياته أن يقنع الناس أنه ليس من مصر ، وإنما هو مستشرق تركى تعلم فى روسيا ونال منها شهادة الدكتوراه فى العلوم . وصدقت الصحف هذه القصة ، وكانت تنشر له أبحاثه على هذا الأساس .

وقـد حدثنى عدد من الأصدقاء الذين عاشوا فى الإسكندرية ، وعرفوا إسماعيل أدهم ، أن القصة الحقيقية لهذا الشاب هى أنه ابن لأسرة مصرية فقـيرة من الإسكندرية ، تعلم تعليما محدودا ، وكان يمتـاز بالـذكـاء الحـاد . . فانصرف إلى الدراسة والقراءة ، واختار الفلسفة والرياضيات ، وتقدم فى دراسته الخاصة به حتى وصل إلى مستوى ملحوظ فى فهم هذه المسائل الصعبة ، وكان يبحث لنفسه عن طريق فى الحياة ، طريق يعمـل منـه ويكسب ، ولكن الطريق كان مسدودا أمامه .

كان المجتمع فى ذلك الحين يواجه أزمة عنيفة ، أزمة يصعب على الفـرد الممتاز معها أن يجد لنفسه طريقا فى الحياة، وخاصة إذا كان هذا الفرد غير مسلح بأى شىء . . فهو ليس من أسـرة ثرية تساعده وتحميه حتى يصل إلى ما يريد ، وهو لا يحمل شهادة علمية تسمح له بالعمل فى داخـــل المجتمـع . . لقـد كان معتمـدا على جهـده الشخصى وحسب . . وهذا الجهد لا يستطيع أن يحل له مشكلة من المشاكل .

كما أن مجتمـع مصر فى ذلـك الـوقت لم يكن يميل إلى الـدراسة العلمية . . كان الإنجليز يسيطرون على الاتجاهات الرئيسية فيه . . وكان أكثر الأشياء التى يكرهونها هو نمو الوعى العلمى عندنا .

إن نمـــو العلم يترتب عليه نمـو الصنـاعـة . . وكـان الإنجليز مصممـين على تعـطيل الحركة الصناعية فى المجتمع . . ألسنا بلدا زراعيا لا يصلح للصناعة ؟ ! هكذا كانوا يقولون دائما .

وكان عندنا عدد بسيط جدا من العلماء والمهندسين والأطباء ، بل كان معـظم الـذين يقـومـون بالأعمال العلمية كالهندسة وغيرها من الموظفين الإنجليز .

حتى الـذين درسـوا وتعلموا فى القاهرة وأوربا كانوا يعانون أزمة عنيفة ، فليس فى البلد أى معامل . وليس هناك إقبال من الدولة على العلم . . كان مصـطفى مشرفـة عالـما عربيا عظيما ، وكان صديقا وتلميذا لأ ينشتين ، درس نظريته ، وكان واحدا من أبرز علماء العالم

الذين فهموها فهما عميقا فى وقت مبكر ، ومع ذلك فقد عاش هذا الرجل فى مصر قبل الثورة حياة تعيسة أليمة ، حتى أصيب فى آخر حياته بأمراض عصبية خطيرة كادت تقوده إلى الجنون ؛ وذلك لأن كل ثقافته العلمية لا قيمة لها فى مجتمع يكره العلم والعلماء ولا يعطيهم أى فرصة . . وكان باستطاعة هؤلاء العلماء أن يفعلوا شيئا . . ولكنهم بدلا من ذلك أصيبوا بأمراض مختلفة من بينها الجنون !

كان إسماعيل أدهم يعيش فى هذا المجتمع المضطرب المصاب بأزمة « كراهية العلم » تحت ضغط المستعمر . ولم يكن أدهم يملك غير ذكائه سلاحا ليواجه به المجتمع . . وكان الحل فى نظره هو :

أن يكذب على المجتمع ويتظاهر أمام الناس ، فأطلق ذقنه ، وقال إنه مستشرق نال الدكتوراه من روسيا ، وهو فى حقيقة الأمر إسكندرانى فقير لا يعرف روسيا وليس له بها أى علاقة من أى نوع . ومن أين للناس أن يعرفوا الحقيقة ؟ . . إن مصر لم تكن على علاقة دبلوماسية مع روسيا حتى عام ١٩٤٥ ، أى بعد انتحار أدهم بخمس سنوات .

كتب أدهم كثيرا فى الرياضيات والطبيعة ، وكان يعيش حياة تعيسة قاسية على قروش تأتى له من هنا أو هناك .

ولم يكن الكذب كافيا فلجأ إلى التحدى وألف كتابا بعنوان « لماذا أنا ملحد » ، ويعتبر هذا الكتاب من أخطر الكتب وأجرئها فى الثقافة العربية الحديثة . .

وكـان إسـماعيل أدهم يحاول أن يفسر إلحـاده على أسـاس علوم الطبيعة والرياضيات ، وقد نشره له أحد الناشرين بالإسكندرية .

قبـل هذا الكتـاب كان أدهم يلقى إهمـال الناس . . . فأصبح مهملا وملعونا فى وقت واحد . .

لقد ثار عليه المجتمع ووقف ضده .

ولكنـه استمـر يكتب ويعـانـد ، ونشر مقـالات كثـيرة فى مجلة « الرسالة » التى كانت تصدر فى القاهرة ، وفى مجلة « الحديث » التى كانت تصدر فى حلب .

ثم ألف كتـاباً هاما عن توفيق الحكيم ولم يتم هذا الكتاب ، فقد انتحـر قبل أن ينهى فصوله الأخيرة . . وقام الدكتور إبراهيم ناجى بإتمام الكتاب ، وطبعته مجلة «الحديث » فى حلب .

والواقع أن هذا الكتاب يعتبر من أفضل الدراسات النقدية التى ظهرت عن توفيق الحكيم فى الأدب العربى حتى اليوم ، بالرغم من أنها دراسة غير معروفة على نطاق واسع .

لقد ظل البؤس المادى والمعنوى يسيطر على حياته حتى انتهى به الأمر إلى الانتحار .

لقد أغرقته الديون وطاردته لقمة العيش ، وعجز عن الحصول على مأوى يحميه . . فاختار هذه النهاية .

أما دراساته العلمية فلم تجمع إلى اليوم فى كتاب ، رغم أنها دراسات ممتازة عميقة . . وكثير من الناس لا يعرفون حقيقة هذا الرجل حتى الآن ، ويظنون بالفعل أنه كان مستشرقا ، بل كان أصحاب الصحف والمجلات ينشرون مقالاته على هذا الأساس .

والحقيقة التى يؤكدها الذين عرفوه عن قرب فى الإسكندرية ويؤكدها أيضا عدم معرفته الدقيقة باللغات الأوروبية كما كان يظهر من الاصطلاحات الكثيرة التى كان يوردها فى مقالاته .

هذه الحقيقة تؤكد أنه أحد أبناء الإسكندرية ، ومن الجائز أن يكون من أصل تركى بعيد جدا ، وكل القصص التى كتبت عن حياته تبدو أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقيقة ؛ مما يجعل منها قصصا مشكوكا فيها إلى أبعد حد ، فلا يوجد أى دليل يثبتها غير روايته هو .

★ ★ ★

وفى سنة ١٩٤٠ ، وبعد هذه الحادثة بقليل أطلق شاب وسيم لم يتجاوز الثلاثين من عمره الرصاص على نفسه فى حديقة بيته الجميل الأنيق بالإسكندرية أيضا . وكان هذا الشاب كاتبا شاعرا بدأ نجمه يلمع شيئا فشيئا . . ولم تكن أمامه عقبات . . بل كان الطريق مفتوحا أمامه ليتفوق وليزداد نجمه بريقا . . فما الذى دفعه إلى هذه النهاية الأليمة ؟

كان فخرى أبو السعود ـ وهذا هو اسمه ـ طالبا لامعا يحرص على عزلته ، قليل الكلام ، كثير القراءة . . كان منذ صباه متميزا بصورة

واضحة، وفى أحد الأعوام، وهو طالب فى معهد المعلمين، قرر زملاؤه أن يقوموا بالإضراب عن الامتحانات احتجاجا على الأساتذة الإنجليز . . وفوجىء الطلبة بفخرى أبو السعود يدخل قاعة الامتحانات ليكون الطالب الوحيد الذى يؤدى امتحانه . . وكانت النتيجة أن أفسد على زملائه كل شىء ، ولما سأله أحد أصدقائه عن سر خروجه على إجماع الطلبة وتعريض نفسه لاتهامات كثيرة فى وطنيته وأخلاقه . . قال :

« إننى وطنى ووسيلتى فى محاربة الإنجليز هى أن أتعلم . . إن العلم هو أقوى سلاح لهزيمتهم . . ولا يهمنى ذلك السخط السطحى الذى تمتلىء به نفوس الطلاب ضدى ! » .

ونجح بعد ذلك وتفوق ، ثم نجح فى مسابقة لبعثة إلى إنجلترا وكان الأول ، وسافر إلى لندن ليدرس الأدب الإنجليزى سنة ١٩٣٢ وعاد بعد ذلك بسنتين ومعه زوجة إنجليزية . . فتاة جميلة رقيقة ، أحبها هناك وكانت زميلة له فى الدراسة . . وعندما عاد عمل مدرسا ، وبدأت الصحف الأدبية تنشر له شعره ودراساته الأدبية العميقة التى تكشف عن ثقافة قوية ، ثم نشر بعد ذلك ترجمة لرواية تعتبر من روائع الأدب العالمى هى : رواية « تس » لتوماس هاردى .

وكانت حياته الخاصة فى الإسكندرية مثالا للهدوء والسعادة ، كان عصفورا أنيقا وجد العش الهادىء الجميل ، فاستراح ، وأخذ يفكر فى الإنتاج والإبداع فى ظل حبه ومدينته الوادعة ، وبيته الحلو . . ثم على صوت طفل صغير جميل . . فقد أصبح أبا .

وأصبح طفله بالنسبة له شيئا أساسيا يعطى لحياته معنى جديدا . وقـامت الحـرب سنة ١٩٣٩ ، وكانت زوجته قد سافرت قبل ذلك بقليل لتزور أهلها ثم تعود إلى زوجها الذى أحبته ، وإلى المدينة التى سعدت بها واستقرت فيها . . وأخذت معها ولدها الذى أصبح صبيا صغيرا . . . وعاش فخرى أبو السعود وحيدا ينتظر عودة الزوجة . . كان الأمـل والحب يضيئـان حياته . . ولكن الحرب قامت . . فلم تستطع زوجته العودة . . ثم وصل إليه خبر قاس مرير . فقد جمعت الحكومة الإنجليزية عددا كبيرا من الأطفال الإنجليز فى سفينة وأرادت أن تبعث بهم إلى كندا بعيدا عن غارات الألمان . ولكن السفينة تغرق ويمـوت كل من بها من الأطفـال ، وكان من بينهم ابن فخرى أبو السعود . . ولم يحتمل الأديب الشاعر الحساس تلك الصدمة الأليمة المريرة . .

وكـانت سنـة ١٩٤٠ فى الـواقع سنة اليأس الكبير ، فقد كانت انتصارات هتلر متتالية ، وكان الغرب منهارا إلى أبعد الحدود ، وكانت النظرة إلى الواقع فى ذلك الحين تدعو إلى اليأس . . لم يكن هناك أمل فى هزيمة هتلر وانتصار الدول الغربية . . كان جوا قاتما يفرض اليأس على الناس . .

وقد تصور فخرى أبو السعود أنه فقد الصلة بينه وبين زوجته إلى الأبـد . . كما فقـد الصلة بينه وبين ابنه الذى مات غريقا فى كارثة السفينة فقرر أن ينهى حياته بيده .

★ ★ ★

وقبل هذه الحادثة بعشر سنوات تقريبا أغلق شاب على نفسه حجرة كان يسكن بها وأشعل فى نفسه النار . . ورأى الجيران الدخان يتصاعد من الحجرة . . فاندفعوا إليها ليجدوا جثة تحترق ما يزال صاحبها يئن وهو يرسل أنفاسه الأخيرة . . فأطفأوا النار ولكن الجسد كان قد فارق الحياة .

كان هو الآخر شاعرا رقيقا اسمه أحمد العاصى ، وكان ما يزال صغير السن لم يصل إلى الثلاثين من عمره بعد ، وكان أحمد شوقى أمير الشعراء فى ذلك الحين يعرفه ويحبه .

فما محنتـه . . ما مأســاتــه التى دفعتـه إلى هذه النهـاية ؟ إنها محنة الإنسان الحساس الذى لا يعرف طريقا واضحا لمواجهة الأزمة فى مجتمع متخلف مظلم . . وخاصة فى ذلك الحين الذى كان الشخص الممتاز فيه شذوذا غير مقبول على الإطلاق .

وقـد اختلف الشـاعر مع والده التاجر الذى كان يعيش فى أحد الأقـاليم . كان أبوه يريد منه أن يكون تاجرا مثله، وأن يترك طريق الفن ، هذا الطريق الخيالى الذى لا قيمة له فى نظر تاجر لا يعرف إلا معنى الكسب والربح . وحاول أن يضغط على ابنه ويكلفه ما لا تطيق نفسه الحساسة الرقيقة . . وبالطبع لم يستجب الابن لهذا الضغط ، وفشلت علاقته بوالده الذى قاطعه واعتبره ابنا ملعونا . . وكان لهذه التجربة أثرها الأسود الكئيب فى نفس الشاعر الشاب ، فقد فاجأته هذه التجـربـة فى وقت كان يعانى فيه تجربة حب فاشل . . وكيف

يمكن لتجربة حب أن تنجح فى مجتمع ١٩٣٠ وما قبلها ؟ لقد كانت المرأة فى ذلك الحين أكثر من سجينة ؛ ولذلك فقد كان أدب تلك الفترة أدب الحرمان والحزن والدموع . . وسافر الشاعر الحساس إلى لبنان . . وحاول أن ينسى محنته مع أبيه . . ومحنته مع فتاته . . وعاد بعد فترة وقد ألف رواية طويلة ، ثم نشر بعد ذلك ديوانه الوحيد وأسماه « ديوان العاصى » ، وكتب فى مقدمته يقول :

«ألمت بى محنة من محن الدهر ألزمتنى العزلة حيا، فشعرت بحاجة حادة لأن أشغل نفسى بقول الشعر فيما شغلنى من شؤون الحياة من قبل ، فلما ودعتنى المحنة جمعت هذا الشعر وضممت إليه شيئا من حديث شعرى وقدمته إلى الناس ، فإن قبلوه كان ذلك خير عزاء وخير جزاء » .

وقد قدم أمير الشعراء أحمد شوقى هذا الديوان بقصيدة هذا نصها :

هذا شباب الشعر يلمح ماؤه
من جدول العاصى ومن ديوانه
من كل قافية كأن رفيفها
من طل آذار ومن ريحانه
وكأن رنتها ونغمة شعرها
من طيره الصداح فى أغصانه
هجر التكلف بيتها فكأنما

من قلبــه بنيت ومن وجــدانـه
ويكـاد يلمسـك السرور يراعـه
وتـرى يد الأحـزان حول بنـانـه
يشكـو الـزمـان لنا فيا لك يافعا
ناءت بمـسيعـتــه هموم زمـــانـــه
ولتعلمن إذا السنــون تتــابعت
أن الـتـشكى كان قبــل أوانـــه

على أن محنة هذا الشاعر الشاب كانت متعددة الجوانب ، وكان من جوانبها أنه كان تلميذا لطه حسين فى كلية الآداب ، وكان يحاول أن يناقشه، ولكن خيل إليه أنه لايلقى من أستاذه الترحيب الكافى، ففقد ثقتـه فى ذلـك الأستـاذ الـذى كان حينـذاك علما لامعـا من أعلام العصر ، وتصور الشاعر الحساس أن طه حسين يضطهده ، وامتلأت نفسـه بالأسى والحـيرة، ولم يجد طريقـا يخرج به من تلك الأزمـة العـاصفة فى نفسـه ، وقد تعددت جوانب هذه الأزمة من جانب عاطفى إلى جانب عائـلى إلى جانب فكـرى . . . وأخـيرا اختـار أحمد العاصى الانتحار بتلك الطريقة المؤسفة المريرة . . . لقد أحرق العاصى نفسه .

★ ★ ★

هؤلاء المتحـرون الثـلاثـة لايمثلون أنفسهم وحسب، بل هم يمثلون جانبا من الجيل الذى ظهر فى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى

إلى نهاية الحرب الثانية ، وكما كان هناك من أبناء هذا الجيل من ناضلوا وصمدوا ووقفوا فى وجه الظروف الصعبة ، فقد كان هناك أيضا تيار كبير يمثل بين أبناء هذا الجيل نوعا حادا من الحزن والقلق وعـدم القدرة على معرفة طريق للخلاص أو النجاة . كان هناك من يظنون أن الحياة قد أصبحت تمضى فى طريق مسدود يملؤه الحزن والفشل والعذاب ، وقد تكون أسماؤهم غير معروفة للكثيرين ، ولكن حياتهم فى الـواقع كانت غنية وخصبة على قصرها . . وكانت دالة على نوع المجتمع الذى يعيشون فيه . . . وبعدهم جاء جيل آخر كان يعانى نفـس الحزن والقلق ، ولكنه استطاع أن يجد طريقا للخلاص . . لقد اختاروا هم طريق الانتحار أما الجيل الجديد الذى ظهر بعد الحرب العالمية الثانية . . فقد اختار طريقا آخر هو : الثورة والتمرد .

الزوجة المظلومة

احذرى أن تتزوجى عبقريا !

بهذه الكلمات نصحت كاتبة أمريكية كل بنات جنسها . فالعبقرى - من وجهة نظر هذه الكاتبة - رجل يعيش بالمقلوب . . وطريقته فى التفكير تختلف تماما عن طريقة الآخرين . إنه لن يحتمل ثرثرة المرأة أو ضجيج الأطفال ، وهو غالبا ما يبنى حياته على أساس الوحدة والعزلة ، إنه يريد أن يعيش مع أفكاره ونفسه أكثر من الحياة فى المجتمع أو مع الناس .

بلزاك ، أكبر قصاص فرنسى من القرن الماضى كان يعيش لفترة طويلة فى بيت ليس فيه أثاث سوى بلزاك نفسه . . ومع ذلك فقد كان يتصور أنه يعيش فى أكبر قصور فرنسا . لقد أمسك بقلمه وكتب على جدران البيت : هنا لوحة لميكلانجو . وهنا لوحة لدافنشى . . وبهذه

الطريقة الوهمية ملأ البيت بالأثاث الفاخر واللوحات الرائعة . . وإذا نام على الأرض بعد ذلك فقد كان يتصور أنه نائم على سرير من ريش النعام ! !

برنارد شو ، عندما تزوج بعد الأربعين اشترط على زوجته ألا يكون بينهما علاقة جنسية ، وعاشت معه الزوجة ثلاثين سنة فى « زواج روحى » .

هافلوك أليس ، العالم النفسى المشهور ، اتفق مع زوجته على أن يعيش كل منهما فى بيت منفصل ، وألا يلتقيا إلا شهرين خلال السنة . . واستطاع الزوج العبقرى أن يحتمل هذه الحياة . أما الزوجة فلم تستطع فانهارت أعصابها وانتهى بها الأمر إلى المستشفى ثم ماتت .

ولكن أكبر مأساة من هذا النوع هى مأساة زوجة الأديب الروسى الكبير تولستوى .

لقد ماتت هذه الزوجة بعد أن هجرها كل الناس حتى أولادها . . وماتت مجنونة !

ولم ينته السخط عليها بعد موتها ، فقد ظهرت عشرات الكتب والمقالات تهاجم الزوجة ، تقول إنها كانت سبب التعاسة والعذاب فى حياة زوجها العظيم .

حتى صغرى بناتها أصدرت كتابا تقول فيه : إن أمى هى سبب المأساة فى حياة أبى . .

ودائما يتجدد الاتهام لزوجة تولستوى عندما يحتفل العالم بذكرى ميلاد الأديب الروسى الكبير فى ٢٨ أغسطس « آب » . . ويقدم العالم الزهور لذكرى تولستوى ، أما اللعنة فتصيب صوفيا أندرييفا زوجته .

عاشت صوفيا مع زوجها خمسين سنة وأنجبت له ثلاثة عشر ولدا وبنتا . . وكان تولستوى يحبها حبا كبيرا . . فما سبب المأساة إذن ؟

إن أكبر حادثة فى حياة تولستوى هى هربه الأخير . . لقد ضبط زوجته وهى تفتش مكتبه وأوراقه ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يضبطها فيها وهى تفعل ذلك . لقد كررت هذا التصرف مرارا بحثا عن أسرار زوجها ومذكراته ووصاياه .

وعندما ضبطها تولستوى وهى تفعل ذلك لم يقل لها كلمة واحدة ، وذات ليلة ـ وبعد أن نام الجميع ـ خرج من قصره وقد قرر الهروب إلى الأبد من زوجته ومن حياته القديمة .

ولم يحمل تولستوى معه سوى قلم وبضعة أوراق ، ولبس ملابس الفلاحين الخشنة المتواضعة ، ووضع على رأسه طاقية غطت معظم جبهته ، وحاول أن يخفى شخصيته تماما تحت هذه الملابس ، بل وغير اسمه فأصبح «ت . نيقولاييف » . . وكان يريد بذلك أن يبدأ فى الثانية والثمانين « حياة جديدة » ويفتش عن « موت نقى صالح » .

ركب القطار وحاول أن يذهب بعيدا إلى آخر حدود بلاده ، هناك حيث لاتطارده زوجته ، وحيث لا يطارده المجد والشهرة ؛ كى يموت فى سلام ، بعيدا عن تلك الأشياء الزائفة فى الحياة .

ولكن الناس اكتشفوا أمره فى اللحظات الأخيرة ، غير أنه كان قد اقترب من الحدود الأخيرة للحياة ، ولم يعد بينه وبين الموت إلا مشوار قصير لا يزيد على أيام .

نزل الفنان العظيم فى إحدى القرى الصغيرة حيث رقد على سرير حديدىٍ قديم فى مكتب ناظر المحطة . . ورفض أن يرى أحدا ، ورفض على الخصوص أن يلتقى بزوجته التى كانت تقف أمام مكتب ناظر المحطة حيث قضى تولستوى بضع ليال لم يستقبل غير الطبيب .

إن أول خلاف نشأ بين « صوفيا » وزوجها كان حول الأرض . لقد كان تولستوى إقطاعيا كبيرا ورث عن أهله أراضى واسعة ، ولكنه كان فنانا ومفكرا ، وكان قبل كل شىء إنسانا عميق الإنسانية .

وبعد أن قضى شبابا سعيدا، وفى لحظة باهرة من حياته، وقف يسأل : لماذا أملك الأرض ، ويجوع الفلاحون ؟

لماذا آكل أنا فى أطباق من الذهب ولا يجدون ما يأكلون ؟

لماذا يعملون هم فى الأرض فتتشقق أيديهم ويشرب التراب من عرقهم وأقضى حياتى فى كسل شنيع ؟ !

وفى الآخر تصبح الثمار لى . . كل الحصاد لم أزرع منه بذرة واحدة . . ويجىء كعبد أجير . . لأستفيد منه وأستمتع وحدى ؟

هل هو الفن الذى أكتبه سبب ذلك ؟

إن الفن شيء تافه ، إنه عبث وترف يفكر فيه الكسالى الذين لا يعرفون معنى الألم . .

وثار الإنسان العظيم فى قلب تولستوى على الإقطاعى، وقرر أن يوزع الأرض على الفلاحين .

ووقفت صوفيا فى وجه زوجها . .

فالأرض التى وزعهـا على الفـلاحـين ، أعـادتها بالقـوة . . والفلاحون الذين كانوا قد أصبحوا مالكين حولتهم هى من جديد إلى أجراء .

واستسلم تولستوى لزوجته بعد صراع .

ولكنه كان استسلاما ظاهريا ، فقد كان لا يكف عن تعذيب نفسه وإذلالها . . كان يذهب إلى العمل مع الفلاحين ، وكان يقضى أياما فى صناعة حذائه الخاص بيديه، وكان يهاجم القيصر أمام الجميع وهو يتمنى من وراء ذلك أن يسجنه القيصر أو ينفيه فيتحول إلى شهيد . . إلى رمز لأفكاره التى ينادى بها ولا يستطيع تحقيقها فى حياته الخاصة .

★ ★ ★

لقـد تحول تولستـوى إلى ما يشبـه النبى عنـدمـا تحول من كتابة القصص والروايات إلى المناداة بدعوة سياسية واجتماعية شاملة : دعوة إلى الحب ، ودعوة إلى إلغاء نظام الامتلاك . . كان يقول : إن كل

شىء يجب أن يتبـدل . . وكان يقول ذلك فى عالم تسوده القيصرية والإقطاع وينتشر فيه الظلم بصورة وحشية .

وعنـدمـا تحول تولستوى إلى شبه نبى كثر أتباعه وأصدقاؤه ، وأصبح قصره كعبة كل أيامها مواسم حج دائمة . . مئات من الناس يجيئون ويذهبون . . شاب يستوضحه فى رأى ، كاتب يعرض عليه إنتاجه . رجل دين يحاول أن يقنعه بالعدول عن الطريق الذى يسير فيه . صحفى يعد حديثا معه . يائس من الحياة يسأله : هل هناك أمل ؟

وكان على زوجة تولستوى أن تحتمل هذا كله .

كان عليهـا أن تحتمـل عشرات « الـلاجئين » إلى بيت تولستوى كأنهم من أهله .

وكان كثيرون منهم يخرجون بعد ذلك ليهاجموه ويقولوا إنهم عرفوا سر هذا النبى الدجال .

ولقد سجل أحد الأصدقاء المخلصين لتولستوى مجموعة من الصور الحية عندما كتب عن هؤلاء الذين كانوا يسيئون إلى تولستوى أبشع الإساءات . لقد كان كثير من هؤلاء الأتباع أدعياء زائفين . إنهم طائفة تحيط عادة بالرجل العظيم وتتغذى على حياته، ثم تحاول أن تبنى وجودها بالهجوم عليه والتنكر له .

وكانت زوجة تولستوى تدرك ذلك ، وتحس بغريزتها مدى ما فى هؤلاء الناس من انحطاط ؛ ولذلك فقد كانت تكرههم وتنفر منهم وتحاول أن تبعدهم عن زوجها . . ولكن تولستوى كان يفكر بطريقة أخرى ، كان كالأنبياء لا يريد من الناس أى جزاء ، كل ما كان يفكر فيه هو أن يقدم تعاليمه ويلقيها على الناس ؛ ولذلك فقد فتح صدره وأعطى بيته ووقته وكل ما يملكه لهؤلاء الناس ، بدون تمييز بين من يستحق ومن لا يستحق .

وهـذه نقطة خلاف أخرى أساسية بين تولستوى وزوجته . لقد كانت تكره معظم أصدقائه وأتباعه . . ويقول جوركى ـ وقد كان من المؤمنين بتولستوى والمعجبين به ـ: ان تولستوى قد نجا بفضل زوجته من كثير من رفسات الحمير ، ولم يصل إليه بفضلها كثير من الطين .

وهكذا وقفت صوفيا فى وجه تولستوى ، رفضت أن يتحول هذا الـرجـل المسئول عن أسرة كبـيرة ضخمة إلى رجل معدم لا يجد ما يأكله . . ورفضت أن تسمح له بأن يقدم حياته ليعيش عليها هذا العـدد الضخم من المعجبين الزائفين الذين سرعان ما يتحولون إلى ذباب ساخط ينهش حياته وشرفه وسمعته .

وقد دفع هذا كله زوجة تولستوى إلى أن تتدخل فى حياته تدخلا عنيفا . . ومن هنا كانت المأساة .

كانت مجرد امرأة ، أما هو فكان أكثر من إنسان .

كانت تعيش فى الحاضر . . أما هو فكان يعيش فى المستقبل .
كانت تعيش فى المجتمع أما هو فكان يعيش فى الإنسانية .

كانت تعيش من أجل حياتها وحياة أسرتها ، أما هو فكان يعيش من أجل مبادىء عالية . . من أجل الإنسان فى كل مكان .

ومن أجل ذلك كانت تحاول دائما أن تعرف أسراره وتدخل إلى عالمه الخاص بقسوة لتعرف كل شىء عنه ؛ حتى لا يفلت من الحدود التى رسمتها له .

وانهزمت هذه الزوجة فى آخر الأمر ، لقد قرر أن يترك لها كل شىء ويهرب . . إنه يريد أن يعيش ما بقى له من أيام وحيدا نقيا . . لا تلوثه أرض يمتلكها . . أو شعور بأنه سعيد على حساب فلاحين عبيد . . أو شهرة تفسد إحساسه البسيط بالحياة .

إنه يريد الحقيقة المطلقة . . الحب الخالص . . الكلمة النقية البريئة .

ومات تولستوى فى هربه الأخير ميتة متواضعة بسيطة . . لعلها كانت أجمل ما تمناه .

هل كانت زوجته سر مأساته ؟

أجل كانت جزءا من هذه المأساة . . لأنها لم تفهمه تماما . . ولكن تولستوى كان لابد سيقع فى المأساة سواء كانت معه زوجته أم لا . .

فقد كان قلقه فظيعا . . بشكل لا يمكن أن يعطيه أى لون من ألوان السعادة ، فهو لغم من الألغام النفسية التى تدمر كل هدوء واستقرار فى حياته .

كان يصر على كتابة المسودة سبع مرات ، وعلى أن يكتب الكتاب كله من الأول كلما قرأه من جديد .

وكان يكره عالمه الخاص والمجتمع الذى يعيش فيه ويريد تعديلا كاملا للوجود البشرى .

وهذا هو سر مأساته .

ومن الضرورى أن يكون العالم أكثر إنصافا وهو يتذكر زوجة تولستوى ؛ فيكفى هذه الانسانة أنها استطاعت أن تتحمل لمدة خمسين سنة قلقا لا ذنب لها فيه . . ولم تكن مستعدة له بتربيتها ولا بطبيعة شخصيتها . كانت فتاة جميلة مترفة تأخذ الحياة بيسر وسهولة ولا تعرف أبدا معنى الألم . . ولكنها لم تكن تعرف أيضا أنها عندما تزوجت الإقطاعى الغنى تولستوى قد ربطت مصيرها بأكبر عاصفة من القلق والتمرد ظهرت خلال مائتى سنة تقريبا ، وقد استقرت هذه العاصفة فى قلب رجل واحد هو زوجها فدمرت إحساسه وإحساس من حوله بالسعادة .

لقد هجرها الناس بعد موت زوجها واعتبروها مسئولة عن مأساته ، وعاشت أيامها الأخيرة وحيدة . . حزينة . . ثم أصابها الجنون الذى قادها إلى القبر .

إنها زوجة مظلومة ، وهى لا تستحق من العالم أن يلعنها كلما تذكر زوجها العظيم ، بل أن يقدم لها زهرتين من الفهم والإنصاف .

بالحضـــن

« إذا أردتنى فابحث عنى تحت نعل حذائك » .

والت ويتمان

بعض الناس يعاملون الحياة ببرود وعدم مبالاة ، إنهم يعيشونها كما يؤدون واجبا ثقيلا على نفوسهم . . واجبا فرضته الظروف عليهم . لا يحبونه ، ولكنهم لا يستطيعون الهروب منه .

وبعض الناس يجاملون الحياة كما يجامل موظف صغير رئيسا قاسيا لا يرحم ، لعله بهذه المجاملة يخفف من قسوته وعنفه .

وبعض الناس يرفضون الحياة ويعاملونها باستهتار واستهانة ويودون دائما أن يتخلصوا منها ، فهم لا يرون لها معنى ولا قيمة .

ولكن هنـاك نوعـا آخـر من الناس يحب الحياة ويقبل عليها . . ويأخذها بالحضن . . إنها بالنسبة له معشوقة حبيبة . . كل ما فيها

جميل وعـذب ، ليس فيها قوة وضعف . أو جمال وقبح . . بل كل شيء فيها قوى وجميل لأنه « حى » . . فالحياة مجرد الحياة ، رائعة . . إنـه يأكـل بنهم ، ويحب بنهم ، ويغنى دائـما كأنه اسطوانة خلقتها الطبيعة وسجلت عليها أصوات العصافير والبلابل . . .

وهو عندما يحزن إنما يحزن بنهم أيضا . . إنه يغرق فى الحزن حتى قمة رأسه .

وبالنسبة لهذا النوع الذى يأخذ الحياة بالحضن لا يوجد مخطئون ولا عصاة ، لا يوجد إنسان غريب . . كل الناس كائنات جميلة ، وكل الحـالات البشرية حالات مقبولة ، وكل إنسان قريب إلى القلب ؛ ذلـك لأن رائحـة الحياة تثير هذا النوع من الناس ، تدفع الدم إلى العروق وتملأ القلب بالعاطفة . . ويردد اللسان صلوات جميلة لتلك المعبودة المعشوقة : الحياة .

من هذا النـوع النادر من الناس فنان عاش فى أمريكا فى القرن الماضى ، وملأ الدنيا بضحكاته التى كانت تصدر من قلبه ، وخرج على كل التقاليد الزائفة وهاجمها بعنف دون أن يكف عن الضحك والمرح ، وكانت البيئات المحافظة التى أزعجها هذا الفنان العجيب تقول عنه :

إن هذا الرجل يجب أن يطرد من كل مجتمع مهذب ، إنه أحط من البهائم .

وكـانـوا يقـولون عنه أيضا : « إن معرفته بالفن كمعرفة الخنزير بالعلوم الرياضية » .

ولكنه لم يعبأ بشيء ، بل استمر يحتضن الحياة فى أى مظهر من مظاهـرهـا ، ويعيش أيامه بشجاعة وبدون خوف يصاحب « أبأس الناس فى نيويورك » ويعيش فى وسطهم » .

وكان له كثير من الأصدقاء يعملون سائقى عربات كارو أو حمالين على أرصفة الميناء ، أما الزنوج فكانت علاقتهم به قوية ، وكانوا يحبونه ويتعلقون به ، فهو أحد البيض القلائل الذين يحترمونهم ويعاملونهم معاملة بشرية .

ذلك هو « والت ويتمان » الذى كان يقول عن نفسه :

« إن أردتنى فابحث عنى تحت نعل حذائك » .

فقـد كان يمنح عواطفه لكـل شىء فى الحياة ، حتى للتراب والعشب ، ولـذلـك فأنت تستطيع أن تجده فى التراب الذى تدوس عليه . . أليس هذا التراب جزءا من الوجود الجميل . . من الحياة الجميلة .

وليس هناك عند هذا الشاعر كائن غريب . . كل الناس قريبون من نفسه . . ففى قصيدة له تحت عنوان : « إليك » يقول :

« أيها الغريب . . يا عابر السبيل ، إذا مررت بى . . وكنت تريد أن تتحدث معى . . فلماذا لا تفعل ؟

إنى أيضا أريد أن أتحدث معك » .

وهكـذا ـ عنـد هذا الشـاعر الكبير ـ تذوب الثلوج بين الإنسان والإنسان ، ولا توجـد حواجز ولا سدود ، فالقلب مفتوح للجميع يرحب بالجميع .

وفى قصيدة أخرى يهاجم الشاعر نفسه ونزعة الغرور والأنانية التى يمكن أن تعيش فى هذه النفس ، أو فى أى نفس أخرى . .

والقصيدة عنوانها : « من أكون فى آخر الأمر » .

« من أكون فى آخر الأمر سوى طفل . . أجد السعادة عندما أسمع صوت اسمى يتردد .

وإذا تكرر اسمى مرارا . . ومرارا . . فإنى أقف لأسمع سعيدا ، لا أحس بالسأم لحظة ولا أتعب .

وأنت أيضا تحس بنفس السعادة عندما تسمع اسمك . هل تظن أنه ليس هناك فى العالم سوى هذه المقاطع الصغيره التى يتكون منها اسمك ؟ ! » .

إن الشـاعر هنا يريد أن يزيل هذا الحاجز الذى يضعه كثير من الناس أمامهم فلا يستطيعون رؤية العالم أو الاندماج فيه بقوة .

ذلـك الحاجز الذى يتكون من كلمة هى « أنا » . . وهى كلمة ساحرة يسعد الإنسان عند سماعها ، وهناك ناس لا يودون أن يسمعوا

سوى هذه الكلمة ، ولا أن يروا أى نوع من جمال الحياة إلا إذا كان مرتبطا بها . . وبذلك يعيشون فى دائرة ضيقة ، مغلقة ، ليس فيها نافذة على رحابة العالم ، ومساحته الواسعة الشاسعة المليئة بألوان جديدة من الجمال والعذوبة .

ويتسع قلب هذا الفنان الإنسان فيشمل كثيرا من ألوان الحياة ، إنه يفتح ذراعيه بلا تردد ، ويندفع بوجهه الوسيم ومظهره البوهيمى إلى كل الذين يقيدهم الحزن ويعطى لحياتهم طعما مريرا ويجعل ابتسامتهم ذابلة ونظراتهم منكسرة .

ويحمل الإنسان الفنان معه كلماته الجميلة وعاطفته الحارة المندفعة ليعيد إلى هؤلاء البائسين المسحوقين إحساسهم بالحياة وحماسهم لها .

فى قصيدة له بعنوان « إلى مومس مجهولة » يقول :

« كونى هادئة . . كونى على غاية من الهدوء والراحة معى . .
أنا وانت ويتمان . .
من الأحرار . .
وقوى مندفع مثل الطبيعة . .
إن نور الشمس يطاردك . .
ولكنى لن أفعل ذلك .
ومياه الأنهار تحجب عنك ما فيها من لمعان وبريق
وأوراق الأغصان تخفى عنك حفيفها الجميل . .
ولكن كلماتى لن تخفى عنك البريق ولا الحفيف .

إنى أتقدم إليكِ بتحية حارة . ونظرة احترام لن تستطيعى نسيانها بمرور الأيام » .

وهكذا تمتد صلة الشاعر العاطفية إلى العالم كله ، حتى إلى هؤلاء الـذين طردتهم الظروف خارج دائرة المجتمع وجعلت منهم كائنات لا يقابلها إلا الرفض والاستنكار . . حتى من شعاع الشمس ، ومياه النهر وأوراق الأغصان .

يقـول عن نفســه : أنـا آتى مع المـوسيقى قويا ، مع مزامـيرى وطبـولى ، أنـا لا أعزف أناشيدى للظافرين فقط ، بل أعزف أيضا للقتلى والمقهورين ، إننا نخسر المعارك بنفس الروح التى نكسبها بها .

فألف مرحى للذين فشلوا . .
للذين غرقت مراكبهم فى البحر . .
والذين غرقوا هم أنفسهم فى البحر . .
ثم يقول :
« أنا رفيق الشعب وصديقه . . كلهم خالدون مثلى .

إنهم لا يعرفون كم هم خالدون . . ولكن أنا أعرف . فكل إنسان يحب نفسه وممتلكاته . أما أنا فأحب هؤلاء الذين كانوا فتيانا ، والذين يعشقـون النسـاء . . أنا الرجل الأبى الذى يشعر كم يؤلم المرء أن يهان . أحب الحبيبـة الحلوة . . والعانس ، أحب الأمهات . . وأمهات الأمـهـات . . أحـب الشفــاه التى ابتسمت والعيون التى ذرفت الدمع . . أحب الأطفال والذين يلدون الأطفال . . » .

وهكذا يتسع قلبه للكل ، للجميلة والعانس ، للبسمة والدمعة ، للفاشلين والظافرين . .

ويمتد إحساسه الشامل بالحياة إلى الزهور والأعشاب .

إن الانسـان عنده يتحول إلى تراب يدخل من جديد فى تركيب النبـاتات ، فالنبات يتغذى من التراب الذى يتكون ـ فى جزء منه ـ من جسد الانسان ، فلماذا لا تكون الزهور والأعشاب التى نراها هى فى الأصل فتاة جميلة عذراء أو شابا وسيما شجاعا ، أو طفلا طاهرا بريئا .

يقول ويتمان عن العشب :

« بحنان أتناولك أيها العشب ، فلعلك طلعت من صدور الفتيان الذين لو عرفتهم لأحببتهم . . لعلك من عجوز أو من طفل صغير انتزعوه من حضن أمه » .

« ماذا تظن انه حدث للرجال والفتيان والشيوخ ؟ ماذا تظن أنه حدث للنساء والأطفال ؟ . . إنهم أحياء وبخير فى مكان ما . فأصغر نبات على هذه الأرض يبرهن على أن الانسان لايموت . . ولو كان هناك موت فإنه إلى الحياة . كل شىء يسير إلى الأمام . . ولا شىء يزول » .

بهذا الإحساس الذى يرى الحياة فى كل شىء ويشمها فى كل شىء حتى فى التراب والعشب يواجه « ويتمان » الدنيا ، ويعبر عن نفسية

تعشق الحياة وتقبل عليها بحرارة ، ويدعونا أيضا إلى الانفعال بنفس الحرارة والحماس .

★ ★ ★

إن أجمل ما نتعلمه من هذا الفنان الذى يحتضن الحياة ويقبل عليها « بنفس مفتوحة » هو أن نتقبل الحياة ، وأن نعيشها بشجاعة كما عاشها هذا الشاعر . . والشجاعة هنا هى أن نبحث عن المعنى الإيجابى فى التجارب التى نعيشها ، فالفشل الذى يواجهنا أحيانا ، والصدمات التى تتعرض لها نفوسنا يجب ألا تجعلنا نفقد القدرة على مواصلة الطريق والرغبة فى الاستمرار . . إن تقبل الحياة يحتاج إلى نفسية متفتحة حية ، وهذه النفسية هى التى يمكن أن ترى فى الفشل خطوة إلى النجاح ، وفى الألم طريقا إلى السعادة ، والذين لم يوهبوا هذه النفسية المتفتحة يستسلمون من أول تجربة ، فيتسرب إليهم الضيق بالحياة والإحساس بأنها لا تطاق ، أو تمتلىء نفوسهم بالحقد والمرارة فلا يستطيعون أن يتعاطفوا مع أى شىء جميل فى هذا العالم .

إن شجاعة الحياة التى يدعونا إليها هذا الفنان تعتمد على التسامح واتساع الذهن والعاطفة ، إنها لا تقوم على المرارة والحقد واستصغار شأن أى كائن فى هذا الوجود . . مهما كان بسيطا عاديا .

فنحن أحيانا نضيق بالناس العاديين ونقيس الفرد بمدى نجاحه فى الحياة ومدى تفوقه ، ولكن هذا الفنان يدعونا إلى الحب الشامل ، إلى

احـترام الحياة فى أبسط مظاهرها وأقلها أهمية ، والنظر إلى الإنسان بعاطفة تغفر كل شىء ولا تعرف اللوم والتأنيب أبدا ، إنه لا ينظر إلى الإنسان بتلك العاطفة التى تنقد دائما ، وتشعر بعداء مستمر للحياة وسخط عليها لا يعرف التفاؤل .

إن هناك إنسانا بسيطا قد لا يلفت نظرنا إليه شىء هام من الناحية الخارجية ، ولكننا لو حاولنا أن نفهمه وأن نعطيه قليلا من عواطفنا واهتمامنا لوجدنا وراءه شيئا يستحق الحب والاحترام .

ربما كان هذا الرجل كناسا ولكنه يحمل فى قلبه مصباحا صغيرا هو حبه لأمه أو زوجته أو ابنته . . إنه يقوم بعمله وهو مدفوع دائما إلى رعاية إنسان فى هذا العالم وحبه ، وقد يستمر كذلك ثلاثين سنة أو أربعين . . ولو نظرنا إلى هذه السنوات الطويلة من ناحية أخرى لوجدناها روتينا وجمودا لا معنى لهما ، ولو نظرنا إليها من ناحية أخرى لوجدناها حبا متواصلا ، وكفاحا جميلا . . هو أقصى ما يستطيع هذا الرجل أن يفعله .

وقد كان « تولستوى » يعلن أحيانا بعض الآراء التى تصدم الناس ، ولكنها جديرة بالتأمل والتفكير . . كان يقول عن أحد الأشخاص : « لولا حبه للكلاب لكان أسوأ إنسان فى العالم » .

ففضيلته الوحيدة أنه يحب . . يحب أى شىء ولو كان كلبا . فالعاطفة هى التى رفعته وجعلته إنسانا يستحق الاحترام ، ونفس

الفكرة يرددها غاندى عندما يقول عن نفسه : إن مذهبى ليس دينا مغلقا . . ففيه مجال لأقل مخلوقات الله شأنا .

إنها دعـوة إلى حب الحياة ، والإقبال عليها ، والإبتسام دائما فى وجهها . . فهى جميلة حتى فى عذابها وعصيانها ، وهى جميلة حتى فى الناس البسطاء ، وحتى فى العصاة والخاطئين والذين فشلوا . .

يا له من فنان عظيم وإنسان عظيم !

الطفل المدلل

هذا الكـائن العجيب الـذى يظهر بيننا كأنه حلم ، وقد أعطته الـطبيعـة جزءا من سحرها وسرها . . فإذا به يكتب كلاما جميلا أو يصنـع أنغـامـا تثـير فينـا السعـادة ، وتجعـل إحساسنا بالحياة حلوا وعميقا . . أو ينسج من الألوان والخطوط لوحة لفتاة تبتسم . . فإذا الابتسامة المرسومة أكثر إشراقا وجمالا من أى واقع نراه . .

هـذا الكـائن الذى نسميه الفنان . . هل له حق خاص فى أن يتمـرد على كل القـواعـد والقـوانين ، ويحصل على امتيازات ليست لغـيره ، فيعيش حياته على هواه حتى لو كانت هذه الحياة غارقة فى الشذوذ والانحراف ؟

ما دام الفنـان « كائنـا ممتازا » . . أفلا يجوز له أن يلهو كما يريد بحجـة التجـربـة ، وأن يقـطع أى ارتبـاط بينـه وبين العالم بحجة الإخلاص للفن ؟

ألم يقل فنان من هذا النوع فى أحد مسرحيات شو :

« إن الفنـان يؤثـر أن يترك زوجتـه جائعة وأبناءه حفاة وأمه تكد لتحصل على لقمتها وهى فى السبعين على أن يترك فنه كى يعمل عملا آخر » ؟ !

أليس من حق هذا الكـائن أن يكون معجبا بنفسه ويطلب من الناس أن يعاملوه معاملة خاصة . . ويسمحوا له بالحياة كما يشاء؟!

إن حياة « أوسكار وايلد » تقدم لنا تجربة عميقة تدلنا على أن هذه الفكـرة خاطئة ، وأن الامتياز الذى أعطته الطبيعة للفنان هو عبء ومسئولية . . وليس فرصة يستغلها للبحث عن متعة « غير عادية » أو « عبث غير عادى » .

فأوسكار وايلد فنان مشهور ، أحدث ضجة فى إنجلترا ، بل فى أوروبـا كلها فى أواخر القرن الماضى . . لقد كان موهوبا ، وكانت الكلمات الجميلة تتسـاقط من شفتيه بنفس السهـولـة والكثـرة التى يتساقط بها الندى من زهور الصباح . .

ويقول وايلد عن نفسه بحق : « لقد وهبنى الله كل شىء : فأنعم على بالذكاء والشهرة والمقام الاجتماعى العالى . . وأنا الذى جعلت الفن فلسفة وجعلت الفلسفة فنا . . وما قلت قولا أو قمت بعمل إلا كان موضع عجب الناس ودهشتهم . . وكل شىء مسته يدى أحالته شيئا جميلا » .

وبهذا الإحساس اندفع « وايلد » يجرب كل شىء ، حتى وقع فى الوحل . . وأصيب بالشذوذ ، ومرت فترة من حياته كان شذوذه فيها أهم من فنه ، وأهم من أى معنى آخر من معانى الحياة .

وهو نفسه يتحدث عن هذه التجربة العجيبة . تجربة انحرافه وشذوذه فيقول : « اتخذت الشذوذ والتسكع والمغالاة فى التأنق خطة لى فى الحياة ، فأحـطت نفسى بأصحـاب العقـول الصغـيرة ، وأصحـاب النفـوس الصغيرة ، وأسرفت فى تبديد ذكائى وفى تبذير شبـابى الـذى كنت أظنـه لا يفنى أبد الدهر ، وكنت أجد فى هذا التبديد وهذا التبرير لذة عجيبة » .

لقد وقع هذا الفنان الموهوب فريسة لتلك الفكرة الخاطئة ، فكرة حرية الفنان وحقه فى أن يعيش أى نوع من الحياة الشاذة . . بحثا عن التجربة . . . عن المعنى الفنى .

إنها الفكرة التى ترى أن الفنان هو طفل الحياة المدلل ، الذى يحق له ما لا يحق لأى إنسان آخر . . هذه الفكرة التى وصلت عند البعض إلى اعتبـار الغـرور وعـدم الالتزام بأى مسـئولية نحو الحياة والناس صفات مقترنة بالموهبة والعبقرية . .

وهذا هو ماحدث لأوسكار وايلد فى فترة من حياته . لقد ظن أنه جاء إلى العالم ليأخذ منه أقصى ما يستطيع ، بل جاء ليجعل العالم يعبـده ويمنحه امتيازات واسعة . . أليس موهوبا وعبقريا ؟ . . ثم

قادتـه هذه الفكـرة إلى الانحراف والشذوذ فى علاقات سيئة، كانت أشهرها علاقته بالشاب الوسيم اللورد « ألفرد دوجلاس » والتى قادته فى النهاية إلى السجن ليقضى فيه سنتين كاملتين .

وفى السجن استـطاع وايلد العـودة إلى صفاء عبقريته ؛ فحاكم نفسه محاكمة أقسى من محاكمة الناس له ، وأدان نفسه إدانة كاملة . . وهـو فى الحقيقـة قد أدان الفكرة الخاطئة التى تقول : إن الفنان له الحرية المطلقة فى أن يفعل ما يشاء ، ما دام أنه يتمتع بامتياز العبقرية . .

فالفنان الموهوب على العكس إنما يقوم بمحاولة لفهم الحياة فهما عميقـا ، ثم اكتشاف الجمال المختبىء فيها . . لقد منحت الطبيعة الفنـان عيونـا سحـرية يستـطيع أن يرى بها ما فى الحياة من جمال وعمق . . وهذه العيون السحرية هى مسئولية كبيرة يتحملها الفنان وليست امتيازا يبرر الشذوذ والانحراف .

ودور الفنان فى الحياة ليس فقط أن يقدم للناس متعة فنية ، فالفنان الـذى يقف عنـد هذا الحـد لا يفـترق فى الـواقع كما يقول الكاتب الفرنسى « ديهامل » عن أى « عاهرة جميلة » . . إنها أيضا تقدم المتعة للناس . . بلا مقياس . . بلا هدف عميق . . بلا معنى من المعانى الكبيرة التى يمكن أن تقف وراء الجمال أو تكمن فيه .

ومعنى هذا المـوقف الخـاطىء أن الامتياز الـذى تمنحـه الطبيعة للفنان أو للمرأة الجميلة هو طريق إلى الفوضى والعبث . . طريق إلى تبديد الحياة ، والوصول بها إلى التمزق والفساد .

ولكن الموهبة الحقيقية هى خصوبة فى الحياة . . هى مضاعفة للحياة . . فالفنان الموهوب هو الذى يعيش حياته بعمق ، يعيش اليوم الواحد بأكثر من قيمته العادية ؛ لأنه يكتشف ، ويبتكر ويضيف إلى الحياة . . والفنان فى الوقت نفسه يدعونا ويساعدنا على أن نعيش فى الدنيا العميقة الجميلة التى اكتشفها لنا .

وعندما وقع أوسكار وايلد فى محنته . . وقاده الشذوذ والانحراف إلى السجن . . كتب يبرىء فنه من تهمة « المسئولية » عن هذه النتيجة :

« إنه واجب على أن أقول لنفسى إنى أنا الذى أوردتها موارد الهلاك ، وإنه لا أحد فى الدنيا مهما يكن عظيما أو حقيرا بقادر على أن يدفعك إلى موارد الهلاك إلا إذا ألقيت نفسك بيدك فى تلك المهالك . . إنى أصدر هذا الحكم القاسى على نفسى من غير شفقة ولا رحمة » .

أى أن الإنسان هو المسئول . . وليس الفنان . ثم يستمر « وايلد » فى قسوته على نفسه ليكشف سر محنته :

« لقد استحالت الشهرة عندى إلى مرض أو جنون ، وغاب عنى أن أى عمل مهما صغر مقداره يبنى الخلق ويهدمه . . إن ما يفعله الإنسان بين جدران غرفة مغلقة سوف يفعله يوما أمام الناس . . لقد فقدت السيطرة على نفسى ، بل جهلت نفسى فأتحت للذة أن تسيطر على ، ثم انتهى الأمر بفضيحة لا حد لبشاعتها ، ولم يبق لى الآن إلا الذلة والضعة » .

ولم يحاول أوسكار وايلد إن يقول أن الفن يسمح بالانحراف والشذوذ ، وإن العبقرية من حقها أن تعيش فى الوحل والانحلال الدائم . فالمشكلة التى تعرض لها وايلد وقعت فى « غفلة » من الفنان الأصيل ، لقد نسى نفسه ، وجرفه تيار الفساد الشائع فى المجتمع الإنجليزى ، فاضطربت مقاييسه ، وزحفت التفاهة إلى عالمه حتى انتصرت عليه لفترة من الوقت . . وأوقعته فى « الكارثة » التى هدمت حياته بعد ذلك .

فقد خرج من السجن بعد سنتين ، محطم النفس لا يحمل أملا فى المستقبل ، وحاول أن ينسى الماضى ، ولكن الماضى انتصر عليه فمات بعد سنوات قليلة . . وبعد أن أنهكه العذاب النفسى . . والخمر . .

ولكن وايلد استطاع أن يصل من خلال الكارثة إلى أعماق نفسه الصافية ، وذلك حين سمحت له إدارة السجن بالكتابة ، فأعد كتابه الذى أسماه « من الأعماق » .

وكان الكتاب شفافا رائعا . . يعترف فيه وايلد بتجاربه ، ويعرى مشاعره وأحاسيسه ، وكأنه لا يخشى من شىء مادام يدرك أن جوهره العميق هو : طهر وخير .

لقد انبثق شعاع من النور فى حياة وايلد كشف له كل شىء . . وانبثق هذا الشعاع من خلال العذاب الشديد الذى كان يعانيه . . ومن خلال الوحدة الكاملة التى كان يعيش فيها ، وقد تخلى عنه الناس جميعا ، وأصبحت ضجة الإعجاب التى كانت تحف به فى كل مكان

مجرد ذكريات يرويها الناس فى خجل وحياء . . ولم يعد وايلد يجد أنيسا غير الشعاع البسيط من النور . . شعاع الحقيقة العميقة التى تعيش فى داخله .

لقد تعلم الآن ـ وهو وحيد بعيد ـ ان الفكر الصافى والألم العميق هما المنبع الحقيقى لمعرفة الحياة وفهمها . . ليس طريق الحياة هو طريق اللذة ، وليس طريق الفن هو طريق الشذوذ والانحلال :

« لن أعيش بعد الآن إلا بصحبة الفنانين ، والناس الذين تألموا ، فأولئك هم الذين يعرفون ما الجمال وما الحزم ؟ أما من عداهم فلا يعنينى من أمرهم شيئا » .

وعندما أصبح وايلد على وشك الخروج من السجن كانت أمنيته هى : « أن يكون عندى ما يكفينى للعيش ثمانية عشر شهرا حتى إذا لم أستطع تأليف الكتب النافعة ، استطعت على الأقل أن أقرأ الكتب النافعة ، وماذا بعد هذا من لذة ومتعة ؟ ! » .

وخرج أوسكار وايلد من السجن بعد أن شفى نفسه من مرارة الضغينة والحقد على العالم .

ولكن نفسه كانت قد أصابتها الشيخوخة . . ولم يجد من مجتمعه الفاسد نفس النور الذى وجده فى قلبه عندما كان فى الزنزانة . . لقد كان مجتمع إنجلترا فى أواخر القرن الماضى مجتمعا كئيبا يتكون من : اللوردات والسكارى والمسحوقين .

فأين يمضى الفنان بعد أن استخلص من ماضيه فى لحظات المحنة كل ما هو جميل وعميق ؟

لقد عاد للسكر . . وتهشمت حياته كما تتهشم الكأس الفارغة فى بار رخيص .

ولكن الحكمة الأساسية فى تجربة « وايلد » كانت قد برزت بشكل واضح عميق . . فالفنان ليس طفلا مدللا للمجتمع أو للطبيعة . . بل على العكس إنه أكثر الجميع مسئولية ، وأكثر الجميع ألما . .

والفنان الحقيقى لا يمكن أن يتخذ الشذوذ والانحراف مذهبا فى حياته . . إن الفن فى هذه الحالة خداع ووهم .

والشخصية المريضة هى التى تستخدم الفن بهذه الطريقة . .

ولا يكون ذلك عن عمق وعبقرية ، بل عن مرض وابتعاد عن منابع الفن الحقيقى . .

والذين اضطربوا فى حياتهم من الفنانين الأصلاء كانوا فى الحقيقة ثمارا لمجتمع سيىء يضغط عليهم . .

ولكن الفنان الصادق يقاوم هذا الضغط دائما ويقف منه موقف الفارس من عدوه . يجمع قواه المعنوية ، ويغامر وسط كل المخاطر ، لكى يقول فى نهاية الأمر كلمته للحياة . كلمة : « الذى تعذب أكثر من الكل فعرف أكثر من الكل » .

★ ★ ★

دائما فوق كل الكلمات الجميلة ترتفع عبارة جورج ديهامل :

« ان الأخـلاق هى روح العبقـرية . . بل ان الأخلاق أندر من العبقرية والأخلاق هى أثمن موهبة » . .

فما معنى الأخـلاق ؟ . . إنها احتضـان العالم ، وحب الإنسان واحترامه ومحاولة فهمه . إنها الإضافة إلى الوجود البشرى ، والعمل على تجديده دائما مشرقا بالمعانى النبيلة الكبيرة .

والذى يحمل فى قلبه موهبة الفن الحقيقى ، يحمل فى الوقت نفسه موهبة الحب للحياة والاحترام الكامل للإنسان . . ومهما تعثر الفنان الحقيقى فى التجارب الصعبة القاسية فهو دائما يتبع ذلك الضوء الذى يشـع من داخله فى لحظات العذاب . . الضوء الذى لاح لأوسكار وايلد وهو فى السجن . . « عندى أن كل شىء يقوم على الصدق يجب أن يصبح دينا » [1] .

والصـدق هو جوهر الفن . . وجوهر الأخلاق . . بل هو جوهر الحياة أيضا .

---

(١) اعتمدت فى تقديم آراء وايلد على ترجمة أعدها الأستاذ مبارك إبراهيم لكتاب « من الأعماق » لأوسكار وايلد .

حطم الكأس
وعد إلى الحياة

« انس كل شىء فى حياتك الحاضرة وعد إلينا . . حطم كأس الفودكا وعد فإنى أنتظرك . . كلنا ننتظرك » .

بهذه الكلمات الحلوة المؤثرة خاطب الفنان الكبير « أنطون تشيكوف » أخاه « نيكولا » . . وكان « نيكولا » قد أخذ يشكو من الحياة والناس ، فالحياة تضع العقبات فى طريقه . . والناس دائما يسيئون فهمه ، ولذلك فهو تعيس شديد الضيق ، لا يجد عزاءه إلا فى كأس من الفودكا ، ثم فى الشكوى المريرة التى لاتنتهى .

وكان « نيكولا » شابا موهوبا . . رساما وكاتب قصة ، ولكنه لم يكن يعرف طريقة المحافظة على موهبته واستثمارها، وكانت حساسيته

الشديدة تدفعه إلى التأثر العنيف بالحياة ، والاهتزاز وفقدان التوازن أمام مشاكلها المختلفة .

ولم يترك « تشيكوف » أخاه ، بل دعاه ، وحدد له طريق العودة من اليأس والانهيار . . قال فى بساطة وعمق : إن كل لحظة من حياتك لها قدرها .

ولكن «نيكـولا» لم يستطع أن يعود، فقادته الخمر إلى اليأس، وقاده اليأس إلى الدمار والموت بدون أن يقدم شيئا هاما جميلا للحياة . . وكان باستطاعته أن يفعل ذلك لو استمع لصوت أخيه العظيم وهو يناديه . . ولوسار فى طريق العودة الذى ناداه إليه .

ولكن طريق العودة الذى حدده « تشيكوف » لم يمت لأنه لم يكن خاصا بنيكولا وحده . . فنيكولا هو نموذج شائع فى الحياة .

إن كل واحـد منـا يمكن أن يصبـح « نيكـولا » فى لحظة من اللحظات . قد تكون قصيرة وقد تمتد وتتسع إلى أن تشمل الحياة كلها .

لقد كانت محنة نيكولا : أنه يبدد حياته . . يبدد كل ما يملك من قوى معنوية . . حتى يصبح فى آخر الأمر مثل المقامر الذى أفلس بعد منتصف الليل وطرده نادى القمار ، وذهب كل الرواد إلى بيوتهم . . ويبقى هو وحيدا طريدا بلا مأوى ولا أمل .

هذا هو الإفلاس المادى .

وهذا هو الإفلاس المعنوى أيضا .

وتشيكوف يكشف السر لأخيه ، سر الإفلاس الروحى ، والغنى الروحى . . فقد كان تشيكوف نفسه غنى الروح بينما كان رأسماله أقل من رأسمال أخيه بكثير ، لقد كان فقيرا جدا ، وكان مريضا ، وحيدا باستمرار . . ومع ذلك فقد استثمر فقره ومرضه ووحدته وعرف قدر كل لحظة من حياته ، حتى استطاع أن يقدم للعالم فى فترة عمره القصير الذى لايزيد على أربعين سنة نسبة ضخمة من الحكمة العميقة ، والجمال الخصيب . جمال الكلمات ، وجمال السلوك والفهم والشعور .

لقد استطاع أن يصنع من « الفقر فى كل شىء » « غنى فى كل شىء » .

وبذلك عالج تشيكوف أكبر مشكلة تسبب للإنسان التعاسة والارتباك وتؤدى أحيانا إلى الدمار . . هذه المشكلة هى أن يشعر الإنسان أن حياته تافهة ، لا فائدة منها ولا جدوى . .

وفى هذه الحالة يبدأ الانسان بالشكوى ، الشكوى من العمل ، من الناس والظروف . . ويتحول كل شىء بالنسبة له إلى مرارة لا يطيقها الإحساس .

وقد يندفع الإنسان إلى أكثر من الشكوى ، فيقوم بعملية تبديد واسعة لامكانياته، إنه يبدد وقته ومشاعره وصحته . . ويجد فى كأس الخمر لذة لا يجدها فى قراءة كتاب ، وفى التسكع والفرجة على الحياة والسخرية من الناس لذة لا يجدها فى العمل ومحاولة الفهم الصحيح للأشياء .

وهذا الموقف يؤدى إلى الإحساس بالتعاسة ، إنه انتحار يتم على مراحل . . على عشر سنوات أو عشرين سنة أو أكثر . . ولكنه فى النهاية هرب من الحياة وكراهية لها ، وبحث دائم عن الغياب عنها .

ماذا تكون نتيجة حياة من هذا النوع ؟ ماذا يكون حصاد زرع من هذا الطراز ؟ إن النتيجة الأخيرة هى انعدام الشعور بجدوى الحياة ، وانعدام الشعور بأن الإنسان قد ترك فى هذه الدنيا أثرا مفيدا جميلاً .

والسؤال عن نتيجة حياة الإنسان سؤال هام ومخيف ، وبعض الناس يهربون من السؤال تماما ، وبعضهم يواجهونه بفزع وارتباك ، وآخرون يواجهونه بقوة .

وهذا النوع الأخير هو وحده الذى يصل إلى نتيجة ، إلى ثمرة ترضيه وتقضى على شعوره بالتفاهة . . وقد تكون هذه الثمرة هى مجرد العمل ، مجرد المحاولة .

والحكمة الكبيرة التى دلنا عليها تشيكوف عندما قال لأخيه : كل لحظة من حياتك لها قدرها ، تتجاوب تماما مع الطريق الذى اختاره عدد كبير من العظماء ومعلمى البشرية . . هؤلاء الذين فتحوا الطريق أمامنا ، وساروا حتى وصلوا إلى أقصى أطرافه .

وكان كفاحهم دعوة لنا لكى نسير فى نفس الطريق ولو بعض خطوات .

فالحياة الناجحة هى الحياة المنظمة ، الحياة التى تخضع لرقابة دقيقة من الإنسان على نفسه ، وليست الحياة التى تجرى هكذا مع التيار . .

يدفعها إلى الأمام مرة وإلى الوراء مرة أخرى . . فالانسان لن يحقق أى انتصار على مشاكل الحياة ، دون تخطيط ويقظة ، وعمل دائب من أجل تحقيق هذا التخطيط .

وقد سمى تولستوى هذه العملية تسمية جميلة . . سماها « الحراسة على الحياة الخاصة » ، وكان تولستوى نفسه يقوم بهذه الحراسة الدقيقة على حياته ، فلا يسمح لأحد اللصوص أن يدخل إلى نفسه فيسترق منه وقتا أو شعورا جميلا ، أو فكرة عميقة . : وهو لايسمح أيضا لجانب من جوانب حياته أن يصدأ أو يتعفن ، بل هو « يكنس » نفسه ، ويغسلها وينظفها ويرتبها فى كل لحظة ، ثم يعمل على أن يملأها « بالأثاث الغالى الثمين » أى بالأفكار العميقة النبيلة ، وبالمشاعر الإنسانية الصافيةالمفيدة ، وبالسلوك النقى الرفيع . . إنه يريد أن يجعل من حياته شيئا مفيدا مجديا ، ولن يكون ذلك أبدا بأن يترك نفسه للمصادفة ، بل إنه يعرف جيدا كيف يواجه المصادفة ويحاربها ويعمل للتغلب عليها وضمها إلى صف أفكاره النبيلة .

ومنذ صباه الأول لم يكن يجامل نفسه أبدا أو يخدعها أو يكذب عليها ، كان على نفسه حارسا أمينا لا ينام . . يواجهها وينقدها دائما ، ويضع علامة حمراء عنيفة تحت أى تصرف أو فكرة أو شعور يتسم بالتبديد الخالى من المعنى . . التبديد بلا جدوى ولا مقابل .

ففى مذكراته وهو شاب صغير يسجل تولستوى ما فعله فى أحد الأيام بهذه الصورة : « من الظهيرة حتى الساعة الثانية مع « بيجتشيف » . .

تحدثت بحرية كثيرة ، وبغرور عظيم ، وأنا أكذب على نفسى أيضا . . من الثانية حتى الرابعة رياضة بدنية . . قليل من العكوف والصبر . من الرابعة حتى السادسة تناولت طعامى وابتعت بعض الأشياء عديمة النفع . فى البيت لم أكتب شيئا . إنه الكسل . زرت بعض أصدقائى وتحدثت هناك « إنه الجبن » .

ثم ينتهى تسجيله لليوم بهذه الجملة : « لقد تصرفت بصورة سيئة : جبن وغرور وطيش وضعف وكسل » .

وهكذا يضرب تولوستوى نفسه بسوط لا يرحم ، ويراقب نفسه بدقة وقسوة وكأنه قد انقسم إلى شخصيتين إحداهما تعادى الأخرى بشدة ، فتقول لها عيوبها بلا خوف ولا مجاملة ، وتكون هذه المواجهة القاسية هى بداية التغير نحو حياة أكثر جمالا وفائدة . . وإن لم تكن أكثر سهولة وراحة ، فعندما كان تولستوى يصف بصدق وأمانة أن هذا التصرف جبن وهذا غرور أو كسل ، فهو فى الوقت نفسه يسجل سخطه على هذا النوع من التصرفات وكراهيته له ، وهو على الفور يبدأ فى التغير نحو الجميل والعميق معا .

وهذا هو الدرس الذى يعطيه لنا تولستوى كما أعطاه لنا من قبل تشيكوف . . احترام كل لحظة فى الحياة وإقامة الحراسة عليها ، وجعلها ـ فى بساطة وصدق ـ مليئة بشىء نافع ، والنظر إلى حياة الإنسان على أنها نسيج كامل كبير ، يجب أن نضع فيه كل يوم ولو

« غرزة » واحدة مفيدة ، حتى إذا وصلنا إلى منتصف الطريق أو إلى نهايتـه استطعنا أن نقول إننا فعلنا شيئا ، وإننا لم نعش مثل الجراد والصراصير . . كائنات بلا مغزى . كائنات بلا فائدة .

لقد كان تولستوى مثل زميله تشيكوف يخاف على حياته أن تصبح تافهة ، أو تصبح كريهة ، ولذلك فقد كان يقوم بحراسته الدقيقة على حياته بدون تهاون ، وبطرد المشاعر السيئة من نفسه ، تماما كما يقص أظـافـره الـطويلة ، ويرفض اللحـظة السطحية التي بلا معنى ولا طعم . . إنـه يزرع أرض حياتـه ببـذور مختارة . . . بالقمح والورد والعنب . . ولا يترك هذه الأرض لتنمو فيها الأعشاب البرية السامة ، وتأوى إليها الغربان والفئران ، وتصبح كئيبة خالية من الفائدة والجمال ..

وبهـذه الـطريقـة استطاع تولستوى أن يعيش اثنتين وثمانين سنه لا تتكـرر . . خصبـة كلها ، فعالة كلها ، عميقة فى كل لحظة من لحظاتها . فى القلق والاضطراب كما فى الاستقرار والهدوء .

★ ★ ★

يقول مفكر أمريكى معاصر هو الأستاذ الجامعى تشارلز فرانكل « إن العصر الحديث يتميز بالتبديد الهائل للقوى البشرية » . . وهذه الفكـرة تدعونا أكثر للتأمل فى حياتنا على ضوء ملاحظات تولستوى وتشيكـوف ، فالإنسان فى عصرنـا إذا لم يقم بالحراسة الدقيقة على

حياته ، فإنه سيكشف بعد وقت أنه قضى عمره فى الأشياء الكثيرة العاجلة التى يمتلىء بها عصرنا . . سيكتشف أنه قضى حياته فى تبادل كلمات المجاملة مع عدد كبير من الناس لا تربطه بهم علاقة عميقة ، وفى ركوب « الأتوبيسات » والجلوس على المقهى ، وتدخين السجائر والذهاب إلى السينما أحيانا . . وقد تدفعه الحياة إلى أن يركز على هدف أرقى قليلا ولكنه يستغرق حياته كلها ويسرقها ، مثل الحصول على عربة ، أو بناء بيت ، وغير ذلك من الأشياء التى تجذب أنظار الإنسان العصرى . . وستجد الفتاة أنها قضت الجزء الأكبر من حياتها فى الذهاب إلى الخياطة ، والثرثرة مع الصديقات . والوقوف فى المطبخ ، والفرجة على المحلات العامة ، وشراء بعض الأشياء .

إنها نتيجة مؤسفة أن يكون حصاد الرجل والمرأة فى الحياة مقصورا على هذه الأشياء محصورا فيها ، والذين يكتشفون ذلك ويشعرون بالأزمة ثم يندفعون إلى الهرب يقعون فى مشكلة أخطر وأعمق . . إنهم يبحثون عن طريق لتدمير أنفسهم كما فعل « نيكولا » شقيق تشيكوف . . فما جدوى الحياة بالنسبة لهم ، وما الأمل الذى يمكن أن يتعلقوا به ؟

كل هؤلاء ضحية لمرض واحد هو عدم « الحراسة الدقيقة » على الحياة . . تبديد الطاقة البشرية بطريقة آلية متكررة لا تتجدد . النظر إلى الطلاء الخارجى للإنسان ، وإهمال الداخل إهمالا مطلقا ، حتى يصبح القلب مليئا بالغبار ، والعقل ساعة قديمة مكسورة متوقفة عن

العمل ، والإحساس متخدرا مشلولا هامدا . . وبهذه الطريقة تموت النفس وتذبل الروح . . وتنقضي حياة لا فرح فيها ولا بهجة . . ولا قيمة لها ولا معنى .

وقد نذهب إلى الخمر . . كما ذهب نيكولا إلى عقد صداقة قاتلة مع الفودكا .

وبذلك نبيع حياتنا ونفقدها نهائيا .

★ ★ ★

إن علينا أن نستمع إلى الموسيقى الجميلة الخفية التي تنساب من خلال الزمان ، ويأبى تألقها أن يتغير أو يضيع ، وتظل قوية ثابتة ، كأنها جزء من الطبيعة . « تلك الموسيقى التي تنبعث من صوت تشيكوف وهو ينادى أخاه الغارق في المحنة » .

« إنى فى انتظارك . . كلنا فى انتظارك . . إن كل لحظة من حياتك لها قدرها » .

وعندئذ ترتفع الموسيقى الهادئة العذبة وتعزف بصوت تولستوى السيمفونى الحار العنيف : « قم بالحراسة الدقيقة على حياتك » .

وبذلك لا تتسرب الحياة ولا تضيع ، ونستطيع أن نصنع من وجودنا شيئا جميلا مقنعا ولو على أضيق نطاق ، وتظل هذه الموسيقى العذبة القوية تقودنا إلى النبع الجميل للحياة ، فنشرب منه ونشعر بالصحة والبهجة ، مهما كانت متاعبنا ومشاكلنا . . ومهما كانت العقبات التي تواجه الانسان وتحاربه !

وبهذا يكون حصاد الحياة خصبا ثمينا .

الباب الضيق

« دع ذلك الذى يتحسس طريقه فى الظلام والضوء المرتجف يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص وهى : أن يعمل الواجب القريب منه . . . فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذى يتلوه واضحا ظاهرا » .

جيته

فى الفترة المزدهرة من حياة الإنسان ، وهى فترة الشباب ، يبدو كل شىء فى الحياة ممكنا . . فى هذه المرحلة من العمر يحس الإنسان بتدفق طاقة الحياة فى عروقه ، ويحس أنه يكتشف الدنيا من جديد . . فبعد أن كانت الأشياء فى مرحلة الطفولة تبدو سهلة ساذجة ، لا معنى لها أحيانا . . أصبح كل شىء الآن ساخنا حارا له معنى ودلالة .

وفى فترة الشباب الأول ، ونتيجة للدفعة القوية المفاجئة من دفعات الحياة ، يبدو الإنسان فى نظر نفسه قادرا على كل شىء . وبذلك تكون أحلامه واسعة ، ومشروعاته كبيرة غير محدودة . . ثم تبدأ المفاجآت .

تبدأ بعد خطوة أو خطوتين من شباب الإنسان . . إنه يصطدم بالحياة ويجد أن الأحلام العريضة لا مجال لها ، وأن الأفكار المثالية النقية تحتاج إلى بعض التعديل أو إلى كثير من التعديل ، وأن المشروعات الكبيرة الرائعة تتضاءل وتفقد بريقها اللامع . وأن الفتاة التى كان يحبها لم تكن بكل هذه الروعة التى كان يتصورها من قبل . . إنها ليست ملاكا . . وأحيانا تقول كلاما سخيفا كأنه شوك . . لم يعد فى كلامها عسل ولا سكر . . وأحيانا تتصرف تصرفات سخيفة تخلو من الشاعرية والسحر .

أين إذن أحلام الحب المتوهج البهيج ؟ !

والصديق الذى كان يؤمن به ، ويضعه فى أعلى وأعمق مكان فى القلب إنه هو الآخر يتصرف أحيانا بأنانية ، وبدون مثالية بيضاء نقية .

أما العمل الكبير الذى كان يحلم به ، فقد تحول إلى شىء محدود بسيط . . إلى وظيفة فى مكتب ، إلى مدرس أو مهندس أو طبيب .

أين إذن تلك الأحلام الأولى القديمة ؟

. . لقد كان يظن أنه سيغير الدنيا ، ويقوم بأعمال عظيمة رائعة .

وتتوالى المفاجآت . وتتوالى الصدمات النفسية ، التى تجرف معها التفاؤل والحيوية ، وتخلق الحزن والإحساس بالكآبة والتعاسة .
ولحظة « الصدمة » تمر تقريبا بحياة كل إنسان . . وهناك من يعتبرون هذه اللحظة هى نهاية الحياة ، فينتحرون انتحارا فعليا . . أو ينتحرون بطريقة أخرى لا تقل عن الأولى خطرا . . إنهم يغيبون عن الحياة بالسكر . . أو بأى عادة أخرى جامدة تشغلهم عن التفكير فى الحياة ، مثل الجلوس على مقهى والاستغراق فى ألعاب تافهة متكررة مسلية .

وهناك من يعبرون لحظة الصدمة ويستمرون فى الحياة ، وشيئا فشيئا يكتشفون أن الحياة بعد « الصدمة » أعمق ؛ لأنها حقيقية وليست ملفوفة فى « سلوفان » اسمه الوهم أو الحلم . . كما كان الموقف فى شباب الإنسان الأول ، ولكن الخروج من ظلام الصدمة يحتاج إلى بوصلة تحدد للإنسان اتجاهه وترسم له الطريق حتى لا يضيع .

وكل الأطباء الكبار للنفس البشرية يقولون إن البوصلة الوحيدة هى : العمل .

ولكن السؤال : ماذا نعمل ؟ . .

إن كلمة العمل بمعناها العام لا تكفى ولا تؤدى إلى نتيجة . . ذلك لأن « الصدمة » نفسها قد تؤدى بالإنسان إلى كراهية كل شىء ، والإحساس بأن كل شىء فى هذه الدنيا لا يستحق الاهتمام . .

ويصل هذا الشعور أحيانا إلى حد احتقار النفس ، والإحساس بأن ذات الإنسان أيضا هى جزء من هذا العبث الغريب الذى نسميه : الحياة .

فإذا كان الحب لا يجدى ، والصداقة لا تجدى ، والمعرفة لا قيمة لها . . فأى نوع من أنواع العمل يمكن أن يكون مجديا ؟ !

ونعود إلى الأطباء الكبار للنفس البشرية ، ونقف مع طبيب واحد من هؤلاء الأطباء هو أديب ألمانيا العظيم جيته .

إن هذا الطبيب العظيم للنفس البشرية يقول إن العمل وحده هو الذى يعطى بقية الأشياء فى الدنيا معناها وطعمها الحلو .

فالعمل هو القوة السحرية التى تجعل الحياة ربيعا دائما ، كل شىء فيها أمام الإحساس أخضر ، منتعش . . جميل فى الحقيقة لا فى الوهم .

إن العمل هو الذى ينعش الحب والصداقة ، ويجعل المعرفة زادا ثمينا نحمله معنا فى رحلة الحياة ، فلا تجوع أرواحنا أبدا ولا نتعرض للضياع .

ثم يقف طبيب النفس البشرية ليقول لنا : إن من الخطأ أن نرسم لأنفسنا خطة ضخمة لأعمال كبيرة ، وننتظر أن يتحقق ذلك بصورة مفاجئة . . فإذا لم يتحقق ما كنا نحلم به أصابتنا التعاسة وامتلأت نفوسنا بالكآبة والهم .

إن ذلك هو خطؤنا وليس خطأ الحياة . . والطريق الصحيح الذى يقودنا إلى نبع الحياة الحلو ، وسحرها الدافىء ، هو أن يقول الإنسان لنفسه : « ان الخطة المثلى هى أن أعمل الواجب القريب منى » . ثم يؤكد جيته هذا المعنى مرة ثانية فيقول :

« ما أثمن وما أكثر أهمية الواجب القريب منى » .

ومرة ثانية يقول لنا طبيب النفس البشرية بصوته الذى صقلته التجربة ، والإشفاق على الإنسان فى محنة ضياعه وأساه :

« دع هذا الذى يتحسس طريقه فى الظلام والضوء المرتجف ويدعو ويبتهل لإقبال الفجر يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص ، وهى أن يعمل الواجب القريب منه ، فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذى يتلوه واضحا ظاهرا » .

فالعمل الصحيح الذى يحمل سر السعادة والتغلب على آلام الحياة هو :

عمل الواجب القريب من الإنسان . .

فالواجب القريب قد يكون حلقة ضيقة ، ولكن إتمام هذا الواجب يقود إلى دائرة أوسع ، ويكشف عن كثير من المعانى الجديدة الرحبة فى الحياة ، فالخطوة الأولى تقود إلى الخطوة الثانية ، وأكثر الناس الذين يحلمون بالأعمال الكبيرة ، هم أكثر الناس فهما وإدراكا لحقيقة هى : أن هذه الأعمال تبدأ دائما بمراحل صغيرة متواضعة .

فالرجل الذى يشكو من أن زوجته لا تشاركه فى مشاعره وأفكاره . . هل حاول أن يقوم بتجربة بسيطة هى أن يساعدها على المعرفة والتطور حتى تصبح قريبة من نفسه وعقله ؟ . .

لقد كان هذا الزوج يعتبر السعادة هى أن يعرف امرأة تشاركه فى كل شىء ، وهـاهو الآن تعيس جدا لأنه اكتشف الفرق بينه وبين زوجته . . ولكنه مع ذلك لم يحاول أن يقوم بالواجب القريب منه وهو مساعدة هذه الزوجة على أن تتقدم وتقترب منه . . إنه يفضل أن يئ ويشكو ، على أن يعمل شيئا .

ويمكننـا أن نلاحظ فى حياتنـا أن عددا من الشبـاب الفـاشلين يتميزون بذكـاء ومـواهب واضحـة . . ولكنهم مع ذلـك فاشلون يائسون . . والسر الحقيقى البسيط هو أنهم نسوا « الواجب القريب منهم » . . إنهم ينظرون إلى هذا الواجب نظرة ازدراء . . فأين هذا الـواجب القـريب البسيط من الأحلام الكبيرة والأمانى العريضة ؟ والنتيجة أن يفشلوا فى تحقيق أحلامهم الكبيرة لأنهم أهملوا « الواجب القريب منهم » . . إنهم لم يسيروا فى الطريق الصحيح الوحيد لتحقيق الأحـلام الـكـبـيرة . . بل أرادوا أن يصـلوا إلى هذه الأحـلام « بالبراشوت » لا بالسير خطوة خطوة ، فى تأن وتواضع .

★ ★ ★

وحكمة جيته التى يلخصها فى دعوته إلى « عمل الواجب القريب منه » . . هى نفسها حكمة المسيح : اجهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق .

فالعمل البسيط الرقيق المتواضع ، البعيد عن الأضواء ، البعيد عن الزحام والضجيج . . العمل الذى قد لا يكون مغريا مثيرا .

هذا النـوع من العمـل هو البـاب الضيق ، البـاب الـذى لا يحب الكثيرون أن يدخلوا منه إلى الحياة ؛ لأنهم يفضلون الأبواب الواسعة التى تؤدى بهم إلى أهدافهم . . هذه الأبواب الواسعة التى نسجتها الثروة أو الشهرة أو غير ذلك من أبواب الحياة . إن التفكير فى هذه الأبواب نفسه هو الذى يسمم حياتنا ، ويجعلنا نشعر بالفشل والعجز عن تحقيق أحلامنا ويؤدى إلى التمزق النفسى الدائم . . ولكن الباب الضيق هو العمل الصغير المتواضع الذى يؤدى إلى عمل أوسع منه ، وقد يكون الباب الضيق خاليا من كل بريق إلا فى شىء واحد هو أنه يؤدى إلى الإحساس بمعنى الحياة ، والإمساك بالخيط السحرى الرفيع الذى يجعل القلب مليئا بالأمل ، ويجعل العين تبصر فى الحياة أشياء قد لا تراهـا العيون العـادية . . عيون الذين يدخلون من الأبواب الواسعة فيرون الأشياء نفسها ولكن بصورة قاتمة غائمة .

إن البـــاب الضيق هو فى كلمات : طريق السعـــادة الـــداخلية العميقـة . . وهـذا هو ما توصـل إليه جيته ، وسائر العظماء الذين أعطونا مفتاح السر الذى نكشف به حقيقة الحياة . . لقد ظل جيته يعمل وهو فى قمة مجده وشهرته وثروته ، كما يعمل أى تلميذ صغير . . بنفس المثابرة والتواضع . . حتى وهو على فراش موته . . فقد طلب وهـو فى أخـر لحظات حياته ورقا وقلما ليعاود العمل . . ليستمر فى الكتابة . . عمله الذى أحبه واختاره وأخلص له منذ البداية . . وقبل أن يموت بلحظات عبر عن سعادته وفرحته بعودة الربيع إلى الأرض .

لقد ظل حياته التى استمرت أكثر من ثمانين عاما . . يعمل ويلتمس السعادة والفرح وعذوبة الحياة : فى العمق . . فى عمل الواجب القريب منه دائما . . فى الدخول من الباب الضيق الذى لا يقبل عليه الكثيرون .

البئر

هى فتاة جميلة . . تعرف أنها تستطيع أن تجد « الرجل » فى أى وقت ، ولـذلـك فهى لا تجعـل « عقـدة » حياتهـا الأولى : انتـظار الرجل ، والخوف من أن يفوتها القطار الخالد . . قطار الزواج .

وهى ليست فقيرة ؛ ولذلك فانها لا تعانى معركة كل يوم . . لا يطاردها البحث القاسى عن اللقمة ولا زحمة المواصلات ، ولا المسكن الضيق الذى يؤدى إلى الإحساس بضيق الحياة .

ولكن وزجها الجميل العذب ، والڤيلا التى تسكنها فى المعادى ، والعـربـة التى توصلهـا كل يوم إلى الجـامعـة ، وتفـوقها الدائم فى الدراسة . . كل هذا لم يصل بها إلى الجواب .

وهى تسأل : ما معنى الحياة ؟ هل هى أن تتزوج مثل أى فتاة ، وتواصل الحياة العادية الروتينية التى يعيشها معظم الناس ؟ . . إنها

ليست مقتنعة بهذا المصير ولا راضية . . فلابد أن يكون فى الحياة ما هو أعمق وأعظم من هذا الروتين الدائم الذى يجعل حياة الناس نغمة واحدة تتكرر ولا تتبدل أبدا .

وابتدأ وجهها الجميل العذب يكتسى القلق والشرود والحزن . . إنها تبحث عن الطريق ، وتلجأ إلى كل وسيلة ممكنة . . بدأت تقرأ الشعر والقصة ، وتدرس العلوم وتسمع الموسيقى ، وتعيش طويلا مع الفلاسفة .

وما زالت تبحث عن طريقها فى الحياة ، بوسيلة أساسية هى المعرفة والثقافة . . . وقد قررت ألا تستسلم أبدا حتى تصل إلى شىء .

والمعرفة بئر عميقة حفرتها الطبيعة منذ آلاف السنين . . . وقد استخدمت الطبيعة فى حفر هذه البئر كل غموضها وأسرارها ، ولذلك صارت بئرا رهيبة ، لا يقترب منها الا الذين يمتلكون الشجاعة وقوة الاحتمال .

وكل المصابيح التى وضعت فى هذه البئر لم تضئها إضاءة كاملة ، فما زالت البئر رغم المصابيح الكثيرة التى فيها غامضة تحيط بها الأسرار وعلامات الاستفهام .

وكل الذين دخلوا بئر المعرفة عادوا إلينا يقولون : لا يمكن أن نصل إلى أعمق أعماقها !

الأنبياء الذين أنار الله قلوبهم على جبل ، أو فى حلم من الأحلام ، أو فى إشراقة من إشراقات الوحى قالوا : لا تجهدوا أنفسكم فى معرفة

كل الأسرار فهذا طريق المعصية . . . أما إذا أردتم الطريق الصحيح ، فعليكم أن تؤمنوا بقلوبكم ومشاعركم .

واينشتين بعد أن اكتشف النسبية التى أدت إلى تفتيت الذرة قال : ماأكثر الأسرار التى مازالت فى الكون . . وعندما نقرأ كتابه المعروف « العالم كما أراه » نحس أننا مع أحد الدراويش المتصوفين لا مع أحد العلماء الذين فتحوا أسرار الكون بمفتاح العقل .

وعشرات الفلاسفة جعلوا شعارهم كلمة واحدة هى : لا أدرى .

والشعراء والأدباء يقدمون على مرالتاريخ أحزانا ومشاعر مندأة بالخوف والإحساس بصعوبة الحياة وغموض العالم . . . أكثر مما يقدمون لنا حلولا أو طرقا للخلاص .

وفى بئر المعرفة ضاع كثيرون . . . وتعذب كثيرون . . . تولستوى : الكونت الإقطاعى ، القوى الصحة كأنه حصان ، كان فى الخمسين من عمره سعيدا بزوجته الجميلة الحسناء ، وشهرته التى تملأ العالم ، وثروته الكبيرة التى لم تجعله يوما يشعر بأى احتياج من أى نوع . . . فجأة أصيب بالحنين إلى بئر المعرفة المطلقة ، واستيقظ فى منتصف ليلة من الليالى يتلوى ويقول : إنى أريد أن أعرف سر الحياة وهدفها الحقيقى ؟ وجرى تولستوى إلى بئر المعرفة فغرق فيها ، وانتهت إلى الأبد قصة هدوئه وطمأنينته .

وقال عنه بعض الناس : إنه قديس . . وقال آخرون : انه مجنون .

وقالت عنه زوجته : إنه ضحية حب لامرأة أخرى . .
وقال القيصر : هذا رجل خارج عن طاعتى .

أما هو فقد أحس بحنين عجيب إلى اكتشاف الأشياء المجهولة فى هذه الحياة . . . ولم تكن الثروة تغنيه ، ولا زوجته الجميلة وأولاده يعطونه معنى حاسما للحياة ، ولم تقدم له الشهرة إلا مزيدا من العذاب .

إنه يريد شيئا أبعد وأشمل . . . . يريد شيئا يفسر هذه الأسئلة الستة بوضوح :

لماذ أعيش ؟
ما سبب وجودى ووجود كل إنسان غيرى ؟
ما سبب الخلاف الذى يوجد داخلى بين الخير والشر ؟
كيف يجب أن أعيش ؟
ما الموت ؟ . .
كيف يمكننى أن أصل إلى النجاة ؟ . .

وقادته هذه الأسئلة الرئيسية إلى التفكير فى العدل والظلم ، وفى عذاب الناس وحرمانهم .

لقد وقع فى بئر المعرفة . . ثم أضاء بعض المصابيح مثل الدين والأخلاق والعدل الاجتماعى والحب . . ولكنها كلها « فرقعت » فى وجهه . . ولم تضىء له الطريق !

وبقيت له على صفحات التاريخ قيمة « المحاولة العظيمة » . كان شقيا . . . ولكن كان فى الوقت نفسه يشعر بنوع خاص من الرضا عن حاله .

لقد خرج من عالم الاستقرار الوهمى الذى كان يعيش فيه ، وبدأ يحس بمشاكل الناس ويرى القبح الذى كان يملأ العالم ويشوهه ، ووقف ينادى بتغيير العالم ، وجعله مكانا أرحب للعدل والحب والجمال .

لقد انتقل تولستوى بنفسه من مرحلة « السعادة » إلى مرحلة « العظمة » . . . ترك الحياة السعيدة الهادئة ، إلى حياة عظيمة ليس فيها هدوء .

ومعظم الثورات الإنسانية التى نشأت بعد ذلك فى أوربا أو فى الشرق تأثرت فى شكل من الأشكال بشخصية تولستوى العظيم ، لا بشخصية تولستوى السعيد .

وفى تاريخ الشرق قصة أخرى مشابهة ، خرج صاحبها من النعمة والهدوء ، إلى التعب والشقاء فى سبيل المعرفة والحقيقة . وكانت المعرفة والحقيقة فى نظره أيضا هما العدل والحب .

ذلك هو « بوذا » ، نبى الهند القديم ، كان أبوه من أكبر الأمراء الأثرياء ، وكان بوذا الابن الوحيد لأبيه ، وكان أيضا الوارث الوحيد لثروة أبيه الكبيرة .

وكلمة بوذا نفسها معناها « الذى يعرف » .

وعندما وصل بوذا إلى سن الشباب بدأ يتساءل عن المشاكل الكبرى فى الحياة والمجتمع ، فهو يرى الفقر الشديد فى بلده إلى جانب الغنى الشديد ، ثم يرى الموت والمرض والشيخوخة تفتك كلها بالبشرية . . . وكان بإمكانه طبعا أن يجعل من ثرائه وسعادته سورا يفصله عن شقاء العالم ، كان من الممكن أن يجد سعادته الكاملة لو لم يسمح لهذه الأسئلة عن « الشقاء الإنسانى » أن تضنيه وتقتحم عالمه . . . ووقف أبوه الأمير الثرى يلاحظ عوامل القلق والحيرة والحزن التى تتسرب إلى شخصية ابنه ، فحاول أن يغريه بشتى ألوان الإغراء لكى يثنيه عن العالم الجديد الذى بدأ يدخله . . . عالم المعرفة الإنسانية العميقة . . . عالم التساؤل والشك .

ولكن بوذا ترك كل شىء . . . ترك ثروة أبيه . . ترك زوجته الجميلة وابنه الطفل . . . وذهب ليغرق هو الآخر فى بئر المعرفة ، وعاش فى أحد الكهوف المظلمة الخشنة ، وأخذ يقرأ ويدرس . . . ثم خرج إلى الناس ليقول لهم حكمته ، وفهمه الجديد للسعادة . . .

« سعيد كل من رأى الحق ، وسعيد كل من خلت نفسه من سوء النية » . . .

« يجب أن ننتصر على عوامل الفناء فى الحياة : الموت والفقر والمرض والشيخوخة » .

واعتبر بوذا حياة أبيه الأمير « باطلة زائفة حمقاء مثل قصة يرويها أبله » .

وجعل هدفه « أن يسعى لإراحة المتعبين ، وإسعاد المكروبين ، وانـزال السكينـة على قلوب الـذين ناءوا بأعبـاء الحياة ، وتشجيع المستضعفين حينما يشرفون على فقد ثقتهم بأنفسهم » .

وكان يلبس أخشن الملابس ، ويعيش فى أفقر الأماكن ويواجه أى ظلم يراه برأى صريح فيه ، ويهـاجم بشـدة الأسباب « الإنسانية » للتعاسة . . . وهى الأسباب التى يخلقها الإنسان وليست الأسباب التى تخلقها الطبيعة أو المصادفة .

فالذين يعاملون الإنسان كأنه عبد ، والذين يبحثون عن الثروة ولو بطريق السرقـة والـظلم ، والـذين يتفـرجـون على الإنسـان وهـو يتعذب . . . كأنهم يشاهدون شيئا مسليا طريفا !

كل هؤلاء يخلقون التعاسة ويبذرون فى الدنيا بذور العذاب .

وهكـذا . . ظل بوذا يعمـل ويشقى . . . يقـول الحكمة والحق ويرفض الحياة الناعمة اليسيرة . . . ويدفعه إحساس عميق أن يعيش فى بئر المعرفة دائما ، ولو كان فى هذه البئر ظلام مخيف . . .

ولقد تعذب طيلة حياته ولكنه حمل الابتسامة إلى شفاه الكثيرين من التعسـاء ، والقـوة إلى القلوب الضعيفـة ، ورفـع معنـويات الذين أرهقتهم الدنيا وسحقتهم ظروف المجتمع .

★ ★ ★

هذان مثالان من التاريخ . . تحولت شعلة المعرفة عندهما إلى حريق كبير ، وخرج هذا الحريق إلى مسرح الحياة الواسعة فكان تأثيره كبيرا على حياة الناس .

وبالنسبة لتولستوى وبوذا . . كان هذا الحريق مصدر عذاب شخصى ، ولم يستطيعا تجنب هذا العذاب أبدا . . ولم يستطيعا أن يرضيا بالسعادة الخاصة ، ولا بالقصور الكبيرة ، ولا بعدم الحاجة إلى الناس . .

بحثا وعرفا . . وكان الحنين يدفع بهما إلى أعماق بئر المعرفة بدون رحمة . . وكانا يغامران دائما ضد الظلام ، ولا يعبآن بالتعب . . .

ولم يكن كفاحهما بدون جدوى . . فتولستوى كان من أكبر الصرخات التى مهدت للثورات الاشتراكية المعاصرة . . وبوذا هو واحد من أسبق الشرقيين الذين فتحوا قصور الأغنياء ، وقالوا للفقراء ادخلوا . . إن من حقكم أن تعيشوا . . وتسعدوا مثل الآخرين .

والذين يحملون فى نفوسهم « شرارة » المعرفة ، وحنينا كبيرا إلى رفض الحياة الروتينية . . هم دائما الذين يرسمون للحياة مستواها الجميل ، رغم ما يلاقونه من التعب . .

فالفتاة الجميلة العذبة التى جذبتها بئر المعرفة . . فدخلتها بكل ما فيها من رقة وشفافية وبراءة . . إنما تبحث عن مستوى جديد لحياة المرأة . . .

تبحث عن معنى عميق للحب . . يسبق الزواج ويكون سببا له . . وتبحث عن دور لها فى المجتمع أكثر من دور « ست البيت » . . . تبحث عن أنواع أخرى من المتعة الراقية ، غير مجرد راحة البيت ، واستقرار الحياة ، وقد تكون هذه المتعة الجديدة : لحنا ، أو فكرة ، أو قصيدة شعر أو صداقة عميقة ، أو عملا جميلا تقوم به .

وسوف يزيدها شوقها إلى المعرفة حلاوة وعذوبة . . والوجه الجميل سوف يقترن بنفس جميلة تعرف ينابيع الصدق وتفهم الأشياء بعمق ونبل .

إن المعرفة قلق وألم . . ولكنها أرقى طريق إلى تعميق الحياة وتنويعها ، وتوسيع أفق الإنسان ، وخلق صلة واسعة بينه وبين العالم ، وإعطاء كل لحظة من الحياة طعما . . ومهما كان هذا الطعم فهو أفضل من لحظة تمر بلا طعم !

والذين يدخلون بئر المعرفة قد ينجحون أو يفشلون . . ولكنهم دائما يقومون باستغلال أعظم ما يملكه الإنسان : الفكر والعاطفة . والضائعون فى بئر المعرفة مثل المنتصرين . . كلهم « أبطال » . . . . إنهم يعملون لتجميل الحياة وجعلها عميقة وحلوة . . . محتملة ومعقولة .

الصخــرة

كثـيرا ما تحدثنـا أنفسنـا فى ملل . . إننا نفعل الشىء نفسه كل يوم . . . نخرج من بيوتنا فى الصباح ، ونذهب إلى العمل ، ونعود إلى بيوتنا مرة أخرى لننفذ بقية البرنامج اليومى الخالد الذى لا يتغير ، وتمر بنا الأيام فنكشف أن حياتنا نفسها ليست إلا تكرارا لحياة الآخرين ، هذه الحياة التى تدور فى دائرة تكاد تكون مغلقة هى : الميلاد والزواج والعمل والموت . . فكل شىء يعود دائما إلى ما كان عليه . . متكرر لا يتجدد ، روتينى لا مفاجأة فيه .

وقد تصور اليونان القدماء حياة الإنسان فى إحدى الأساطير حياة رتيبة خالية من أى شىء جديد . وتقول هذه الأسطورة إن كبير الآلهة غضب على « سيزيف » وحكم عليه حكما عجيبا . . حكم عليه أن يحمل صخرة من سفح جبل وينقلها إلى قمة الجبل على مائة مرحلة ،

وعندما تبلغ الصخرة قمة الجبل تسقط من جديد إلى أسفل ليعود إلى نقلها مرة أخرى ، وتتكرر القصة كل يوم .

هذا هو العقاب الصارم الذى فرضته الآلهة على « سيزيف »: إن يظل يكافح من أجل غاية هى الوصول بصخرته إلى القمة ، ثم لا يكاد يصل إلى غايته حتى تتدحرج الصخرة ، فيعود إلى الكفاح من جديد . وبذلك يصبح كفاحه أليما مريرا ، أولا لأنه تافه بلا هدف ، وثانيا لأنه يتكرر ولا يتجدد .

وترمز هذه الأسطورة إلى أن حياة الإنسان بلا جدوى ولا معنى ، فسيزيف يرمز للكائن البشرى ، والصخرة ترمز للعمل والحياة اليومية التى نعيشها ونكررها دائما .

وقد اتفق الفلاسفة على أن يسموا هذه المشكلة بمشكلة العبث ، مشكلة الإحساس بأن الحياة لا جدوى منها ولا معنى لها ، فكل شىء قد يخدعنا ، ويدعونا إليه ، فإذا جربناه وجدناه سرابا لا ماء فيه ، ووهما لا ظل له فى الواقع . . إن الصداقة والحب أو العمل قد تغرينا ، ولكن التجربة تثبت أنها أشياء خاوية لا تقضى على ما فى الحياة من تكرار ، بل على العكس تدخل تحت سلطان التكرار ، وتفقد أول بريق لها بعد قليل من التجربة .

هذا هو ما توحى به الأسطورة اليونانية : الإحساس بالعبث . .

وقد عبر عن هذا الإحساس كثيرون من كبار الفنانين والمفكرين . هناك كاتب أوروبى هو « مارسيل بروست » شعر بأن الحياة الإنسانية

وهم وعبث ، وظل الإحساس بالعبث يطارده ويلح عليه ؛ فانسحب من حياة الناس وصنع لنفسه حجرة من الفلين ، واختار الفلين بالذات حتى لا يسمع صوتا يأتيه من الخارج . . حتى لا يسمع أى حركة أبدا . . حتى ينعزل نهائيا عن هذا الكائن الذى يصنع العبث ويعيش فيه . . الكائن البشرى .

وشكسبير كانت تؤرقه نفس المشكلة ، مشكلة « عبث الحياة » ، وفى مسرحيته الشهيرة « هاملت » يعبر شكسبير عن هذه المشكلة تعبيرا عنيفا . . ولعل أبرز المواقف فى هذه المسرحية هو موقف حفار القبور ، الذى كان يقوم بعمله وهو يغنى ، كأنه يستعد لحفلة زفاف لا لاستقبال موتى ، وأخذ الحفار يمسك بالجماجم الباقية من رءوس البشر كأنه يمسك بأحذية قديمة بالية يريد أن يتخلص منها . . ولكل جمجمة بالطبع قصة ، وتنتهى القصص مهما كانت مثيرة إلى التراب الذى لا يكاد يصلح « لسد ثغرة فى جدار قديم » .

فهذه جمجمة « كان فيها لسان يستطيع الغناء » وهذه جمجمة محام كبير . . « أين سفسطته الآن وتورياته ، وقضاياه وعقوده وألاعيبه » ؟ وهذه جمجمة صاحب أراضى وأملاك ، وهاهى « الجمجمة المحترمة تمتلىء بتراب محترم » .

ثم . . هذه جمجمة « يوريك » هذا الذى كان ممتلئا بالحيوية والنشاط قد انتهى هذه النهاية .

يقول هاملت مخاطبا صديقه هوراشيو :

« هفى عليك يا يوريك ! كنت أعرفه يا هوراشيو ، رجلا لا حد لنكتته . وليس له مثيل فى براعته . لقد حملنى على ظهره ألف مرة ومرة . أما الآن . . حين أتخيل مصيره ، فما أبغض هذا الأمر إلى نفسى . . هنا كانت الشفتان اللتان قبلتهما ، لست أدرى كم مرة ، أين آراؤك اللاذعة يا يوريك الآن ؟ . أين قفزاتك الفرحانة وأغانيك ؟ أين لمعات فكاهتك التى كان يستلقى لها الناس على ظهورهم من الضحك ؟» .

« أفلا يجوز للخيال أيضا أن يتعقب أثر الإسكندر وترابه النبيل إلى أن يلقاه سداداً لزجاجة خمر؟ » [1] .

وهكذا يعبر شكسبير ـ على لسان هاملت ـ عن إحساسه العميق بعبث الحياة ، وبأن كل شىء إنما ينتهى هذه النهاية . . التافهة السخيفة . . ويتحول إلى تراب فى تراب .

ولكن فيلسوف « العبث » فى هذا العصر وأشهر اسم ارتبط بهذه المشكلة وعبر عنها تعبيرا عميقا واسعا هو « ألبير كامو » . . ولقد ظل كامو طيلة حياته الأدبية يعبر عن فكرة « العبث » ، ويكتب رواياته ومسرحياته ودراساته الفلسفية عن هذه الفكرة ، ثم التقط الأسطورة اليونانية القديمة . . أسطورة سيزيف ، وألف عنها كتابا كاملا .

وفى سنة ١٩٦٠ مات فيلسوف العبث ألبير كامو وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، كان يقود عربة ، وانقلبت العربة به فمات وحده وعاش كل من كان فى العربة !

---

(١) هاملت ـ شكسبير ـ ترجمة جبرا إبراهيم جبرا .

والإنسـان عند كامو غريب ضائع يعيش حياة كلها عبث ، وفى رواية شهـيرة كتبها « كامو » فى بداية حياته هى « الغريب » يذهب البطل إلى السينما يوم وفاة أمه ، ويستجيب فى نفس اليوم لفتاة تدعوه إلى أن يصحبها للنـزهة والحب ، ثم يقتل إنسانا لأنه وجد فى يده خنجرا يلمع ، ويحكم عليه القاضى بالإعدام ، فلا يكافح من أجل تخفيف الحكم ، ولا من أجل الدفاع عن نفسه . . إنه يأخذ كل شىء بلا مبـالاة ؛ لأن أى شىء لا يستـحق المبـالاة ، ورغم أن هذه الأحداث بالنسبة له أحداث هامة تزلزل حياته ، فهو ينظر إليها كأنها لا شىء : لا فرق بين موته وحياته ، لا فرق بين المشى فى جنازة أو الذهاب إلى السينما .

ثم . . لا حب ولا صداقة ولا علاقـات بشرية . . فكـل هذه العلاقات ـ فى نظره ـ لا تضيف شيئا ولا تعطى للحياة معنى .

هذا هو « إنسان » كامو الذى يثبت أن الحياة « عابثة » خالية من المعنى » . . إنه نخلة وحيدة قائمة فى فضاء واسع . . فى صحراء . .

★ ★ ★

ولكن كامو يتطور ويناقش هذه المشكلة مناقشة أعمق ، ثم يتجاوز « الإحساس بالعبث » ، وينتقل إلى نقطة مهمة أخرى .

فهو يؤمن بأن الحياة عبث مطلق ، وبأن الإنسان قد حكم عليه بأن يقوم بعمل تافه ، وأن يكرره كل يوم . . تماما مثل سيزيف : يحمل

الصخرة إلى قمة الجبل ولكنها ما تكاد تستقر قليلا حتى تتدحرج وتعود إلى الأرض .

ويقف كامو هنا ليسأل : هل معنى ذلك أن الانتحار هو الرد على هذا الإحساس بالعبث ؟ . . هل الطريق الصحيح هو أن نتخلص من الحياة ما دامت خالية من المعنى ؟ . . أليس من الأفضـل ألا نحمل الصخرة إلى أعلى ما دام ذلك لا فائدة منه ؟

ويجيب كامو عن هذه الأسئلة كلها « بأنه على العكس يجب أن نتقبل الحياة ونحتملها ، ويجب أن نتخلص من الحزن الذى لا حد له » . يجب أن نتخلص من « ليلة رعبنـا وعذابنا » . . وإذا كانت الحياة خالية من المعنى . . فيجب علينا نحن أن نعطيها معناها . . والطريق الصحيح هو الوعى ، فكلما ازداد وعينا ازداد احتمالنا للحياة . . .

« فالحقائق المؤلمة الساحقة تفنى عندما نعرفها ونعترف بها » . . . ومـا دمنـا نعـرف مصيرنا ونعترف به ، فان ذلك سوف يؤدى بنا إلى الانتصار والارتفاع على الحزن وعلى الرغبة فى التخلص من الحياة .

وكامو يرى أن سيزيف كان يبلغ قمة المأساة عندما يعرف مصيره ويدركـه . . ولكنـه فى الـوقت نفسـه كان يسجـل أعظم انتصاراته أيضا . . فعندما ينزل من الجبل ، ويعرف أنه سيعيد نفس العمل الشاق بلا هدف ولا جدوى . . ثم يقبل مع ذلك هذا المصير ويستمر فى عمله فإنه فى الحقيقة يكون بذلك قد قرر أن يكون إنسانا قويا ،

أن يجد فى مجرد محاولة الصعود نوعا من السعادة ، إنه « يصارع لكى يرتفـع إلى أعـلى » « ويكفيه هذا الصراع فى حد ذاتـه » ليملأ قلبه « بالحماس والسعادة » .

إن المغزى الذى يقف عنده كامو هو أن العمل فى حد ذاته سعادة ، بدون هدف معين أو نتيجة محددة ، وكلما ازدادت معرفتنا بعدم وجود نتيجة أو غاية ، فإننا فى هذه اللحظة نحب العمل فى ذاته ، وبدون سبب خارجى آخر . .

ولذلك فكامو لا يحارب من أجل الوصول إلى غاية الحياة ؛ لأنه يائس من هذه القضية . . وهو يرفض تماما أن يخدع نفسه بوهم من الأوهـام ، ويرفض أن يكون سعيدا لمجرد أنه « جاهل لا يعرف ما يدور فى الحياة » .

فالوعى والشوق إلى المعرفة هنا أهم ما يؤمن به كامو ، ولذلك فهو يحارب البلادة ، ويحارب التقاليد ، ويدعو إلى الاستقلال النفسى ، واستقلال الفكر .

ومهما كانت المأساة التى يعيشها الإنسان فعليه أن يرتفع فوقها بوعيه وشعوره ، بالاحتمال والفهم ، وكامو يضرب لنا مثلا آخر من الأدب العـالمى . . إنه حكمة « أوديب » الملك فى مسرحية « سوفوكليس » المعروفة . فأوديب يقع فى مأساة فظيعة ، فيتزوج أمه دون أن يعلم ذلـك . . وعنـدما يكتشف المأساة ، يوقع بنفسه العقاب على نفسه فيفقـأعينيه ويسـير فى العـالم . . عينـاه تدمعان دما . . وتقوده بنت

صغيرة . . هى ابنته وشقيقته فى الوقت نفسه . ويظل سائحا فى العالم هكذا .

وفى قمة العذاب بعد أن اكتشف « أوديب » كل شىء عن مأساته يقول :

« بالرغم من كل هذه المأساة ، فإن تقدم سنى ونبل روحى يجعلاننى أنتهى إلى أن كل شىء حسن » .

وعندما يقول هذا الذى عانى أفظع ما يمكن أن يعانيه البشر : إن كل شىء حسن . . فذلك بالنسبة لنا حكمة كبيرة ، ودافع لكى نكتشف بين أعواد القش الصفراء زهرة تفوح برائحة جميلة . . وقد لا نجد هذه الزهرة فى العالم الخارجى . .

وعند ذلك يجب علينا أن نبحث عنها فى أنفسنا وفى وعينا وشعورنا ، بل ويجب علينا أن نصنعها أيضا .

وفى الطريق إلى الزهرة الضائعة سيكون معنا مصباح يضىء . هذا المصباح هو حكمة الحياة وهى تعبر عن نفسها فى كلمات « أوديب » وتصرفات حامل الصخرة : سيزيف . . . تلك التصرفات التى تتسم بالصبر والاحتمال .

والحكمة هى الإيمان بالعمل . . إنه أنشودة السعادة ؛ لأنه يملأ لحظات حياتنا بالعمق ويجعلها صافية شفافة . . إنه سلاحنا القوى فى وجه « الروتين » و« التكررا » ، وكلما كان العمل قائما على أساس من

الـوعى والادراك كانت مقـدرتنـا كبيرة على أن نسعد بالحياة سعادة داخلية عميقة ، وكانت مقدرتنا أوسع وأشمل فى التغلب على ما فى الحياة الإنسانية من « عبث » و« عدم جدوى » .

وبذلك ننتصر على الصخرة .

الحب لا يتكلم كثيرا ....

الإنسان الذى يتكلم كثيرا ، ويصافحنا فى عنف وحرارة ويؤيدنا ويجاملنا فى كل ما نقوله ، ويسأل عنا دائما بسبب وبدون سبب . . هذا الإنسان نسميه غالبا إنسانا عاطفيا .

ويحدث أن نتعرض لبعض التجارب القاسية . . تجارب من ذلك النوع الذى يكشف لنا معدن الناس ، ونلتفت حولنا ثم نكتشف شيئا عجيبا ، فالإنسان الذى يسحرنا بحرارته واندفاعه ، قد اختفى ونحن نصارع التجربة القاسية وحدنا ونمر بالأزمة العنيفة ، بل قد نكتشف ما هو أعجب من ذلك ، إذ يحدث أن تكون الأزمة التى نمر بها من صنع هؤلاء الذين ظهروا أمامنا دائما بمظهر العاطفيين المندفعين نحونا فى حرارة ودفء .

وهـذا التناقض بين المظهر والسلوك يثير سؤالا هاما عن الإنسان العاطفى . . من هو ؟ وكيف تعبر العاطفة الصحيحة عن نفسها ؟

لقد أثبتت التجارب الإنسانية الكثيرة أن هؤلاء الذين يلجأون إلى زخرفة عواطفهم بالكلمات المثيرة ، والحماس الخارجى الحاد ، هم فى الحقيقة أبعد الناس عن العاطفة الصحيحة الصادقة ، فالعاطفة فى حد ذاتها جمال وزخرفة طبيعية للحياة ، وهى تعطى صاحبها اكتفاء وسعادة داخلية ، ثم تخلق فيه احتراما لهذه العاطفة ، فلا يمكن أن يبعثرها فى مناسبات مبتذلة ، بل ينتظر دائما الفرص الحقيقية للتعبير عن عاطفته فى بساطة صادقة .

يروى نهرو فى قصة حياته حادثة كانت موضع تأمله الطويل « فقد أنشأ بعض الطلاب الهنود فى لندن فى بداية هذا القرن جمعية لهم ، وكانوا يناقشون فى هذه الجمعية السياسة الهندية بشكل بالغ التطرف . . كانوا دائما متحمسين متطرفين » .

أما نهرو فكان قليلا ما يتكلم فى هذه الجمعية ، ولذلك كان هؤلاء الطلاب المتحمسون يوجهون إليه اللوم دائما بسبب صمته وعدم حماسه ، ثم مرت الأيام وعاد هؤلاء الطلاب ومعهم نهرو إلى الهند فاكتشف نهرو بعد ذلك شيئا عجيبا .

يقول نهرو :

« لقد وجدت هؤلاء المتحمسين المتطرفين بالذات قد أصبحوا موظفى إدارة الانتداب الإنجليزية فى الهند ، ولم يلعبوا فى الحركات السياسية أى دور فعال ، أين راح سخطهم على الإنجليز ؟ ! أين

ذهب حماسهم العنيف ؟! . . كل هذا قد تبدد على المكاتب الفاخرة التى أعدها الإنجليز لهم فى الهند » .

والذى لم يقله نهرو أنه ـ وهو الصامت الذى لم يكن يتكلم كثيرا ـ قد دخل معركة الهند بكل قواه ، وتعرض للسجن وللأذى سنوات طويلة ، وكان فى طليعة حركة الاستقلال الهندية الكبرى ، التى كان قلبها غاندى ، وكان نهرو عقلها المفكر . . يشارك فيها ويقودها ويدفع حياته ثمنا لانتصارها الكامل .

فالمتحمسون الصاخبون الذين كانوا يضربون المناضد بأيديهم كانوا فى الحقيقة هم أقل الناس عاطفة نحو الهند ، كانوا مثل الطبل يرتفع صوته وهو من الداخل أجوف ، أما نهرو فكان يحمل عاطفة عميقة ، وهى يسبب عمقها بسيطة لا تلجأ إلى الزخارف والمبالغات ، وقد ظلت هذه العاطفة كامنة هادئة . . تنتظر الفرصة المناسبة لتظهر بقوتها الحقيقية فى الظروف القاسية ، والتجارب الكبيرة .

أما العاطفة التى كان يعبر عنها هؤلاء الطلاب الهنود فقد كانت فى الحقيقة صورة من « حب النفس » ، وقد اتخذت هذه العاطفة صورة جذابة هى : « حب الوطن » . . وكل محاولاتهم المتحمسة كان دافعها هو التظاهر ، وإبراز تفوقهم أمام الآخرين ، إنهم يريدون أن يكونوا ذوى مظهر له تأثير وسحر ؛ حتى تعلو بذلك أسماؤهم ، وترتفع أهميتهم الشخصية .

وهذا شأن كل عاطفة غير ناضجة .

أما العاطفة الناضجة الصادقة فإنها تتحرر من العناصر الدخيلة الزائفة . . حتى تصبح عاطفة سليمة ، وحتى تعبر عن نفسها تعبيرا مناسبا .

وأرقى مقياس للعاطفة الصادقة هو « ضبط النفس » . . حتى لا ينساق الإنسان مع أوهامه ، ومع مشاعره الأولى التى ينقصها النضج والتجربة ، حتى ولو كانت هذه المشاعر الأولى عنيفة ، فمن الأفضل أن يكون لهذه المشاعر « لجام » يحد منها ؛ حتى تسير بقوة نحو هدف ، ولا تكون جامحة عديمة الاتجاه تجرى فى أى طريق .

فالاستسلام للعاطفة الزائفة ـ كما يقول أحد علماء النفس ـ « يحدث فينا انطباعات مزورة عن الأشياء الخارجية » . . . كما إن هذا الاستسلام هو نوع من « الخداع الذاتى » ، وهو إحدى درجات « الضعف العاطفى » . . فصاحب العاطفة القوية الثابتة التى لا يصيبها تبدل تغير سريعان لا يلجأ أبدا إلى المبالغات أو يهتم بها . . إنما يفعل ذلك صاحب العاطفة الضعيفة ، إنه يلجأ إلى الزخارف والمبالغات والطقوس الكثيرة التى تخلو من البساطة والوداعة ، والبساطة والوداعة هما فى آخر الأمر علامتان للعاطفة الصادقة الناضجة .

وهذا هو السبب الذى يجعلنا نرى هؤلاء الذين يعبرون عن عواطفهم بعنف وهم يسلكون سلوكا مناقضا لعواطفهم الظاهرة التى أعلنوها من قبل ، وذلك عندما يتعرضون لتجربة عميقة صعبة .

إن الإنسان فى هذه الحالة يكون شبيها بالوجه القبيح الذى أخفى نقصه بالروج والمساحيق والعطور . . ثم عندما تذوب هذه الوسائل المصطنعة يبدو الوجه على حقيقته خاليا من الجمال والوسامة .

★ ★ ★

عندما نفتح للصفحة الأولى من الرواية الرائعة « الساعة الخامسة والعشرون » التى كتبها الكاتب الرومانى « كونستنتان جيورجيو » نجد البطل وهو يتهيأ لسفر بعيد ، ورحلة طويلة ، ويخفق قلب حبيبته البسيطة التى تشعر نحوه بعاطفة عميقة كبيرة وهى لا تستطيع أن تقاوم قرار رحلته بعيدا عنها ، رغم أن حياتها بدونه لا معنى لها ، ولا طعم . . إنه بالنسبة لها جمال الحياة وعذوبة الدنيا وروعة الطبيعة .

وترجو البطلة حبيبها أن ينتظر قليلا . . إنها تريد أن تحدثه فى أمر هام قبل أن يرحل ، وبعد تردد يستجيب البطل ، ويجلس على العشب ، ثم يسترخى قليلا ويستعد لسماع الكلمات الهامة التى تريد أن تقولها له . . وتبدأ هذه الحبيبة البسيطة الصادقة فى الحديث . . فما الشيء الذى تريد أن تقوله ؟ إنها تبتسم فى وداعة حزينة ثم تقول وهى تعبث بشعر رأسه :

« إن السماء صافية والنجوم جميلة » . . وتواصل حديثا من هذا النوع الذى يشبه الثرثرة التى لا قيمة لها . . إنها لم تقل له : أحبك ، ولم تحدثه عن رحلته الطويلة البعيدة الخطيرة التى ربما لا يعود منها

أبـدا . ولم تحدثه عن رأيه فى مستقبلها . . وماذا تفعل بعده . . ولم تطلب منه أن يعدل عن رحلته . . ولم تذرف دمعة .

كل ما قالته هو ثرثرة بسيطة تريد بها أن تقضى معه لحظة ، ومن خلال هذه الثرثرة المفاجئة نشعر نحن كم تحبه بدون أن تقول كلمة حب . .

إن أقصى ما تتمناه هو أن تقضى معه لحظة أخرى .. مجرد لحظة تملؤها بأى شىء ، فهذه اللحظة التى لا أهمية لها من الناحية الزمنية لها أهمية عميقة من الناحية النفسية . . إنها لحظة ثمينة غالية .

ويرحل الحبيب بعدها . . وتشعر هى كأنها حققت شيئا ، كأنها امتلكت شيئا .

هذه هى العـاطفـة العميقـة . . تعبر عن نفسها ببساطة وبدون صخب أو ضجيج وبأبسط الصور .

وما ينطبق على عاطفة الفرد ، ينطبق أيضا على عاطفة الجماعة .

وهنـاك فكـرة شائعـة هى أننـا شعب عاطفى يتميز فيه الإنسان بالحرارة والانفعال الشديد .

وقد لاحظت الباحثة « سنية حمادى » فى كتابها عن « المزاج العربى والشخصية العربية » كثرة الطقوس الاجتماعية العنيفة التى تعبر عن عواطفنـا الخـاصـة فى الـريـف ، فهناك مثلا لابد أن يمر « جهاز »

العروس بالقرية كلها ليراه جميع الناس . تحمل الفتيات أجزاء هذا الجهاز ويمشين فى طابور طويل .

هنا يتضح أن عاطفة الفرح تعبر عن نفسها بمظهر اجتماعى واضح . . أى أن « المظهر الاجتماعى » يسبق ويفوق « المظهر النفسى » الإنسانى الذى يتصل بنفسية العروسين وحدهما ، وهذا المظهر الاجتماعى « للفرح »، هو مظهر صاخب لا علاقة له بالشعور العميق الذى يستقر داخل الإنسان ويدفىء قلبه ومشاعره .

وتلك هى القاعدة الشائعة للعواطف فى كثير من البيئات المتخلفة ، فالطقوس الخارجية أهم من المشاعر الداخلية الهادئة . أهم من العاطفة الذاتية التى يشعر بها الإنسان وحده ، أو مع عدد قليل من الناس هم الذين يقتربون من قلبه وأحاسيسه العميقة .

فالاحتفال بميلاد طفل يأخذ مظهرا اجتماعيا .

والموت يتحول الحزن فيه أيضا إلى ظاهرة اجتماعية . . وفى البيئات الريفية تبرز ظاهرة « الندب » الذى تقوم به سيدة تحترف البكاء على الراحل - أى راحل - واعلان فضائله .

ومن مظاهر هذه النزعة العاطفية أيضا الانفعال السريع ، سواء كان هذا الانفعال غضبا أو سرورا . وكثيرا ما تؤدى كلمات بسيطة - فى هذه البيئات - إلى مشاكل كبيرة عنيفة . كلمة قد تؤدى إلى معركة تنتهى بالقتل ! . . وكلمة أخرى قد تفصل بين صديقين مدى العمر !! .

وذلك كله بسبب التركيز الشديد على النفس ، واعتبار أى مناقشة أو تعليق خارجى هجوما على « الذات » يستحق الاستعداد للدفاع ، والانفعال بهذه الطريقة يرجع إلى ضيق البيئة وقسوة الحياة ، فليس هناك أمام الإنسان تلك الوسائل التى تجعل صلته بالعالم عميقة ، وإحساسه بالناس والوجود رحيبا ، وتزيل التأثر السريع العنيف بالأشياء العرضية السطحية . . وهذه الوسائل هى الثقافة بشتى فروعها ، والتجربة الواسعة ، ثم رحابة الحياة واتساعها .

وفى البيئات الزراعية تبرز هذه العاطفة بعنف ، فالإنسان فيها لم يتعود تلك الصفة الأساسية للعاطفة الناضجة ، وهى « ضبط النفس » .

وهذه البيئات نتيجة لضيقها وبساطتها واستقرارها الدائم ، وعدم وجود فرصة واسعة للتجدد والابتكار فيها ، قد وسعت من سلطان تلك النزعة التى ينقصها النضج ، وأدت هذه النزعة إلى تأخر النظرة العلمية التى لم تظهر عندنا بصورة قوية إلا أخيرا ، ففى الماضى كنا نميل دائما إلى التفسير العاطفى للوجود ، ولا نبذل جهدا فكريا يخرجنا من سلطان الدهشة والإعجاب إلى نطاق التفسير والتفكير .

هذا هو ميراثنا العاطفى القديم . . عاطفة زائدة غير ناضجة ولا متزنة ، تنزع للحياة فى المظاهر الاجتماعية أكثر مما تعيش فى نفس الفرد نقية شفافة ، وتعتمد على الزخارف الكثيرة فى الكلمات والتصرفات ، ولا تعتمد على الشعور الشخصى الذى تحس به نفس الإنسان عن

اقتناع وصدق ، كما أنها ترتكب أى خطأ . . . وتلفه فى ستار حريرى اسمه : العاطفة .

وقد بدأت حياتنا تتجه نحو نوع آخر من العاطفة أرقى وأنضج . . نوع مختلف تماما عن ميراثنا العاطفى القديم .

فقد تسللت الآلة إلينا ، وبدأ المصنع ينافس الحقل ، وظهر إنسان جديد فى بلادنـا له مواعيد منتظمة ، وعمل متخصص ، وعلاقات اجتماعية لها نظامها أيضا . كذلك بدأت الثقافة تنتشر وتدخل إلى بيئات جديدة عن طريق الكتاب والجريدة والراديو والتليفزيون .

وكل هذا سيؤدى إلى تنظيم « الدورة النفسية » للمجتمع ، ويرتفع به إلى مستـوى العـاطفـة العميقـة الأصيلة ، لا العـاطفـة الكاذبة المتحمسة الصاخبة التى لا تصمد أمام تجربة الحياة .

إن العاطفة الناضجة بالنسبة للفرد والمجتمع هى التى تتركز فى قول الأمـريكى « ثورو » : « اختصر . . اختصر . . فالإنسان يجب أن يعيش حياة بسيطة وعـالية الهـدف فى الوقت نفسه » . . فأصحاب العاطفة الكبيرة هم فى الوقت نفسه أصحاب العاطفة البسيطة . . هم الذين يراقبون مشاعرهم فلا يقولون كل ما يحسون به ، بل يقولون أجمـل وأهم ما يحسـون به فى أبسط صورة . . كلماتهم قليلة ولكنها غنية . . سهلة وعميقة .

فالسلوك الإنسانى ، والعلاقات بين الناس . . كالحب والصداقة وكذلك الفن باعتباره تعبيرا عن العاطفة . . كل هذه الأشياء تخضع

لقاعدة واحدة حتى تكون راقية ، هى قاعدة « ضبط النفس » .
ويجب أن تتخلص كلها من المبالغة والزخارف ، وتنتقل من الصوت المرتفع وكثرة الكلام والثرثرة إلى الهمس والعزف النقى الذى يختار الموسيقار نغماته بأناقه ورقة وعمق .

بهذه الطريقة نصبح عاطفيين حقا .

أبى .. إنى أكرهك

بدأ يبكى بصوت خفيف ، ثم ارتفع صوته شيئا فشيئا حتى ملأ جوانب الحجرة ، وأصبح بكاؤه أشبه بالصراخ أو بالعويل . . ولم يكتف الطفل الصغير بدموعه وصوته المرتفع ، بل أخذ يدب فى أرض الحجرة بقدمه ، ويضرب الحائط بقبضة يده الرقيقة الصغيرة . . وفى الحجرة كان الأب والأم يوشكان على النوم ، وكان الليل قد انقضى ثلثه الأول ، وحان الموعد الذى تعود الأب أن ينام فيه ، كان هذا الأب واحدا من ذلك النوع من الرجال الذين يفرضون إرادتهم على أفراد البيت . . إنه قوى الشخصية حاسم الكلمة ، لا يحب معارضة الآخرين ولا يقبلها ، أما عاداته فثابتة راسخة ، وعلى الجميع أن يقبلوها وأن يحاولوا التلاؤم معها . . . وعلى العكس من ذلك كانت الأم ، إنها رقيقة عاطفية مطيعة لزوجها لا تعارضه على الإطلاق ، وهى تدلل أبناءها ، وتداعبهم كثيرا إذا ماكان الوالد بعيدا عن

البيت . أما في حضوره فلا كلمة إلا ما يقول ، ولا صوت أعلى من صوته . . . إنها تنسى شخصيتها لتكون مطيعة لذلك الأب ، منفذة لأوامره .

واشتد بكاء الطفل فقام أبوه إليه ، وسأله في شدة وحزم :

— ماذا تريد ؟

— لا شيء . . .

— إذن لماذا تبكي ؟

— أريد أن أشرب .

وقدم له الأب كوبا من الماء . ولكن الطفل لم يكف عن البكاء . . أخذه والده ووضعه في سريره ، وطلب منه في كلمات قاسية أن ينام ، ولكن الطفل استمر في بكائه وصراخه . . وعاد إليه الأب ولم يتكلم هذه المرة . . وإنما أخرج الطفل من سريره وحمله إلى الشرفة حيث تركه بعض الوقت وحيدا ، وليس على جسده الا رداء رقيق ، وأغلق باب الشرفة . . تاركا ذلك الطفل بين الفزع والظلام والإحساس الغامر بالقسوة . . أما الأم فقد وقفت موقفا سلبيا . . لم تعترض ولم تقاوم . . ولم تستطع أن تنتزع الطفل من يد أبيه ، بل لم تفكر أن تعبر عن سخطها على تصرف الأب .

امتلأت نفس الطفل بالرعب ، وكف عن البكاء ، ووقف في شبه ذهول ، وقف في ظلام الشرفة فترة من الوقت ربما كانت قصيرة ، ولكنها كانت بالنسبة إليه طويلة قاسية .

وكبر الطفل وأصبح شابا معروفا بشخصيته الخاصة ، وميونه المتميزة . . كان اسمه « فرانز كافكا » . . وأصبح « فرانز » بعد ذلك أديبا وكاتبا كبيرا . . لقد تقلبت عليه الأحداث بعد ذلك ، وحملته الأيام إلى مراحل جديدة من العمر غير مرحلة الطفولة ، ولكنه لم ينس أبدا ذلك الحادث الذى وقع له فى طفولته .

ربما لو وقع هذا الحادث لطفل غير هذا الطفل ، ومن أب غير هذا الأب ، لكانت الأيام قد استطاعت أن تمحوه ، وأن تجعل منه ذكرى طريفة من ذكريات الوعى الأول بالحياة . .

ولكن الحادث الصغير كان جزءا دالا من سلوك الأب وشخصيته العامة ، ولم يتغير هذا الأب عندما تغير أبناؤه وتقدمت بهم السن وأصبحوا فى مرحلة الوعى الذاتى المستقل ، بل ظل يتبع نفس السلوك ، ويعامل أولاده وعلى رأسهم « فرانز » نفس المعاملة القاسية التى لا تعرف اللين ، ولا تعرف الحنان ، والتى تدل على شخصية واثقة بنفسها ثقة سدت عليها منافذ الإيمان بالآخرين . . فليس هناك فى نظر هذا الأب من يدرك الأمور إدراكا صحيحا إلا هو ، وليس هناك من سلوك صائب إلا سلوكه ، وليست الحياة كما يفهمها أولاده ويحبونها ، ولكنها كما يفهمها هو ، وكما يشعر بها !! . . فإذا اختلف معه أو اختلف عنه واحد من أبنائه ، فإن هذا « الاختلاف » ليس له معنى إلا الخطأ وسوء التقدير والشعور . . وكانت شخصية الوالد مدعمة بعدة عناصر . . فهو تاجر يهودى ، بدأ حياته من السفح ،

ثم أصبح ـ باجتهاده ومثابرته وقسوته على نفسه ـ تاجرا ناجحا غنيا ، ولم يكن ضعيف البنية ، بل كان قوى الجسم ، ممتد القامة ، عريض الصدر . . وكان تفوقه الجسمانى واضحا إلى أبعد الحدود ، ومن هذه العناصر ، وعلى رأسها الثراء وقوة الجسم اكتسب الأب ثقة كبيرة بنفسه ، وأصبح يرى فى شخصه مثلا أعلى ينبغى أن يحتذيه الأبناء .

كان هذا الأب يقول لأبنائه :

ـ « إنكم تعيشون حياة جميلة أكثر مما يجب » .

ثم يعقب على ذلك قائلا :

ـ « حين كنت فى السابعة من عمرى كنت أنتقل من قرية إلى قرية دافعا أمامى عربتى الصغيرة ، كنا ننام جميعا فى حجرة واحدة . وكانت تملؤنى السعادة حين نعثر على البطاطس لنتعشى . . كنت ألبس فى زمهرير البرد ملابس ممزقة ، حتى إن القروح التى أصابت أطرافى ظلت سنوات طويلة لا تلتئم . . . كان يتعين على بعد أن صرت صبيا أن أذهب لأعمل فى أحد المحلات التجارية . . لم يكن أهلى يعطوننى شيئا من النقود ، بل إننى كنت أرسل إليهم ما يحتاجون إليه منها بعد أن التحقت بالجيش . . ولكن من يدرك هذه الحقيقة فى هذه الأيام ؟ هل يستطيع أبناء اليوم أن يفهموا ذلك » [1]

---

(١) كافكا ـ تأليف كامل زهيرى وآخرين .

بهذه الطريقة كان الأب « هيرمان كافكا » يتحدث إلى أولاده . . انه معتز بنفسه ، فخور بها ، يحس بالدهشة لضعف شخصية أولاده وعجزهم عن بلوغ ما بلغه هو من تقدم ومن تفوق فى مجال الحياة العملية .

ولكن « فرانز » الابن خرج إلى الحياة أديبا فنانا ، ولم تكن علاقته بالأدب والفن عن طريق القراءة والكتابة فحسب ، بل كانت إحساسا عميقا مسيطرا على شخصيته كلها . . . لقد كان يعالج كل أمور حياته بتلك الحساسية المرهفة الدقيقة الذكية فى الوقت نفسه ، واستطاع عن هذا الطريق أن يصل إلى مستوى كبير رائع من الفن ، فأصبحت رواياته وقصصه القصيرة من أروع ما أنتجه القلب البشرى فى القرن العشرين ، وأصبح فن كافكا شاهدا من أبرز الشواهد وأصدقها على ما يعـانيه الإنسان الحديث من تمزقات وآلام ومآس عديدة . وينظر النقاد إلى أدب كافكا على أنه مثال حتى لما يسمى « بالأدب الأسود » أى أدب التشاؤم والحزن ، أدب الكآبة والأسى . . على أن أحزان كافكـا ليست نابعـة من السطح ، وليست نابعة من الآلام العادية القريبة ، وليست نابعة من العجز . . ولكنها أحزان عميقة قادرة ، تمزق الستار الخادع الذى كانت الحياة تضعه على نفسها أمام الناس فى القرن العشرين ، فإذا ما ظهر فنان قادر حساس . . استطاع أن يمزق ذلك الستار واستطاع أن يقول : إن حياة أوروبا فى النصف الأول من القرن العشرين هى حياة تمزق . . هى مأساة .

هذا الفنان الذكى الحساس ، لم يخدع نفسه لحظة بوهم ؛ ولذلك فقد واجه الفشل بعد الفشل فى كثير من مشروعات حياته ، وانتهى به الأمر إلى أن مرض بالسل حيث مات فى سن الواحدة والأربعين فى سنة ١٩٢٤ . . وكانت هناك ثلاث قضايا رئيسية فى حياته ، الأولى هى قضية الحياة فى ألمانيا فى مطلع القرن العشرين ، لقد كانت حياة مريرة ، يسيطر عليها التنافس الفردى ، وليس فى قلوب الناس نحو بعضهم البعض أى نوع من التعاطف أو الحنان . . الناس كالسمك يأكل الكبير الصغير ، ويأتى القادر على الضعيف ، وليس هناك حدود للثراء ، وليس هناك حدود للفقر . . . تستطيع أن تصبح صاحب ملايين بأى طريقة من الطرق ، سواء أكانت عليها علامة الشرف ، أو كانت خالية من هذه العلامة . . وينتج عن هذا بالطبع نوع قاس مر من أنواع الحياة ، ولا يمكن أن تستريح الحساسية المفرطة الذكية لهذه القسوة ، ولهذا الصراع الخالى من الجانب الإنسانى المتناسق السليم . هذه هى القضية الأولى فى حياة « كافكا » . . .

أما القضية الثانية فهى قضية حبه . فقد خطب فتاة بعد حب فى سنة ١٩١٤ . . وبعد فترة قليلة تمزق حبه . .

ويمكننا أن نتصور تلك الهوة التى حدثت بينه وبين حبيبته وخطيبته . . لا شك أن الاختلاف بينهما كان أساسيا ، هو يفكر فى كل شىء ويشعر بكل شىء . . وكان كل شىء على غير ما ترتضيه الفطرة الإنسانية الحساسة السليمة فى مثل ذلك المجتمع الألمانى الذى كان يعيش فيه « كافكا » . . . ولكن ماذا يعنى الفتاة من كل هذا؟ .

إن كافكا فى نظرها محام ، وكاتب ، وهو ابن لرجل غنى صاحب ثروة كبيرة واسعة ، فيم يعنيها إذا عاشت هى سعيدة ألا يكون الناس سعـداء ؟ . . . ماذا يهمها من آلام الدنيا إذا كانت هذه الآلام لا تستطيع أن تبنى لنفسها عشا فى سماء حياتها ؟ إنها تفكر فى نفسها وفى خطيبها وحسب ، أما هو فيفكر فيما هو أبعد ، إنه يرى الدنيا تحت « ميكروسكوب » حساسيته ، فيرى كل شىء . . ويراه حزينا قاسيا فيفكـر ويتـأمـل ويأسى . . . وتكـون النهـاية بالطبع أن « يفشل » حبه . . وتتركه خطيبته إلى حيث تجد كوخا فيه طمأنينة ، وليس فيه ذلك القلق المخيف العنيد ، ومرة ثانية يحاول أن يتزوج ، ويجد حبا جديدا ، ولكنـه سرعان ما يفشل ، وعند فشله الثانى يكتشف أنه مريض بالسل .

فقضية « الحب الفاشل » قضية رئيسية هامة فى حياة هذا الفنان . .

وتبقى قضية ثالثة ، هامة وأساسية ، هى « علاقته بوالده » . . تلك العلاقة السيئة المريعة التى خلدها كافكا فى رسالة كتبها ذات يوم إلى أبيه . . وسلمها لوالدته الرقيقة النبيلة لتعطيها لهذا الوالد القاسى المعتـز بنفسـه . . ولكن الأم أخفتهـا حتى مات الأب ومات الابن أيضا ، وذهب صديق الفنان ورفيقه الناشر المثقف « ماكس برود » ليجمـع أوراقـه ، ويقرأ وصيته . وقد وجد الرسالة فى هذه الأوراق فنشرها ، وكانت طويلة كبيرة فى حجم كتاب صغير . . أما الوصية التى تركها كافكا قبل أن يموت لصديقه « ماكس برود » فهى أن يحرق

كتبه كلها ، ويحرق أوراقه جميعا ؛ فليس فيها فائدة ولا نفع ، وليس لها قيمة فى نظره . . . ولم ينفذ « ماكس » وصية صديقه الراحل ، بل كان أحرص الناس على نشر إنتاج كافكا وتقديمه إلى مسرح الثقافة الأوروبية بل والثقافة العالمية ، حيث احتل كافكا مكانا كبيرا فى الأدب الحديث . . وخصوصا بعد وفاته .

إن رسالة كافكا إلى والده هى درس كبير من دروس الحياة الإنسانية . إنها موجهة فى الظاهر إلى والد « كافكا » ولكنها فى حقيقتها موجهة إلى كل والد ، ولو قرأها الآباء لتعلموا الكثير عن فن الأبوة ، وعرفوا إلى أى حد يمكن أن يكونوا فى حياة أبنائهم شيئا جميلا رائعا فى بعض الأحايين وشيئا قاسيا مؤلما فى أحايين أخرى .

فدور الأب فى حياة الإنسان يبدأ منذ اللحظات الأولى لخطواته فى طريق الحياة ، بل إن أول « عالم » يلقاه الإنسان هو « عالم الأب » ، فإذا كانت الأم هى مصدر بقاء الابن ؛ لأنها تغذيه وترعاه وتساعده على النمو والاستمرار ، فان الأب هو الواسطة بين الابن والمجتمع ، إن الأب هو الذى يمثل العالم الخارجى ، فتصرفاته وسلوكه ومعاملته لأبنائه هى الخطوط الأولى والأساسية التى تعطيهم « فكرة الحياة » . .

وعلى قدر نضج الأب وسلامة شخصيته تتحدد شخصية الابن فى المستقبل ، ونموذج والد « كافكا » نموذج شائع معروف فى شتى المجتمعات .

ولنعد إلى رسالة كافكا لنرى ذلك الفنان العظيم مع والده ، إنه يبدأ الرسالة بقوله :

« منذ عهد غير بعيد سألتنى عما يخيفنى منك ، فلم أدر كعادتى معك بم أجيب ، ويرجع ذلك من ناحية إلى ذلك الخوف الذى يملك على نفسى إزاءك ، وإلى أن دوافع هذا الخوف كثيرة ومتعددة يصعب الكلام عنها فى دقة وتفصيل »[1] . . .

هذه العبارة فى رسالة كافكا تعنى أن العلاقة بينه وبين والده إنما تقوم على الخوف . . خوف الابن . . وهذا هو الأساس الأول الذى أدى بعد ذلك إلى عدد من النتائج على جانب كبير من الخطورة . وهو من ناحية أخرى نتيجة لسلوك الأب وشخصيته الخاصة . فالأب لا يحاول أن يفهم نفسية الطفل فهما صحيحا ، بل يعامله كما لو كان ندا له . . والمثال على ذلك تلك القصة التى رويناها فى أول هذا المقال ، عندما أراد « كافكا » وهو طفل أن يشرب ويبكى وصرخ ، وكان عقابه أن وضعه أبوه فى الشرفة ، وسط الظلام والبرد ، دون رحمة أو حنان . . ولنسمع كافكا يقول عن تلك الحادثة فى رسالته إلى أبيه :

« . . من المؤكد أن العطش لم يكن الدافع الوحيد للبكاء ، ولكننى كنت أبكى لكى أثيرك من ناحية ، ولكى أتسلى من ناحية أخرى ، ولما لم تفلح تهديداتك العنيفة المتكررة فى إسكاتى أخرجتنى من

---

(١) نص الرسالة مترجم بالكامل فى كتاب كافكا بقلم كامل زهيرى وآخرين .

سريرى ، وحملتنى إلى الشرفة حيث تركتنى بعض الوقت وحيدا وليس على جسدى إلا رداء رقيق ، وأغلقت باب الشرفة دونى » .

هذا هو الطفل الحقيقى . . إنه يبكى أحيانا للإثارة ، وأحيانا للتسلية . . إنه يريد أن يثير انتباه الأب ، يريد أن يشعر بوجوده ، وبشخصيته من خلال أهتمام الآخرين به

وهذا حق من حقوق الطفل ، بل وجزء من الطبيعة البشرية السليمة فى تلك المرحلة من العمر . وعلى الأب أن يقدرها تمام التقدير ، ويعالجها بطريقة سليمة . . أما إذا عالجها على أن الطفل يبكى بدون سبب معقول ، فإن النتيجة ستكون أن يقف منه موقف العقاب ، وقد يشتد هذا العقاب فيؤدى إلى آثار سيئة ضارة .

ما تلك الآثار السيئة الضارة ؟

إن كافكا يجيب عن ذلك فى رسالته :

« لقد كان ذلك كافيا ولا ريب لكى يجعل منى مخلوقا مطيعا فى الظاهر ، وإن كان قد سبب ضررا آخر خفيا ، فلم يكن ذهنى فى ذلك الوقت يستطيع أن يدرك العلاقة بين طلبى للماء بدون مبرر ، وإخراجى إلى الشرفة ، والأمر الأول كان يبدو طبيعيا جدا فى نظرى ، ولكن الثانى كان مريعا ومخيفا ولا شك ، ولقد ظللت سنين طويلة أتألم فى مرارة كلما تذكرت كيف أن ذلك الرجل الجبار ، الذى هو أبى ، وهو الملاذ الأخير لى ، كان يستطيع أن يخرجنى من السرير بدون مبرر

قوى أثناء الليل ليتركنى فى الشرفة ، مدللا بذلك على تفاهتى وضآلة شأنى !! .

« بيد أن هذا الشعور بالتفاهة الذى كان متواضعا فى أول الأمر والذى كنت أستمده من تأثيرك على ، استفحل خطره فيما بعد ، حتى سيطر تماما على شخصيتى » .

إن فهم نفسية الطفل مسألة هامة إلى أبعد حد ، وإذا كان ذلك مطلوبا من المتصلين بالطفل فهو مطلوب على وجه الخصوص من الأب . . إنه واجبه الأول ومسئوليته الكبيرة . . والنقطة التى يشير إليها كافكا فى الفقرة السابقة من الرسالة ، وهى عدم الثقة بالنفس والإحساس الذاتى بأن الإنسان لا قيمة له ولا أهمية . . هذا النوع من الشعور بالتفاهة هو أمر مدمر قاتل ، قد يؤدى إلى انهيار الشخصية تماما ، وهو يؤدى أحيانا إلى نوع مرير من التمزق والقلق ، مثل ذلك الذى سيطر على كافكا وأدى فى النهاية إلى مرضه بالسل ، ثم إلى وفاته فى سن الحادية والأربعين . وفى بعض الأحايين يصبح انعدام الثقة بالنفس مفيدا ؛ لأنه يدفع إلى العمل والاجتهاد رغبة فى تعويض النقص الموجود داخل الشخصية ، ولكن ذلك لا يتحقق إذا كان الشعور بانعدام الثقة غائرا وعميقا فى النفس إلى الحد الذى يشل قدرة الإنسان على العمل .

إن قدرا محدودا معقولا من هذا الشعور هو وحده الذى يفيد الحياة الإنسانية السليمة ، أما الإسراف فيه فدمار ، أو طريق إلى الدمار .

وربما ترجع مسئولية هذا الشعور إلى الظروف أو التجارب . . ولكن مرجعها الأساسى فى حياة الإنسان هو : شخصية الأب ، ومن هنا كان واجب الآباء كبيرا . .

إن عليهم أن يفكروا كثيرا فى علاقاتهم بأبنائهم . وأن يتخلوا عن جعل الأبناء حقلا للتجربة ، أو مجالا لتعويض ما ينقصهم فى حياتهم . . كأن يتحول الأب المستضعف فى المجتمع إلى ديكتاتور مع أبنائه . . إنه تعويض مريض . . أما التعويض السليم فهو أن يلتمس الأب قوته فى تقوية أبنائه ومساعدتهم على الحياة الطبيعية .

ونقطة أخرى على درجة كبيرة من الأهمية يثيرها « كافكا » فى رسالته إلى أبيه ، يقول الكاتب الفنان :

« لقد كان محرما علينا نحن أن نمتص العظام ، أما أنت فكنت تفعل ذلك ، ولقد كان محرما علينا نحن أيضا أن نلعق الخل ، أما أنت فكنت تلعقه ، كنت ترى أنه يجب تقطيع الخبز قطعا متساوية نظيفة ، ولكنك لم تكن تتورع عن تقطيعه بسكين ملوث بالصلصة ، كنت تحذرنا من أن يقع الفتات منا على الأرض ، ولكن عقب الطعام كنا نرى كثيرا من الفتات المتناثر حيث كنت تجلس ، كنت تقول إن المرء يجب أن يتفرغ على المائدة للأكل فقط ، ولكنك كنت تنظف أظافرك وتقلمها ، وتبرى الأقلام ، وتنظف أذنيك بالخلال التى تستخدم لتنظيف الأسنان بعد الأكل » .

إن كافكا يؤكد هنا خطورة التناقض بين القول والفعل .

وإذا كان هذا المبدأ سليما فى كل الأمور ، فهو أكثر سلامة فى ميدان الأبوة ، فالأب هو المدرسة الأولى والكبرى التى يتعلم فيها الابن ، وقد لا يتمكن الابن من أن يكتشف التناقض بين القول والعمل فى حياة أستاذه ، أو فى حياة زميله ، أو جاره . . ولكنه سيتمكن حتما من كشف هذا التناقض فى حياة والده ؛ لأنه يعيش مع والده وقتا طويلا ، وفى ظروف تمكنه من أن يعرف إذا كان أبوه صادقا فيما يقوله ، أم أن أقواله ليست إلا مجرد ادعاءات .

لقد مات كافكا حزينا متألما ، مات بعد أن عاش حياة مريرة تعيسة . . لم يهنأ فيها بعالم سليم ، ولم يهنأ فيها بأب يتعاطف معه ويحترمه . وبعد أن مات كافكا بسنوات جاء « هتلر » إلى الحكم فقرر أن يحرق كتب كافكا ويصادرها ، ونفذ هذا الأمر بالفعل ، وكان السبب الحقيقى هو أن كافكا يصور « الظلام النفسى » الذى يمزق الناس ، وكان هذا التصوير هو التعبير الحقيقى عن واقع الناس فى ألمانيا قبل أيام هتلر وفى أيامه أيضا . أما السبب الظاهر : فهو أن كافكا يهودى ، والحقيقة التى كان يعلمها هتلر أن كافكا كان إنسانيا ، شامل النظرة ، بعيدا كل البعد عن الأفكار الضيقة المحدودة .

لكن عذاب كافكا قد منحنا أشياء عظيمة . . لقد منحنا عزاء نفسيا ، ودعوة إلى الحياة فى انسجام وتناسق وكراهية للمتناقضات التى يغلف بها الناس حقيقة الحياة .

أما رسالته إلى والده فهى عمل فنى صادق ، وهى إلى جانب ذلك درس اجتماعى ذكى . . يعلمنا فن الأبوة الحقيقى على أنه فن من الفنون السامية الصعبة الخطرة فى الوقت نفسه ، إنه فن يحتاج إلى جهد ومثابرة وتواضع حتى يكون أساسا لخلق أشخاص إيجابيين أصفياء ، لا طريقا إلى التعقيد النفسى والدمار وضيعة الإنسان فى الحياة .

المغامر

فى مسرحية « الأيدى القذرة » للكاتب الفرنسى جان بول سارتر يقدم الكاتب نموذجا غريبا من الشباب تمثله شخصية « هوجو » . . . فهوجو شاب متحمس مندفع ، ولد وفى فمه ملعقة من الذهب ، ولكن ملعقة الذهب لم تجعل لحياته طعما . . . إن حياته باردة مملة لا تحمل إليه شيئا جديدا يثير أفكاره أو عواطفه . . . ولم يكن « هوجو » مقتنعا بأن يعيش مثل القطة الوديعة الناعمة . . . كان يريد أن يخرج إلى عالم التجربة الواسع . . . يريد أن يذوق طعم الحياة الحادة العنيفة .

وفتش كثيرا عن طريقة لتغيير حياته . . حتى استقر أخيرا على أن ينضم إلى حزب ثورى . . . وفى هذه التجربة وجد الطعم الحاد العنيف للحياة ، فحياته محفوفة بالخطر ، ودنياه مملوءة بالأسرار ، وقد يجد نفسه مكلفا ذات يوم بعمل كبير . . . عمل لم يحلم به فى حياته

الـوادعة القديمة . . حيث ملاعق الذهب وستائر الحرير ، والنظام الدقيق ، والعادات القاتلة .

ثم جاءت اللحـظة الكبـيرة . . لقـد كلفـه الحزب باغتيال أحد الزعماء السياسيين المعادين لهذا الحزب ، وعلى الشاب أن يقوم الآن بمـطاردة هذا الـزعيم . . حمل الشـاب المسدس فى جيبه فى انتظار اللحظة المناسبة ، وسافر إلى المدينة التى يقيم فيها الزعيم ، واتصل به ، وأخـذ ينـاقشه فى مشاكل السياسة حتى يكسب ثقته . . . ثم يفاجئه بعد ذلك وينفذ خطة الاغتيال .

ولكن نفسية الشاب لم تكن تبحث عن العنف لمجرد العنف ، بل كانت تبحث عن عنف له ما يبرره ، عنف له أسبـابـه الصـادقـة المقنعة . . . وقد سافر الشاب إلى حيث يقيم ذلك الزعيم السياسى ونفسه لا تحمل أى تردد فى تنفيذ خطة الاغتيال . . . ولكنه بعد أن ناقشه وتعرف عليه تغير الأمر تماما ، لقد وجد هذا الزعيم يحمل آراء صائبـة وأفكـارا حكيمـة ناضجة ، ووجد فيه شخصية قوية عميقة الفهم . . وهنا بدأ التردد يتسلل إلى نفسه . . وبدأ يشك فى سلامة موقفه ، وأصبح الاغتيال بالنسبة له عملا غير مقبول وغير مقنع .

لقد فقد الشاب إيمانه بسلامة أفكار الحزب ، ولم يعد يجد فى نفسه الشجاعة على تنفيذ خطة الاغتيال . . . وذات يوم ذهب الشاب إلى مكتب الـزعيم ، وعنـدمـا فتحـه وجد زوجته ـ زوجة الشاب ـ بين ذراعى ذلك الزعيم . . . كانت الزوجة قد تعرفت على هذا الزعيم مع

زوجهـا الشاب ، وكان الزعيم قد جذبها إليه بقوة شخصيته ، وهنا فقط يحمل الشاب مسدسه ويقتل الزعيم . . وبذلك يكون الاغتيال قائما على سبب شخصى ، وليس على فكرة سياسية أو مبدأ من المبادىء .

وبعد أن يتم الاغتيال تصبح نفسية الشاب مرتبكة ضائعة . . لقد أراد أن يخرج من عالمه الحالم إلى عالم آخر فيه عنف وانفعال ولحظات لها طعم . . ولكنه وجد نفسه مثل ذلك الذى يركب سفينة فى بحر عاصف وقد فقد « البوصلة » ففقد الاتجاه نتيجة لذلك . . . فهو لا يدرى إلى أين يسير ، وأين هو طريق النجاة .

وبذلك أصبحت الحياة فى نظر هذا الشاب « مغامرة » . . إن الشىء الوحيد الذى اكتسبه من حياته الجديدة هو معرفة العنف . . . لقد ذاق العنف ، ولحظات التوتر والقلق والترقب . . وبعد أن كان العنف وسيلة لغاية هى خدمة الحزب وخدمة مبادئه أصبح العنف غاية فى ذاته . . وذلك بعد أن انهارت أمامه مبادىء الحزب . . ولم تعد خدمة الحزب هدفا من الأهداف المقنعة .

إنه الآن إرهابى مغامر ، بعد أن كان صاحب فكرة وصاحب مبدأ .

وهذه الحالة تحدث كثيرا . . أن يتحول الشاب الثورى إلى مغامر ، وهى حالة من الحالات العنيفة المريرة التى يتعرض لها بعض الشباب فى بيئات خاصة . من هذه البيئات البيئة السياسية فى مصر قبل

الثـورة ، كان هنـاك بعض الشبـاب ينـظرون إلى الحياة فى أسف ومـرارة . . . وكـانت كل الحلول التـدريجية التى تعتمد على العقل الهادىء عاجزة عن أن تجد حلا لأزمة المجتمع ، تلك الأزمة العنيفة التى كانت تعكس نفسها على قلوب الشبان أيضا ؛ لذلك كان هؤلاء الشبان يفكرون فى حل الأزمة بالانفجار والعنف .

وبـدأ عدد من هؤلاء الذين يحلمون بتغيير المجتمع وتخليصه من أزمته يلجأون إلى العنف ، ويتعلمون وسائله المختلفة لاستخدامها ضد أسباب الأزمة ، وعلى رأس هذه الأسباب الإنجليز الذين كانوا يستعمرون البلاد . ثم أعوان الإنجليز فى الاقتصاد أو فى السياسة . وفى الوقت الذى كان على الواحد من هؤلاء الشباب أن يهتم بالحب ، والبحث عن فتاة تشاركه أحلام المرحلة الجميلة التى يمر بها ، وفى الوقت الذى كان من حقه أن يشرب من متعة الحياة الصافية ، دون أن يحمل فى قلبه أى هم كبير ، أو أن يثقل مشاعره بأفكار قاسية وهو فى عمر الحب والاستمتاع بالحياة . . كان هؤلاء الشباب يتركون كل شىء ويتعلمون استخدام الديناميت وإطلاق الرصاص ، والوسائل المختلفة للإرهاب والاغتيال . . .

وتمر السنوات وهم مشغولون ليلا ونهارا بهذا العمل العنيف ، من أجل بلادهم ، من أجل الخلاص من الأزمة التى يمثلها الاستعمار وأعوانه ، والتى تجعل الحياة كئيبة بل ومستحيلة . ويبدأ هؤلاء الشبان يعيشون فى الجو الجديد ويشعرون بألفة كاملة معه . . وشيئا فشيئا

أصبح معنى الحياة الوحيد بالنسبة لهم هو العنف ، هو القتال الدموى الحاد . . . لم يعد بالإمكان أن يعيش الواحد منهم لحظة هدوء وادعة . . لقد تعود على صوت الانفجار ، وتعود على حياة الاندفاع والمغامرة .

والاستغراق الكامل فى جو من الأجواء يؤثر على بعض النفسيات تأثيرا عنيفا ، إنه يجعل هذا الجو بالنسبة للإنسان هو الحياة . . ويصبح الخروج من جو العنف والمغامرة مثل خروج السمكة من الماء : معناه الوحيد هو الموت .

لقد كان اختيار العنف فى أول الأمر مجرد وسيلة لغاية ، هى إخراج الإنجليز من البلاد و القضاء على الاستغلال . . . ولكن الاستغراق فى جو العنف لمدة طويلة يجعل العنف هدفا مستقلا ليس له غاية .

وهنا يتحول الثورى إلى إرهابى ثم إلى مغامر .

وهذا هو الذى حدث لشخصية « هوجو » كما صوره سارتر . . . لقد أراد أن يخدم مبدأ عن طريق العنف ، فأصبح العنف بالنسبة له هو المبدأ الوحيد الأخير .

وقد تلقيت رسالة من أحد هؤلاء الشبان الذين عاشوا جو العنف فى حياتنا قبل الثورة وتحول العنف بالنسبة لهم إلى غاية دائمة .

والنتيجة . . .

إن هذا الشاب قد وقع فى أزمة عنيفة عندما أصبحت الحياة خالية من الحاجة إلى العنف والإرهاب . . . فقد قامت الثورة المصرية

سنة ١٩٥٢ . . . وأخرجت الإنجليز وهدمت بنيان المجتمع القديم ، وأصبحت المهمة الرئيسية للقوى الجديدة هى بناء المجتمع الجديد . . ان المجتمع الآن يحتاج إلى نفسية هادئة تعمل فى ميدان البناء الإيجابى الذى يخلق الحياة الجديدة ويسندها . . . المجتمع يحتاج إلى المهندس والطبيب والعامل الفنى . . . وكما قال أحد زعماء الثورة الروسية بعد نجاح الثورة : « . . الآن مهندس واحد خير من عشرين سياسيا » .

ولكن هذا الشاب لم يستطع أن يتخلص من تجربته القديمة ، إن جو العنف والإرهاب هو الجو الوحيد الذى يناسبه . . . وعندما وجد أن الحياة لا تسمح بذلك بعد أن خرج الإنجليز من البلاد وانتصرت المبادىء التى كان الشباب يحلمون بها ويفكرون فى تحقيقها بأى طريق . . عندما أحس ذلك لجأ إلى المغامرة .

إن المغامرة توفر له الجو القديم العنيف نفسه ، إنها تخلق فى حياته نوعا من التوتر ، وتجعله دائما مشغولا عن نفسه ؛ لأنه لو وقف أمام نفسه وجها لوجه ، لما وجد فى حياته شيئا مريحا . . إنه لم يعرف الحب أبدا . . والحب فى حقيقته تربية طويلة عميقة ، ولا يمكن لإنسان حرم من هذه التربية أن يعيش تجربة الحب بطريقة سليمة . . وليس فى حياة هذا الشاب أيضا مهنة أساسية يمكن أن يلجأ إليها ويهتم بها ، فقد كانت مهنته هى « الإرهاب السياسى » ضد الإنجليز وأعوانهم . . وليس فى حياته صداقات مع الناس ، أو مع الكتب ، أو غير ذلك من دعائم الاستقرار والهدوء والتحول إلى حياة جديدة .

وأصبح فى أزمة عنيفة ، ولم يعرف أبدا طريق الخلاص .

وهو الآن ينتقل من بلد إلى بلد ، ويخرج من الشرق إلى أوربا ، ويلقى بنفسه فى أى مكان من العالم بلا مال ولا أمل . . . إن الشىء الذى يسعده هو الانشغال عن نفسه ، ومواجهة تجارب عنيفة فى كل لحظة استمرارا لماضيه الذى لا يستطيع أن يتخلص منه .

ورسالته التى تسلمتها منه أخيرا كتبها إلى من هامبورج فى ألمانيا يقول فيها :

« لقد اشتغلت عاملا فى مصانع كبيرة . . . ومن أول ساعة لبست بدلة العمال واشتغلت بأصعب الأعمال : تحميل أكياس من البواخر إلى المخازن ، ومن المخازن إلى عربات البضاعة .

كنت أحمل جبالا من أكياس الكيماويات ، وعملت أمين مخزن ، وعملت معلقا ومذيعا بالعربى والإنجليزى فى إذاعة ألمانيا ، ثم عملت مدرسا وسائقا . . فى الخامسة فجر كل يوم والجليد يتساقط على وجهى وأكتافى أخرج متجها إلى محطة الترام ؛ لأكون فى المصنع فى السادسة والنصف وفى « المكبس » فى السابعة بالضبط . . وبلا مبالغة فأنا الوحيد فى ألمانيا الذى عاش الشتاء القاسى بلا « بالطو » ودون « جوانتى » .

والنتيجة أن دمى نقص عن الحد الطبيعى ٤٥٪ وانخفض النبض إلى ٦٠ ضربة فقط . . ومنذ نحو عشرة أيام أشرف القلب على

التوقف ، لولا سرعة نقلى إلى المستشفى ، وقد غادرت المستشفى بعد أيام لأنى لا أملك ثمنا للعلاج . . وكل شىء هنا له ثمن . . حتى الرحمة والابتسامات . وإذا لم تكن تملك الثمن فمصيرك الطرد ولو أدى بك الأمر إلى الموت » .

هذه صورة من الحياة التى يعيشها الآن ذلك الذى كان منذ أكثر من عشرين سنـة ثوريا عنيفا يساهم فى إرهاب الإنجليز وعملائهم مساهمة كبيرة .

وليست هذه الصورة التى تنقلها الرسالة غريبة أو شاذة ، فحياة هذا الشاب تدور منذ سنوات فى هذه الدائرة نفسها .

إن الثورة كائن حى ينمو ويتطور . . والثورى الذى لا يفهم هذه الحقيقة يتعرض للضياع وللآلام العنيفة ؛ لأن الثورة سوف تكبر وتنمو ويظل هو على حاله .

وتكون النتيجة هى اليأس أو الارتباك والبحث عن المغامرة .

وأصعب تجربة يمكن أن يتعرض لها الثورى هى أن تنجح الثورة ، فعـلى الثـورى الحقيقى أن يلائم نفسه مع الظروف الجديدة ؛ لأن نجاح الثورة يعنى أنها تحتاج إلى وسائل جديدة ، وطريقة جديدة فى العمل ، فإذا كانت الثورة فى دور الإعداد بحاجة إلى العنف . . فهى بعد النجاح بحاجة إلى المهندس والفنان والطبيب . . الخ .

إن نجاح الثورة معناه أنها حصلت على الأرض ، وعليها بعد ذلك أن تملأها بالسنابل والزهور .

وعدم الفهم أو عدم الإدراك الصحيح للمرحلة التى تمر بها الثورة يؤدى إلى مشكلة نفسية عميقة . . . مثل تلك المشكلة التى وقع فيها صاحب الرسالة .

فعد أيها المغامر الحبيب إلى وطنك فهو أحنى عليك من أى عالم غريب . . عد . . . واملأ قلبك بإحساس جديد . . فكل ما كان مطلوبا سنة ١٩٥٠ لم يعد مطلوبا الآن .

وباستطاعتك أن تنمو مع الثورة وتتطور معها .

إن أبسط عمل متواضع يعتبر الآن خدمة للوطن . . فعد وابحث عن الحب والصداقة والأمن هنا فى أرضك العربية ، وستجد ذلك كله بعد أن كنت محروما منه كله فى الماضى .

عد إلى أى عمل متواضع هنا ، فهذا العمل هو امتداد لماضيك ، وهو الترجمة الوحيدة له فى المجتمع الجديد .

هذا هو طريق الخلاص من الأزمة النفسية . . . وليست المغامرة أبدا هى الطريق .

العجز العاطفى

عندما تنظر إلى وجهها ، تشعر أنها خلقت لتكون لرجل واحد . .

بهذه الكلمات وصف فنان فرنسى كبير زوجة صديق له .

وكثيرا ما أفكر فى هذا الوصف . إننا عندما ننظر إلى بعض نماذج المرأة الحديثة نحس فى نظراتها عشرات الرجال . . لا رجلا واحدا فحسب . .

فما الذى يجعل بعض بنات هذه الأيام يفقدن أجمل صفات حواء : التوحيد فى الحب . . والإخلاص لشريك الحياة . .

السبب : الحرية . . أو الفهم الخاطىء للحرية . .

إن المرأة العصرية تذوق طعم الحرية لأول مرة . لقد أصبح من حقها أن تختار الرجل ، دون أن يقول لها المجتمع : عيب !

وحرية المرأة فى العالم تجربة جديدة . . وفى بلادنا تجربة جديدة جدا . . وهذا هو سر المرض الذى تعانيه بعض نماذج المرأة فى هذه الأيام . .

إنه العجز العاطفى !

وهو أخطر من العجز الجنسى وأكثر تشويها لمعانى الحياة . .

والبنات المصابات بهذا المرض فى حيرة . إنهن لا يعرفن ماذا يفعلن بالحرية .

هل تكون البنت ـ مثلا ـ فرنسواز ساجان ، وتعيش فى : مراهقة دائمة ؟ ! أم تقلد مارلين مونرو . . فتعرض فتنتها دائما على العيون لتشعر بالنشوة من نظرات الإعجاب . . فى الشارع والأتوبيس ومكان العمل ؟

أم تقلد الكاتبة السورية كوليت خورى . . فتتكلم فى الأدب والموسيقى والرسم . . وتجمع حولها المعجبين من كل لون وطراز ؟

لقد أصبح هذا النوع من البنات حائرا بالحرية ، لا يدرى ماذا يفعل بهذا العبء اللذيذ . ولكن الحيرة والقلق تحولا بمرور الوقت إلى ذلك المرض الخطير : « العجز العاطفى » .

وأكبر أعراض هذا المرض أن يقول لك وجه المرأة : إنها لجميع الرجال وليست لرجل واحد ، وأن يقول لك سلوك المرأة : إن المجتمع قد سمح لى بالاختيار . . وأنا أختار جميع الرجال .

وربما كان أشهر نموذج لهذا النوع من النساء هو أديبة فرنسا المشهورة جورج صاند . . وجورج صاند عاشت فى القرن الماضى ، وكانت غريبة وشاذة . . ولكنها لو عادت إلى العصر الحديث لكانت امرأة عادية ، فالعصر ملىء بمن يشبهنها إلى حد بعيد . . وقصة واحدة من حياة جورج صاند تكشف طبيعتها المتقلبة الغريبة . فقد أحبها الأديب والشاعر الرقيق ألفريد دى موسيه ، وكان يقول لها أجمل شعره ، أما هى فكانت تقول له : إنى أعبدك .

وذهبا معا إلى إيطاليا ؛ ليعيشا فى أحضان الطبيعة . . يتمرغان فى « اللهب المقدس ويفنيان فى القبل » . وفى إيطاليا مرض موسيه ، وجلست إلى جانبه جورج صاند ، وعندما جاء الطبيب الإيطالى « باجالو » لعلاج المريض نسيت المرأة المتقلبة حبيبها ـ وقامت لتحتضن الطبيب وتقول له : أنت حبيبى ، إنى أعبدك . .

وكان موسيه فى فراشه يهتز من الحمى ، أما هى فقد جلست تكتب إلى الطبيب رسالة غرام ملتهبة وتسلمها له . . ثم تسلم له نفسها ، وتترك حبيبها على فراش مرضه وحيدا ، وتسافر مع الطبيب الذى يستمر معها بعض الوقت ثم يهجرها .

هذه صورة من المرض الذى تصاب به المرأة عندما تعجز عن فهم الحرية والاستفادة منها . .

إنه العجز العاطفى الذى يجعل المرأة غير قادرة على حب رجل واحد والوفاء له .

ولهذا المرض أكثر من صورة . . ولعل الأديب العالمى « تشيكوف » هو واحد من أروع الذين صوروا هذا المرض واكتشفوا أعراضه ، وما كتبه تشيكوف منذ ستين سنة ينطبق على حياتنا اليوم . . وكثيرا ما نلتقى بتلك الصور النسائية التى صورها تشيكوف وعبر عنها . .

ففى إحدى قصصه كتب عن امرأة سماها : الجرادة . والجرادة سيدة جميلة لبقة ، تزوجت من طبيب شاب وديع . . وكانت هذه السيدة تريد أن تشعر بالأهمية ، فحولت بيتها إلى صالون تجتمع فيه مع رجال مشهورين من الرسامين والموسيقيين ، وكانت « أولجا » ـ وهذا هو اسم السيدة ـ تقول لأصدقائها وهى تشير إلى زوجها : « انظروا إليه ، ان فى سيماه شيئا ما ، أليس كذلك ؟ » وكان يبدو عليها وهى تقول ذلك حرصها الشديد على إن تبرر لمعارفها لماذا قبلت الزواج من شخص عادى ليست له أى صفة تخرج به إلى صفوف الممتازين .

كانت تحب المشهورين اللامعين فى أى شىء حتى ولو كانوا تافهين وزائفين .

وكانت تشعر وهى إلى جانبهم أنها ممتازة ولامعة . . أليست على معرفة بألمع الناس وأشهرهم ؟ وكانت هذه هى موهبتها الرئيسية ، والوحيدة . . معرفة المشهورين .

واحد من هؤلاء المشهورين أخذ يعلمها الخطابة . . وآخر يعلمها الموسيقى ويقول لها بصوت حزين : « إنك موهوبة ، ولكنك على وشك أن تقبرى نفسك إن لم تستغلى مواهبك لتصبحى مغنية

رقيقة » . وثالث كان رساما ، وهو أيضا يقول لها إنها رسامة موهوبة لولا الكسل . . ولولا ارتباطها بزوج عادى مغمور . .

كان أصدقاؤها جماعة من الباحثين عن الشهرة والذين يلبسون مسوح الفن ويتظاهرون بالتفكير ، وهم يتملقون تلك السيدة ويقنعونها بأنها موهوبة فى كل شىء . . وكانت تصدقهم وتسعد بهذه الحياة العبقرية ، حياة المواهب .

وأخيرا استسلمت لحب واحد من هؤلاء العباقرة وهو الرسام .

وكان العبقرى يلتقى بها فى بيته . وأحيانا على صفحة الماء فى قارب وهو يقول لها : ما أروع السماء والماء والقمر والحب .

ولكن العبقرى الزائف الذى انساقت وراءه تركها بعد قليل وسئم منها ؛ فهو الآخر يجب دائما أن تكون هناك امرأة تطارده لتؤكد له ذاته .

وظلت الجرادة تجرى وراء الأضواء والصخب بدون عمق ولا فهم . وهذه الرغبة هى التى قادتها إلى الخيانة ، وقادتها الخيانة إلى الإحساس بالتفاهة والتعاسة . . وجاء يوم . .

مرض زوجها الطبيب ؛ لأنه « امتص الصديد من حنجرة غلام صغير مصاب بالدفتيريا » .

واشتد المرض على الزوج وأصبح من الواضح أنه سيموت .

وجـاء عدد كبير من الناس إلى البيت يزورون المريض . . وكان الحزن الشديد واضحا فى عيونهم . .

وبدأت الزوجة تنتبه إلى شيء غريب . واكتشفت فجأة أن زوجها رجل عبقرى ، رجل مهم !!

كان أحد زملائه يقول عنه « ما أفدح خسارة العلم فيه ، فقد كان على خلافنا جميعا رجلا ممتازا ، وأى موهبة وأى أمل كان يشيعه فينا » وفوجئت الزوجة !

إن هذا هو ما تبحث عنه طول عمرها . لقد كانت دائما تريد أن ترتبط برجـل عظيم له أهمية ووزن . . وكـان زوجها عظيما دون أن تدرى . . وهـا هى تعلم الحقيقـة ولكن فى آخر لحظة . . وهو على فراش الموت . .

إنها لم تكن تفهم شيئا وكانت مخدوعة بأصدقائها الزائفين وتواضع زوجهـا العظيم . . ومشكلة هذه الزوجة أنها كانت مصابة بالمرض الخطير الذى نتحدث عنه وهو : « العجز العاطفى » . . إنها لم تعرف التركيز فى حياتها ، وعواطفها . . فكانت حائرة قلقة ، ولم تكن تعرف كيف تتصرف فى حريتها . .

ولم تحاول أن تفهم الأمور بعمق . . وكان البريق الخارجى يثيرها . وأدى هذا كله إلى تشويش نفسها وأفكارها . .

فلم تعد تعرف كيف تميز بين الجمال والقبح . ولم تعرف لمن تعطى حياتها ، فكانت تنتقل بين عدد كبير من الرجال ، تحب هذا فترة ، وفى فترة أخرى تحب غيره ، ثم تضيق به وبنفسها . .

إن اتساع علاقتها مع الرجال ، وعدم عمقها فى معرفة قيمتهم الحقيقية ، ورغبتها المريضة فى الشهرة بدون جهد وبأى ثمن وبشكل عاجل وسريع . .

هذه الحياة المشوشة قد جعلتها عاجزة عن الإحساس بأى عاطفة عميقة . . وكانت النتيجة أن عجزت عن تحقيق هدفها . وهو الارتباط برجل مهم . بينما كان هذا الهدف أقرب إليها من أى شىء آخر .

وبقدر ما يكشف تشيكوف عن تفاهة هذه المرأة وعجزها عن الشعور بعاطفة عميقة نحو رجل واحد ، فإنه يكشف أيضا أن الشىء الجميل العميق إنما هو شىء بسيط متواضع ، أما الثرثارون المتظاهرون ، فهم تفاهة أنيقة ملفوفة بالسلوفان . وهذا النوع من النساء نموذج نراه كثيرا فى حياتنا . . امرأة تريد أن تكون مهمة ، وتتعرف على المشهورين بدون مقياس أو وعى . وهى دائما تحيط نفسها بمجموعة من التافهين ؛ لتغذى عجزها وشذوذها العاطفى . .

والنموذج الثانى للعجز العاطفى يقدمه لنا تشيكوف أيضا فى قصة أخرى ، وهو نموذج لا يقل صدقا وروعة عن نموذج « الجرادة » ، والنموذج الثانى هو المرأة المكافحة واسمها « ليدا » ، وهى فتاة تؤمن

بالجمعيات الخيرية وتقوم بالتدريس فى مدارس تلك الجمعيات ، وهى جادة صلبة . لا تعرف ولا تحب الكلام فى الأشياء العادية ـ من وجهة نظرها ـ مثل الزواج والحب والفن . كل حياتها عمل حديدى من أجل علاج المرضى وتعليم الأميين ، وكانت تعيش مع أمها وأختها عندما تعرف عليهم رسام شاب فأحب الأخت الصغيرة ، ولم يكن يبالى بما تقوم به الأخت الكبرى من أعمال .

وكان له فى ذلك رأى عميق ومعقول : فما جدوى العناية بعلاج المرض دون علاج أسباب المرضى . ما جدوى أن تعالج الفلاح وهو يعيش فى ظل الإقطاع ويعمل ١٦ ساعة فى النهار . . إنك ستعالجه ليعود إلى ظروفه الأولى ويمرض من جديد . . وما جدوى تعليم القراءة والكتابة إذا لم يكن لدى الناس فراغ للاستفادة من قراءاتهم .

إن الرسام يرفض الإصلاح الجزئى ويؤمن بالإصلاح الشامل .

وكان يناقش الفتاة الكبيرة فى آرائها فكرهته . وفرضت على أختها الصغيرة التى تحبه أن تقطع علاقتها به ، وأطاعتها الأخت مرغمة خوفا من إغضاب أختها الكبرى .

وبذلك خلقت الأخت الكبرى مأساة فى حياة أختها وحياة الرسام ، بالرغم من أنها تطالب بعلاج المرضى وتعليم الأميين . . أى أنها تطالب بالخير والجمال . .

لقد هدمت تجربة عاطفية جميلة بدافع من الحقد والتعصب والغرور . ولا يمكن أن تكون هذه الفتاة « المكافحة » صادقة ؛ لأن

حب الجمال لا يتجزأ . ومشكلة هذه الفتاة المكافحة هى أنها مصابة بالعجز العاطفى . . إنها تحب نفسها بسطحية وعناد .

وهى تظن أنها خرجت للحياة العملية فلابد أن يكون لها رأى صائب وقوى . . وإذا وقف أحد فى طريقها فليس عليها إلا أن تحطمه وتقضى عليه . . أما الحب فهو فى نظرها عاطفة تافهة صغيرة . وهى تربط نفسها ببعض الأشياء الجميلة لكى يقول الناس عنها إنها طيبة وذكية ومهمة . . لا لأنها تريد الخير والجمال بالفعل . .

ولو لم تكن مصابة بالتشويه والعجز العاطفى لما وقفت فى وجه هذا الحب البرىء الجميل . فالمفروض أنها تكافح من أجل تجميل الحياة ، وليس فى الحياة أجمل من الحب ، فهو أساس العمل والأخلاق ، وهو الزهرة التى تعطى للوجود رائحة حلوة . . ولا يمكن أن تكون الحرية تفسيرا أو تبريرا لهذا المرض .

فالحرية التى تفسد شعور المرأة بالحياة هى مرض وليست ميزة .

إن هذا النوع من الحرية الزائفة يؤدى إلى شىء واحد هو « العجز العاطفى » . .

عجز المرأة عن حب رجل واحد والإخلاص له . . وهو مرض يشقى المرأة كما يشقى الرجل . . إنه يؤدى بالمرأة نفسها إلى المأساة . فلابد أن تتحطم حياتها فى النهاية . . ولابد أن تقف فى آخر الأمر أمام حياة كلها فراغ ، وليس فيها ذكريات سوى الألم . .

غرباء

هى سمراء تفيض حيوية ونشاطا وصحة ، عندما تراها أو تجلس إليها تحس بمعانى السلام تملأ نفسك وتشيع فى روحك ، وكنت أراها فى الجامعة أيام كنا معا ، ولم أكن أتحدث إليها كثيرا ولا قليلا ، ولكننى كنت أحس نحوها بالاحترام ، وأنظر إليها نظرة ود ، فقد كانت جادة مشتعلة ، تبتسم على الدوام فى أمل . . وخرجنا من الجامعة ، وكدت أنساها ضمن الأشياء الكثيرة التى ينساها المرء بعد أن تدفع به الحياة العملية إلى آفاق عديدة مزدحمة بالمشاعر والأفكار والمشاغل .

وفى العام الماضى التقيت بها فى مناسبة من المناسبات ، أو بالأحرى فى مصادفة من المصادفات ، ولأول مرة تخرج معرفتى بها من حدود الصمت الذى كان مضروبا حولنا طيلة أيام الجامعة .

وفى هذه المصادفة تكلمنا . . وأخذنا نستعيد بعض ذكريات الجامعة ، ونتبادل الحديث عن بعض ذكريات الحياة ، وشعرت أننى

حقا أمام إنسانة عميقة الشعور طيبة النفس ، متفائلة ، يمتلىء وجدانها بالسلام والأمان فتضفيهما على الناس .

وبعد لقائنا كنت سعيدا راضى النفس ، انتقلت إلى ذاتى أشعة من التفاؤل الذى يملأ قلبها الكبير الحنون ، ولم أنسها من يومها . بل ظلت هذه الفتاة فى ذاكرتى علامة من علامات الإنسانية الطيبة الأمينة .

وبعد أيام من لقائنا قابلنى صديق أديب . . واحد من الذين يعيشون الحياة بإحساسهم ، ويتذوقون الوجود بمشاعرهم ، ويقابلون من مصاعب الحياة العملية أشياء جديدة كل يوم . . وقال لى الصديق الفنان وبلغة مرتعشة حزينة إنه يحب تلك الفتاة السمراء ، التى التقيت بها منذ أيام ، وإنه ينوى الزواج منها . . والحب عند هؤلاء الشباب الذين يعيشون حياة مثقلة بالهموم ليس لونا من الخيال وليس أحلاما وردية ، ولكنه شعور حاد بالرغبة فى العون ، فى الثقة ، فى ألا يكونوا وحدهم وسط هذه العواصف الحادة التى تقتلع كل وحيد منفرد . . . لقد وجد صديقى فى هذه الفتاة مثلا طيبا يمكن أن يسانده ويعاونه ، فمد يده إليها فى عنف ورغبة حارة ، ولم يشأ أن يدع هذه الفرصة الفريدة تضيع منه .

وباركت هذا الحب ؛ لأننى معجب بهذه الفتاة ومؤمن بصديقى الأديب الفنان . . ومرت الأيام ، وكان صديقى يروى لى كثيرا عن علاقته بفتاته . .

كان يروى لى قصيدة كتبها عنها ، أو حديثا دار بينهما ، أو دنيا من الآمال كانا يفتحانها بحرارة ومودة من أجل الغد ، من أجل المستقبل .

وكان يوم . . جاءنى صديقى حزين النفس ، وإذا به يقول لى إن علاقته الجميلة النبيلة بتلك الفتاة مهددة بالفشل !! . .

قلت له : وما السبب ؟ ! ، فقال : إن الفتاة متشائمة إلى أبعد حدود التشاؤم ، ولا تكف عن التفكير فى الموت . . كلما تقدمنا خطوة فى حياتنا قالت لى : لماذا تفعل هذا ؟ وما نهاية هذا كله ؟ لا شىء . . الموت . . العدم . . لماذا نتزوج ما دمنا سنموت ؟ لماذا ننجب أبناء يتعرضون للعذاب ولقسوة الظروف ثم يموتون آخر الأمر ؟ . .

لا فائدة لشىء ، ولا جدوى من أى شىء . . لا الحب ، ولا الزواج ، ولا الأمومة ، ولا متعة الجسد ، ولا متعة الروح . . إننا نخدع أنفسنا خداعا ضخما ، ونعيش فى وهم كبير . .

نتصور العزاء ينبعث من الحب . . ولا عزاء فى الحب ، ونتصور أن الحياة مليئة بالأمل . . ولا أمل فى الحياة ، نتصور أن مشاعر الناس تحيطنا بمودتها الصادقة . . والناس فى حقيقتهم يبحثون عن مصالح ذاتية فردية مهما كانت أساليب بحثهم متحضرة ومهذبة ، لا أحد يضمن الحب للآخرين ، والناس لا تحب إلا من ترى صورتها فيه . . والمجتمع كثيف متزاحم كئيب ، تربطه علاقات من الأكاذيب

والأفكار المصطنعة والكلمات المصطنعة ولا شيء بعد ذلك ، وتلك هى القصة . . فلماذا نتزوج ؟، ولماذا نحب ؟ ولماذا ننجب أطفالا ؟ ولماذا لا نترك أنفسنا هكذا سلبيين يجرفنا تيار الحياة إلى حيث يشاء . ما دامت الحقيقة المؤسفة واضحة ، ولا خفاء فى الأمر . . إننا نعيش فى مأساة . .

آخر ما كنت أتصوره أن تتكلم هذه السمراء الطيبة مثل هذا الكلام المتشائم الحزين . . لقد أعطيت لها فى شعورى صورة الإنسانة المتفائلة الطيبة . .

أكان هذا كله وهما ؟!

أكانت تستر حقيقة نفسها عندما التقينا وتحدثنا عن الناس والأشياء ؟

إننى أحيانا أرسم فى نفسى صورة خاطئة للناس .

فقد أكون فى حاجة إلى الإيمان بشىء معين . . فى حاجة - مثلا - إلى الإيمان بأن الإنسان المثقف لابد أن يكون على مستوى عال من السلوك النبيل ، وألتقى بأى إنسان مثقف فأضفى عليه من نفسى تلك الصورة التى أحبها وأتمناها وأنتظرها بلهفة وحرارة ، وتمر الأيام فإذا بى أكتشف أننى صنعت وهما ، وأضفيت على ذلك الإنسان ما ليس فيه ، وانتظرت منه مالا يمكن أن يصدر عنه .

أكانت هذه الفتاة من هذا النوع الأخير ؟ أكنت أتمنى أن أرى فتاة صافية النفس توحى بالثقة والأمل فى الحياة بعد أن سئمنا الصور

الخبيثة الباهتة من فتيات الجيل الجديد اللاتى يملأن الحياة بالعفن ، ويسلبن من نفوس الشباب كل ثقة ، وينظرن إلى العالم من كل وجوهه من خلال المطالب المادية المباشرة التى لا تفرق بين رجل ورجل ؟ . .
أكان شعورا وهميا ملأ نفسى بأن هذه الفتاة مثالية ناضجة ؟

ربما كان هذا صحيحا . . ولكننى حتى بعد إن سمعت حديث الفتاة مع صديقى لم أفقد احترامى لها ، ولم أفقد ثقتى بها . . فالمشكلة التى تثيرها هذه الفتاة مختلفة عن المشاكل التى تثيرها الفتيات الرخيصات ، اللاتى لا يقمن وزنا للفكر ولا للشعور .

ومن حديث طويل بينى وبين صديقى عرفت أن فتاته تشكو الغربة فى هذا العالم ، كان لها آمال ومطامح ، وتوقفت آمالها ومطامحها عند حدود الواقع العملى الصاخب . . ولم تجد فى حبها ما يغنيها عن آلامها ؛ فهى مشدودة إلى تلك الآلام . . مشدودة إلى والدها الذى مات . . مشدودة إلى وجهها الأسمر الشديد السمرة ، فى مجتمع ظالم ما زال ينظر إلى اللون الأسود نظرة اضطهاد . . ولا تجد فى الفكر عزاء . . ولا فى الفن .

إنها غريبة ، تشعر بالوحدة . . ولكن ما الحل ؟ لقد وقف أمام هذا السؤال فلاسفة وفنانون عصريون كبار . . وقف أمامه سارتر ، ووقف أمامه ألبير كامو ، ووقف أمامه جراهام جرين ، ووقفت أمامه سيمون دى بوفوار . .

أهو الانتحار للتخلص من تلك المشاكل المغلقة ؟

كانت الإجابة دائما لدى المجتمع : كلا . . إن الانتحار لا يحل المشكلة بحال من الأحوال . .

وأكثر الناس تشككا فى قيمة الحياة هم أكثر الناس خوفا من الموت ورهبة ، والذى يرهب الموت ويشك فى الحياة لا يمكن أن يصل إلى شىء أكثر من الاضطراب والفزع . الحل الحقيقى هو : الوعى . . أن نعى ما يمكن وعيه من مشاكلنا ، وأن نبذل جهدنا لنجعل من حياتنا شيئا ظاهرا ملموسا يعطينا مزيدا من اليقين . . فالحب الصادق ، والأبناء ، والمصلحة المشتركة مع بعض الناس ، ومحاولة التفكير المتعقل الهادىء فيما يتعرض له الإنسان من مشاكل . . كل هذا يمثل بعض وسائل الحل لهذه الإشكالات العنيفة .

لست أزعم أن هذا سيؤدى إلى قتل المشكلة . . ولكننى أعتقد أنه سيضعنا جنبا إلى جنب معها . . لن نكون أقل من المشكلة ، ولن نكون أهون منها . فنحن فى هذه الحالة كمن فرضت عليه الظروف أن يواجه أسدا . . علينا أن نواجهه بكل شجاعة . . وبكل سلاح . . وإذا قتلنا الأسد فى آخر الأمر فسوف نموت وقد بذلنا غاية الجهد . . سنموت منتصرين ، دون فزع . . دون اضطراب أو جزع .

فعودى إلى الحب يا سمراء . . وتزوجى فتاك الفنان الذى يؤمن بك . وواجهى القلق والحيرة وإلى جانبك قلب كبير مثل قلبه .

ولن تكونى وحدك الغريبة فى هذا العالم .

وسمراء أخرى . .

إنها حائرة أيضا ، وهى تشعر بالغربة فى العالم . . وهى شعلة من النشاط والحيوية ، وعلى مستوى ثقافى نادر طيب ، لو رأيتها لذكرتك براقصات الباليه العصرى : حركة جميلة رشيقة تنبض بالحياة يقودها نغم ساحر حلو ، ولو حدثتها لوجدت النشوة تسرى فى نفسك . . فهى تفكر معك ، وتشعر معك ، ولا تتركك لحظة حتى تشعر أنك وحيد تتحدث مع شخصية باهتة مسلوبة التفكير والشعور . .

وإذا عرفتها عن قرب رأيت مثالا آخر من أمثلة الغربة ، والبحث الدائب عن نفس ضائعة . . إنها تعرف عشرات من الشبان ، وتسعى إلى ذلك وتنجح فيه ؛ بسبب ما فى شخصيتها من قوة وتميز واضح عن غيرها من الفتيات . . ولكنك تحس من عينها القلقة ، وسلوكها الذى لا يخضع لمنطق واحد ، أو قاعدة منظمة . . . تحس أنها غريبة هى الأخرى ، لا تعرف سبيلها المحدد فى هذه الحياة ، انها تقبل على معرفة الشباب من كل لون وكل اتجاه ، وقد لا يدهشك أنها تعرف شابا مثقفا واعيا وتعقد معه أواصر صداقة قوية ، ثم تفاجئك بأنها تعرف شابا آخر على قدر واضح من التفاهة وانعدام الوعى الثقافى !! . .

وتتحدث معها عن شؤونها هى فتعلم منها أنها تكره وظيفتها وتتمنى أن تعمل عملا حرا ، أو أن تنتقل إلى وظيفة أخرى . . هى تكره

الـوظيفـة عموما ؛ لأنها قيد ، وتظن أن العمل الحر لا قيود فيه . . وتكره وظيفتها بالذات ؛ لأنها ساكنة جامدة ، وهى تريد وظيفة مرتبطة بالفن ، متحركة مليئة بالحيوية . . وتحب الثقافة ولكن الثقافة تحتاج إلى تركيز وانتظام . أما هى فتسعى فى هذه الحياة على مسرح واسع جدا تلتقى فيه بالعشرات والعشرات ، ولا يمكن لهذه اللقاءات أن تسمح لها بتركيز فى الثقافة بحال من الأحوال . . إنها مزيج من فتيات الصالونات اللاتى يتميزن بالخفة والحيوية ورقة الحديث . . وفتيات العمـل المشتغـلات فى القـرن العشرين الـلاتى يبحثن عن التركيز والوضوح والتحدد ، ولكنها ليست من هؤلاء ولا من هؤلاء . .

ما الذى تريده هذه الفتاة على التحقيق ؟ لا هى تعرف ، ولا هى تستطيع أن تعرف . . ان البحث عن العلاقات الكثيرة دونها هدف هو فى الحقيقة لون من الضياع ، ولون من النقص فى معرفة الذات .

والخلط بين الطموح الاجتماعى ، والطموح الثقافى خطأ كبير آخر . فمن يريد الثقافة حقا ، لا يضيق بالوظيفة التى تعطيه فرصة القراءة والفهم ، وإذا كان هذا الضيق مدفوعا بالإحساس بأن فى المجتمع فرصـا أخـرى ينـالها آخـرون ، فلا يمكن للإنسـان أن يصل إلى شىء . . إن نجيب محفوظ كان موظفا بوزارة الأوقاف ، وكان لهذا العمل الردىء فضل كبير على أدبنا كله ، فمن خلال هدوء العمل وانفصاله الكامل عن الأدب استطاع نجيب محفوظ أن يكتب إنتاجه العظيم . . لقد استطاع من خلال الاستقرار العادى للإنسان الناضج أن يصل إلى الأشياء العظيمة التى يريد أن يصل إليها . .

وبالنسبة للمرأة هل تعتبر الوظيفة الحكومية قيدا من القيود ؟ . . كلا . . إن الوظيفة هى مستوى طيب من حرية المرأة يتيح لها الاتصال بالحياة والمشاركة فيها . . ولكن فى حدود منظمة سليمة ، كما أن العمل الحر لا يخلو من القيود ، بل إن قيوده - فيما أعتقد - أشد عنفا وقسوة من قيود العمل الحكومى ، وقد تكون هذه القيود خافية ، ولكنها موجودة بعنف وتؤثر فى الإنسان تأثيرا بالغا عنيفا .

وهل الحرية بالنسبة للفتاة هى أن تعرف - بلا هدف حقيقى - عشرات الشباب من شتى الألوان والاتجاهات . . وتعرفهم بنفس العمق والاهتمام ؟

كلا بالطبع . . إن الاختيار الواعى هو الوسيلة الصحيحة للارتباط بالناس .

وهذه الفتاة فى حقيقتها هى واحدة من اللاتى يعشن فى غربة ، قد تلتقى بها ذات يوم ، أو تسمع عنها . . فهى الصديقة لمعظم الشباب المرتبطين بالحياة الثقافية . .

ومعظم الأكفاء من هؤلاء الشباب فكروا فيها ذات يوم كرفيقة عمر . . ثم انصرفوا عن التفكير بعد فترة . . لقد تأكدوا أنها لا تعرف ماذا تريد . . وأنها تخلط بين الحرية والفوضى ، وأن وعيها الجميل منفصل عن سلوكها الخالى من التركيز والضوابط المحكمة . ويا ليتها تعرف طريقها وتركز عليه . . . ولسوف تستطيع يومها أن تضيف شيئا جميلا إلى الحياة .

وغريب آخر . .

شخص حبيب عزيز ، هو قصيدة رقيقة أو نغمة حلوة ، أو كلمة صافية . . ولكنه غريب يبحث عن نفسه منذ زمان ، ويجرى هنا وهناك لعله يستقر على معنى لحياته ، وكلما رأى شيئا جديدا تعلق به وظنَ أنه هو المعنى التائه الضائع فجرى وراءه ثم بعد فترة . . عاد إلينا وجرابه ملىء بالقلق والدمع ، والرغبة فى البحث من جديد . إنه الصديق الفنان عبد الغفار مكاوى . . لقد سافر منذ شهرين إلى ألمانيا [1] ، يبحث عن نفسه هناك ، لعله يجدها فى مزيد من الاتصال بأرض جوته وبريخت وغيرهما من الفنانين المقربين إلى قلبه .

كتب إلى فى الأسبوع الماضى من فرايبورج بألمانيا يقول :

« أنا هنا منذ شهر فى هذه المدينة الجميلة الكريهة معا ، هى جميلة بمشاهدها وآثارها والغابة السوداء التى تحيط بها من كل جانب ، وهى كريهة بناسها الجادين كل الجد ، وبلغتها المستعصية ، ببردها الظالم المستبد » .

ثم يقول :

« أخى . . ربما كنت مبالغا و« فشارا » كما هى عادتى ، ربما كنت أظلم نفسى أكثر مما ينبغى كما هى عادتى أيضا ، ولكننى على أية حال قلق غير مستريح أعانى مرارة الوحدة ـ وما أقساها ـ وأحس أن أيامى

(١) عاد الآن من ألمانيا وأصبح أستاذا لامعا فى كلية الآداب قسم اللغة الألمانية . كما عمل أستاذا للفسلفة فى عدد من الجامعات العربية خارج مصر .

تتساقط ذابلة يوما بعد يوم ، إننى مقبل على الدراسة بالجامعة بكل ما أستطيع ، وأتردد على المسرح هنا كثيرا ، ولكنى مع ذلك أتذكر مقالتك لى إنه ينبغى على أن أبقى فى بلدى وأن لا أهرب ، أنا الآن أتحقق صدق كلمتك . . . » .

إنه غريب هو الآخر يشكو الغربة ، كان يعمل فى دار الكتب ويقرأ ويكتب ويعيش بين أصدقائه ، ولكنه كان قلقا لا يستقر ، وتعلم الألمانية بعد تخرجه فى الجامعة . . ثم عرضوا عليه بعثة إلى ألمانيا فسافر إليها علة يجد هناك مزيدا من اليقين ، فهو هنا لم يجد يقينا ولا استقرارا بعد ، وها هو يكتب من ألمانيا ليقول إنه ما زال قلقا . . بل إن قلقه قد زاد . لقد كنت مؤمنا على الدوام بأن القلق نابع من نفسه ، وانه واحد من جيل يحس ويتألم ويشاهد عملية جراحية ضخمة لمجتمع مريض هزيل يريد أن يستيقظ ويصح . . وهو واحد من الذين يتحملون التبعة . . واحد من الذين قرروا أن يعيشوا بصدق وشجاعة وفى حقيقة دائمة لا فى خداع ووهم .

وهو من أجل هذا يشعر بالقلق والغربة . . وسوف يشعر بهما فى وطنه ، وفى أى مكان آخر ؛ لأنهما ينبعان منه ومن طريقته فى الحياة وطريقته فى إدراك الأمور وفهمها .

ولا أملك أن أقول لهذا الغريب شيئا ، ولا للغرباء الأعزاء . . فمن قلب هذه الغربة يقدمون لحياتنا أحاسيس المسئولية والضمير . إنهم أشرف الغرباء وأشجعهم على الإطلاق . . حتى ولو مزقتهم وطحنتهم الأيام .

دفاع عن الجسد

يقول الكاتب العالمى الكبير برنارد شو :

قولنا العقل السليم فى الجسم السليم خطأ ؛ لأن الجسم هو ثمرة العقل السليم .

والفكرة التى يعبر عنها برنارد شو هى فى كلمات أخرى . إن العقل السليم لابد أن يفكر بكل الوسائل فى خلق جسد سليم صحيح .

وهنـاك فئـات من النـاس تنظر إلى الجسد على أنه شىء مرادف للخطيئة ، وهناك فئات أخرى ترى أن العناية بالجسد تتناقض مع العناية بالروح ، وأن مطالب الروح فى الإنسان تحتم تعذيب الجسد وعدم العناية به ، وقد وصلت هذه الفكرة إلى بعض العقائد الشائعة فى إيران والهنـد وفى بعض أجـزاء العـراق ، فهنـاك مناسبات لدى المؤمنين بهذه العقائد ينصرفون فيها إلى تعذيب الجسد تعذيبا ماديا ،

بأن يضربوا أنفسهم على صدورهم ضربا عنيفا ، ومن هذه المناسبات المعروفة « ذكرى استشهاد الحسين » ، ولدى بعض الهنود تشيع عقائد تدعو إلى تعذيب النفس بالصوم الطويل الذى يؤدى الجسد ايذاء شديدا ، وقد لجأ « غاندى » إلى مثل هذا الأسلوب ، ولكن الفرق كبير بين غاندى والهنود الذين نشير إليهم . . وهذا الفرق يتركز فى نقطة واحدة هى : وظيفة هذا التعذيب الجسدى كما يفهمها غاندى ، وكما يفهمها غيره من الهنود . . لقد كان غاندى يصوم حتى يصبح على شفا الموت والهلاك ، وكان يمتنع لفترات طويلة جدا عن أى علاقة جسدية مع زوجته . . ولكنه يفعل هذا كله بدافع إيجابى ، هو التعود على ممارسة المصاعب والسمو الروحى بما يفرضه من مسئوليات من أجل تحقيق أعلى معانى التضحية فى نفوس المواطنين الهنود الذين كان عليهم أن يعملوا كثيرا جداً ليتخلصوا من التدهور البالغ الذى وقعوا فيه نتيجة للاستعمار الغربى ، ولقد كان أسلوب غاندى أسلوبا فريدا عظيما ، ولم تكن قيمته مستمدة منه هو فى ذاته ، ولكنها كانت مستمدة ـ كما قلت ـ من « الوظيفة » التى يخدمها هذا الأسلوب ، إنه لم يكن احتقارا للحياة ، ولم يكن كفرا بدور الجسد فى الدفاع عن الانسان ، ولكنه كان تعميقا لمعنى الحياة التى كانت تحتاج فى تلك اللحظة من تاريخ الهند إلى المزيد من التضحيات ؛ لأنها كانت فى وضع يحتاج إلى مثل هذا النوع من النضال .

وروح الفلسفة المسيحية تميل هى الأخرى إلى الإعلاء من القيم الروحية على حساب الجسد الإنسانى ، إنها تقدس الروح ولا تقدس

الجسد ، ولقد كانت حياة المسيح نفسه تقوم على أساس الاستغناء عن كثير جدا من مطالب الجسد البشرى ، وكان على رأس هذه المطالب « غريزة الجنس » فالمسيح لم يتــزوج ، ولم يستجب للحب العــاتى العنيف الذى حملته له إنسانة كانت تملك عبقرية الجسد الفاتن . . . وهى مريم المجدلية ، لقد اختار المسيح النضال الروحى ، وخاض المعركة حتى ضد الجسد ، ولم يتسامح فى هذه المعركة ــ لا فى سلوكه ولا فى أقــوالــه ودعــوتــه ، ومــا قيل عن غاندى يمكن أن يقال عن المسيح . . فالمسيح قبل غاندى كان يهدف بموقفه إلى أهداف إيجابية كانت تحتمها ظروف التاريخ فى عصره ، ولم يكن المسيح متكاسلا ، ولكنه كان مناضلا إيجابيا يعمل من أجل أهداف كبيرة لتطوير النزعة المادية المتطرفة التى شاعت فى عالم تلك الأيام .

من هذا كله نستنتج الفكرة التى نريد أن نقف أمامها وهى :

إن الذين قادوا المعركة ضد مطالب الجسد البشرى ، ودعوا إلى السمو على المطامع والتخلص منها . . إنما كانوا يهدفون من دعوتهم إلى أهداف إيجابية عملية ، وعلى ذلك يمكننا أن نقول إن موقفهم قد أملتــه ظروف معينــة ، وإن الأصــل فى الحياة الإنسانية هو الاهتمام بالجســد واعتبــاره وسيلة أســاسية يقــوم عليهــا بناء الحياة ، فتطرف المتصوف الهندى فى تعذيب جسده بالجوع لمجرد التعذيب ، أو بدافع من حوافز غيبية . . كالوصول إلى الصفاء والطهر والاتصال بالله ، مثل هذا الموقف لا مبرر له ، وهو بمقياس الحياة الحقيقية خطأ ينبغى

أن يزول ، ومثـل هذا القـول ينـطبق تماما على موقف المتصـوف الإسلامى - فى إيران أو فى العراق - الذى يؤمن بأن عذاب الجسد هو تكريم لذكرى الشهيد العظيم ، « الحسين بن على » . . .

إن هذا التكـريم فى الـواقـع تكـريم سلبى خاطىء ، لقد كان الحسين يحارب عنـدمـا استشهـد ، ولم تكن حربه فى سبيل أشياء غامضة ، وإنما كان يدافع دفاعا نبيلا مجيدا عن العدالة فى الحياة ، أى عن القـوت لكـل إنسـان ، والمساواة بين الجميع ، وإنـزال الظلم الاجتماعى من أسواره العالية المحصنة فى قصور بنى أمية التى تسرف فى الـترف ، والنعـومـة ، على حساب أبناء الشعب الذين يعملون ويجاهدون فى كل مكان .

لقـد استشهـد الحسين وهو يناضل بجسد صحيح قوى احتمل الكثير من الأذى لفرط سلامته وصلابته . . فلماذا يعذب المتصوف الإسـلامى جسـده فى يوم ذكـرى رجـل دافـع عن مبـادئـه بجسد شجاع؟ . . وهذا نفسه يقال عن المتصوف المسيحى الذى أسرف فى ازدراء الجسد ، حتى لقد أصبح « الدير » بالنسبة للمسيحية مكانا يتحدى فيه الإنسان جسده ، ويرهن نفسه من أجل الروح ومن أجل الله .

ويلجأ إلى « الدير » ناس احتقروا الجسد ، وقرروا تعذيبه للتقرب من الحقيقة العليا التى تسكن السماء ، ولكن المسيح العظيم لم يكن يعـذب جسده بهذا المعنى الخاطىء السلبى ، الذى يذكرنا فى كل

لحظة بالعدم والخراب . . لقد كان المسيح يفعل ذلك كتعبير عن مزيد من الايمان بحقوق الجائعين الذين لا يجدون القوت بعد أن سلبهم إياه جشع سادة إسرائيل ، وسادة العالم فى ذلك الحين . . أى أنه كان يحمل فى الحقيقة رسالة الدفاع عن المطالب العادلة للجسد الإنسانى .

وفى العصر الحديث نجد بلدا كبيرا مثل روسيا تعد برامجها الإنشائية المختلفة على أساس من التقشف الشديد فى الكماليات ، ليس هناك «ماكياج» متنوع وليس هناك «أثاث فاخر» وليس هناك عربات غريبة الألوان والأشكال ، وليست هناك « فساتين » متعددة « الموديلات » . . . ليس هناك شىء من هذا ، بل هناك إهمال مقصود لكثير جدا من الكماليات ، ولكنهم يسرفون فى شىء آخر . . . يسرفون فى الطعام وفى السلاح . . . إن الطعام عندهم شىء هام إلى أبعد الحدود ،. فهم يأكلون بكثرة ، ويوفرون كميات ضخمة من الطعام . . ولديهم وجبات متعددة ربما فاقت الوجبات العادية الشائعة .

لماذا ؟ لأنهم يؤمنون بأن الجسد الإنسانى هو دعامة هائلة لكل إنتاج روحى ، بل هو الأساس . . بالجسد الإنسانى الصحيح يولد الفن : ويتدعم السلام ، وتزدهر الطفولة الجميلة ، والورود الجميلة . . . أما الجسد المريض الهزيل فهو بداية الطريق إلى العدم . بداية الفقر ، والعجز ، وضعف الانتاج العقلى من فن وفكر وغير ذلك من ألوان الإنتاج الذى تخلقه عبقرية الإنسان الصحيح .

وفى الفنون هناك فن يعتمد على الجسد ، وهو فن عظيم مثير .

هذا الفن هو الباليه . . . إنه لغة إنسانية يفهمها الجميع ، وهو لغة غنية بالمعانى العظيمة الحلوة النبيلة ، ولا يمكن أن ينبع هذا الفن العظيم من جسد هزيل . . بل إنّ من الضرورى لأدائه وإتقانه وجود جسد صحيح رشيق تنبض عروقه بالدم ، بالصحة ، بعشق الحياة ، ولقد عرض فى القاهرة خلال السنة الماضية فيلم « روميو وجولييت » عن قصة الفنان الإنجليزى العظيم شيكسبير ، وكان هذا الفيلم روسيا ، ولم يكن يعتمد على الكلام ، فأبطاله لا ينطقون أى كلمة ، وإنما كان هذا الفيلم يعتمد على حركة الجسد ، على الباليه . . وقد قامت بتمثيل دور « جولييت » الفنانة الروسية المعروفة : «جالينا أولانوفا» . . . .

وكان هذا الفيلم الذى يعتمد على حركة الجسد يعبر عن أعمق المشاعر الإنسانية تعبيرا غريبا مثيرا ، فهذه عاطفة الحب تعبر عنها حركات الجسد العبقرى لـ « جالينا أولانوفا » فتصور ما فى هذه العاطفة من أفراح وأشواق ونشوة ومخاوف . . وهذه عاطفة الكراهية بما تحتويه من رفض ونفور . . . وهذا هو الموت يمثله لنا فى حركات معبرة أحد أبطال الفيلم دون أن يتكلم ، ولكنه مع ذلك يعبر عن مقاومة الإنسان للموت ، وحبه للحياة ، ونضاله من أجل نبضات القلب ، واستسلامه آخر الأمر فى عذاب هائل تعبر لك عنه أبسط الأشياء : حركة من جفن ، أو شفة ذابلة أعياها الاصفرار . . . ولكنها مع ذلك تبتسم ، أو إشارة إصبع صغيرة . . . ثم يسكت القلب .

وعنـد اليونان القدماء كانوا يعبدون الجسد ، فكانت « فينوس » إلهـة للجمال ، وكانوا يصنعون لها تماثيل عارية ، وكان هذا الجسد العارى يثير فى نفوسهم أعظم المشاعر وأعذب الأحاسيس . . .

كانوا يعبدون هذا الجسد . . . وفى تماثيل أخرى كانوا يصورون عظمة الجسد البشرى فى « عضلات » السواعد ، أو قوة الصدر ، أو ارتفاع الرأس فى فتوة وعنفوان . . لقد عبد اليونان الجسد وقدسوه ، واستلهموا منه أفكارا كثيرة ، ومشاعر كثيرة . . . فعلوا ذلك كله كما لم تفعله حضارة أخرى . . .

وفى مصر القـديمة بلغت قوة التفكير فى الجسد والدفاع عنه أن اخـترع المصريون من وسائل الطب ما يحفظ الجسد بعد الموت عن طريق التحنيط ، ولم تستطع الحضارة الإنسانية على تقدمها اليوم أن تصل إلى أسرار التحنيط المصرى القديم فى تلك العصور المتأخرة البعيدة .

وفى تاريخ الحضارة الإنسانية تميز كثير من العباقرة ، بقوة الجسد الواضحة . .

وتـبرز هذه الحقيقة فى العباقرة الذين تفوقوا فى العمل إلى جانب تفـوقهم فى التفكـير ، و « محمـد » « ص » كان قوى البنية إلى حد بعيد ، وكذلك كان « عمر بن الخطاب » . . وكان « الإسكندر » قويا فتيا ولكنه مرض فجأة ، وكذلك كان « نابليون » . . وبالنسبة لحياتنا نجد أن كثيرا من زعمائنا السياسيين الذين قاموا بأعمال عظيمة قد تميزوا

بقوة الجسد ، وأحب أن أذكر من هؤلاء : أحمد عرابى ، وسعد زغلول فكلاهما فلاح قوى البنية ، قوى الإرادة .

وفى مجال الفكر أحب أن أذكر نموذجين هما : برنارد شو ، وبلزاك . . .

فلقد تفوق برنارد شو فى « نوع » إنتاجه . . ولكنه أيضا تفوق تفوقا باهرا فى « كم » هذا الإنتاج ، فقد أخرج خلال عمره الطويل الذى زاد على تسعين سنة عشرات من المسرحيات الجيدة العظيمة المتماسكة ، كما تميز برنارد شو أيضا بثقافته العميقة المتعددة الجوانب ، ولم يكن برنارد شو ليستطيع أن يصل إلى هذا المستوى من الثقافة لو كان ضعيف الجسد هزيل البنيان .

أما بلزاك فقد كان قويا إلى حد بعيد جدا ، ولولا الأزمات النفسية والاقتصادية التى تعرض لها فى آخر حياته لكان من أصحاب العمر الطويل . . وبسبب من هذه القوة البدنية الهائلة استطاع أن يضيف إلى الأدب العالمى ما يقرب من مائة رواية . . معظمها من الإنتاج الأدبى الرفيع . إنه أيضا لم يتفوق فى « نوع كتابته » ولكنه كذلك تفوق فى « كم » كتابته .

والجسد الذى يثير كثيرا من الإشكالات هو جسد المرأة ، فهو الجسد الذى يقترن كثيرا بفكرة الخطيئة النابعة من الانحراف فى التصرف الجنسى . . ولكن الحقيقة هى أن الجسد الأنثوى فى سلامته وصحته ورشاقته يحمل إلى الحياة أكثر من معنى عميق جميل ، وإذا

انتـظم المجتمـع وتـلاشت أسبـاب الحرمان والضعف فيه ، وارتفع مستوى الإنتاج فأصبح كل إنسان يعمل بقدر ما يستطيع ، وشاعت المسـاواة ، وقضى على فكـرة الفـراغ التى تنشـأ من قلة العمـل فى المجتمع ، أو من سوء توزيع هذا العمل فيعمل عشرة أفراد ، ليأخذ جهـدهم فرد واحد . . أو كما صور برنارد شو فى كلمات قوية « إذا وجدت إنسانا لا يعمل فإن هناك من يعمل لنفسه وله » إذا استطعنا أن نصل إلى هذا المجتمع المتكامل السليم فإن جسد المرأة سيصبح مصدرا لكثير جدا من ألوان السعادة والجمال ، وسوف تنتفى إلى حد بعيد فكـرة الخـطيئة بجسد المرأة ؛ لأن فرصة الخيانة الزوجية ، أو البغاء ، أو الاضطراب فى أمور الجنس سوف تختفى تقريبا ، وسوف تختفى أيضا دوافع هذا الاضطراب وحوافزه . . سنجد مجتمعا جميلا يعمـل كله متآزرا متعاونا يتبادل أفراده الاحترام ، ويشعرون بمتعة الحياة فى منابعها . وتنتفى سيادة فرد على فرد ، وينتفى الفراغ الذى يوحى بالخطأ ، وسيصبح الجمال هو الصحة والأناقة البسيطة وسلامة النفس من العقـد والأحقاد التى تنعكس على الوجه ، بل على بناء الجسم كله .

أنـا مؤمن إلى أبعـد حد بفكـرة اليونان عن الإنسان . . . أومن بالجسد البشرى لأنه منبع الروح وحصنها العظيم ، وهو مصدر غنى من مصـادر الجـمال ، وفيه من الإمكانيات ما يمكن أن يخلق ألوانا متعـددة من السعـادة ، ويزيد شعورنا بالحياة قوة وأصالة ، والذين

يؤمنون بأهداف عظيمة كبيرة ينبغى أن يضعوا فى حسابهم أن الجسد السليم الجميل القوى يعتبر وسيلة هامة من وسائل الأهداف البعيدة .

وإننى أومن تماما بأن الجسم الصحيح هو حتما جسم جميل .

فالصحة فى ذاتها لون حلو غنى من ألوان الجمال . . وبهذا المعنى فإننا نستطيع أن نخلق جمال الجسد ونستطيع أن نملأ الدنيا به ، والأفراد الذين يتطرفون فى إهمال مطالب الجسد بحجة الإخلاص لأهداف روحية أخرى يخطئون فى نظرى ، لأنهم سوف يصطدمون فى النهاية بعقبات رئيسية تنشأ من إهمالهم مطالب الجسد . على أنه من البديهى أن من يجعل الجسد غاية فى ذاته لا وسيلة لأشياء أخرى . . هذا الذى يفكر بهذه الطريقة لا يفرق بين الانسان والحيوان . . إن إيماننا بالجسد ينبع من أننا نرى فى الجسد القوى إمكانيات خصبة لمزيد من الإبداع ومزيد من اكتشاف الأشياء العظيمة فى هذه الأرض ، ومزيد من السعادة والسرور النفسى .

نصف الجنون

مرحلة الطفولة فى حياة الإنسان مرحلة سحرية ناعمة ، فالطفل يعيش حياته لحظة بلحظة ، لا يعرف شيئا اسمه الماضى ، ولا يخاف من مجهول اسمه المستقبل . . والألم فى حياة الطفل لحظة تمر ، والفرح لحظة تمر أيضـا ، والطفل لا يعرف أبدا ذلك الشعور المكتوم الذى يحتمله القلب الإنسانى ، ولا يستطيع الوجه أن يعبر عنه بالصراخ أو بالدموع .

وعندما نخرج من الطفولة تبدأ المشاكل ؛ فلابد أن يكون لنا رأى ومـوقف من كل شىء ، وعلينـا أن نعمـل على التلاؤم مع العالم ، وتصبـح لنـا أحـلام نحاول تحقيقها ، ومخاوف نعمل على التخلص منها . . إن علينا ان نفكر فى كل شىء ونصنع كل شىء ، ونتحمل نتيجة ما نصنعه .

وبعـد الطفولة نقف فى مفترق طريقين : طريق للسعادة وطريق للتعاسة . . والطريق العام الذى سير فيه الناس بحثا عن السعادة هو « الانتماء إلى شىء » .

هناك ناس ينتمون إلى عمل يحبونه أو أسرة يحسون فيها بالراحة والهدوء ، أو حب يملأ حياتهم ، أو فكرة يؤمنون بها . . والذى ينتمى إلى شىء لابد أن يشعر بالسعادة ، ولا فرق بين إنسان يحب « تربية القطط » ويعتبرها شيئا رائعا جميلا ، وإنسان يشغله عمل عظيم آخر . فكلاهما سعيد لأنه ينتمى إلى شىء يحبه .

أما طريق التعاسة فهو طريق مناقض . . . فعندما تكون حياة الإنسان خالية من شىء يحبه وينتمى إليه ، تبدأ التعاسة والضياع فى التسلل إلى حياته .

وهذا النوع من التعساء هو موضوع القصة التى كتبها آرثر ميللر ، والتى خرجت فى فيلم مثير شاهده العالم فى أول الستينات واهتز له .

والفيلم ملىء بالرموز . . ولكنه عميق يحمل أكثر من معنى كبير .

وأهم المعانى الكبيرة هو معنى الانتماء . . لابد أن ينتمى الإنسان إلى شىء حتى يكون سعيدا ، وكل أبطال « الفيلم » معذبون تعساء ؛ لأنهم لا ينتمون إلى شىء ، والأشياء التى كانوا ينتمون إليها تحطمت ، وحاولوا إعادة بنائها ولكنهم فشلوا إلى حد بعيد .

وهذه الحالة يسميها الكاتب الإنجليزى كولن ولسن بحالة « نصف الجنون » . . . ذلك لأن الإنسان يكون فى تلك الحالة مثل المجنون . . فاشلا فى التلاؤم مع الحياة والناس ، حائرا لا يدرى ماذا يفعل . . وهو دائما مرتبك النفس والذهن والسلوك . . ولكنه ليس

مجنونا كاملا ؛ لأن المجنون الكامل يفشل فى التلاؤم مع العالم الواقعى ، ولكنه يخلق لنفسه عالما وهميا كاملا يعيش فيه ، والمجنون ينتقل إلى عالمه الجديد وليس لديه أى وعى بما يحدث فى العالم الواقعى . . لقد سيطر عليه عالمه الوهمى تماما .

ولكن نصف المجنون يفشل مع العالم الواقعى ولا يجد بديلا لهذا العالم حتى فى نهاية الوهم والخيال .

وهكذا نجد كل أبطال الفيلم . .

ففتاة الفيلم ـ روسلين ـ شابة جميلة تركت زوجها ؛ لأنها كانت تحس أنه « بعيد عنها جدا » . . إنهما يعيشان فى بيت واحد ، ولكن بين روحيهما صحراء أوسع من صحراء نيفادا التى تدور فيها أحداث الفيلم ؛ ولذلك تهجر الزوجة بيتها ، تهجر عالمها القديم ، وتبحث عن شىء آخر تحبه وتهتم به . . لقد ألقت بنفسها فى محيط الحياة تجرب حظها بدون أن تعرف هدفا أو غاية محددة .

و« جى » ضائع هو الآخر ومعذب ، إن أيامه تهرب منه ، وهو يريد أن يعزى نفسه بأن « الشباب هو شباب الروح » ، ولكنه فى قرارة نفسه مقتنع بأنها حكمة زائفة ؛ لأن روحه أكثر شيخوخة من وجهه .

لقد كان مطمئنا لفترة قصيرة مرت فى حياته مثل ومضة عابرة . . كان زوجا هادئا سعيدا ، وفجأة اكتشفت أن سعادته من « القش » . . لقد ضبط زوجته تخونه مع ابن عمه ، وتبددت سعادته

ولم يبق له سوى أمل واحد هو ابنه وابنته ، ولكنهما كبرا وهجراه أيضا . . تركاه وحيدا بلا أمل ولا حلم ولا مال .

و« بيرس » ، كان ينتمى إلى أسرته . . ولكن الأسرة تهشمت مثلما يتهشم لوح الزجاج . . فأصبح وحيدا طريدا . . لقد مات أبوه وتزوجت أمه من رجل آخر أكل ثروة الأب ، وترك الابن ضائعا لا يجد أسرة ينتمى إليها ويحتمى بها . . وعندما جاء عيد ميلاد أمه أراد أن يقدم لها هدية . . ولكن حذاءه كان ممزقا وكانت ملابسه « فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش » .

و« جيدو » ماتت زوجته أثناء الوضع ، ومات الطفل معها ، لقد صرخت فلم يهتم بها ، وذهب إلى حجرتها بعد أن هدأت إلى الأبد . وكان يعمل طيارا فى الحرب ، وقتل ناسا كثيرين . ولكنه لم يعرف الحزن إلا على ميت واحد هو زوجته .

ووجد الرجال الثلاثة روسلين فى حياتهم . . فالتمسوا فيها أملا . . ولكنها كانت ضائعة مثلهم لا تحس بالانتماء إلى شىء ، وهى حائرة مرتبكة . . نصف مجنونة أيضا .

ويبدءون جميعا فى البحث عن حل لتلك الحياة الجرداء الخالية من المعنى : فماذا يفعلون ؟ يسكرون أم يلجأون إلى العنف ؟

وعندما يسكر أحدهم تظهر أحزانه بصورة عنيفة قاسية .

« جى » ينادى أولاده ، ويتخيلهم موجودين أمامه ، ويعوى وهو يناديهم بأسمائهم . . إن ضياعه يدفعه إلى تصور وجود الشىء الوحيد الذى يربطه بالعالم وهو أولاده . .

ولكن الحقيقة قاسية . . فلا شىء يربطه بالعالم . . والأولاد غير موجودين وهو يتعلق بأمل وهمى خرافى .

ويحاول « بيرس » أن يجد نفسه فى أعمال عنيفة ، فيدخل مسابقات خيول وثيران ، فلا يكسب من هذه المسابقات سوى جروح خطيرة وسخرية لاذعة من المشاهدين .

ولكن يجد متعة فى العنف والتوتر ، فهما يملآن حياته . . إنهما صورة أخرى من السكر .

أما « جيدو » فيسكر أيضا ، ثم يعود إلى بيته الذى تهدمت منه أجزاء كثيرة ، ويحاول أن يبنيه بألواح خشبية يقيمها فى الهواء فتسقط منه ، ثم يقيمها مرة أخرى فتسقط منه . . .

إنه يحلم ويصارع من أجل أن يكون له « بيت كامل » يحبه ويهتم به ويعيش فيه . . ولكنه مجرد حلم . . مجرد وهم لن يتحقق أبدا .

ثم يشترك الجميع فى عمل عنيف واحد ، هو مطاردة الخيول البرية واصطيادها لبيعها . . حيث تذبح وتقدم طعاما للكلاب والقطط . وتثور الفتاة وتدعو المجموعة إلى عدم صيد الخيول ، ولكنهم

لا يستجيبون لها . . ويصطادون ستة من الخيول ويربطونها بالحبال فى قسوة وعنف .

فتقف « روسلين » فى وسط الصحراء وتصرخ فى صوت جنونى متوتر :

« إنكم ثلاثة رجال ميتون !! لا عمل لكم الا القتل . إنى أكرهكم أيها السفاحون !! إنى أكره حريتكم » .

وفى الليل يهدءون قليلا ، ولكنه هدوء يخفى عاصفة فى داخله . ويقرر « بيرس » أن يطلق سراح الخيول ، ويذهب فعلا لتنفيذ فكرته وعينا « روسلين » ترقبانه فى رجاء وأمل . ولكن « جى » يكتشف الحقيقة فيقوم وحيدا بمطاردة أقوى الخيول . . وبعد مجهود عنيف يمسك به ويربطه فى العربة . . وأمام دهشة الجميع يقطع حبل الفرس ويتركه لحريته !! ثم يقول : إنى أحب أن أتخذ قراراتى بنفسى .

وتهتز « روسلين » أمام هذا الموقف . . لقد وجد « جى » طريقه الصحيح . . لقد قرر أن يحرر الحصان ولكن باختياره وإرادته ، وبدون أن يفرض أحد عليه هذه الفكرة . لقد انتمى إلى نفسه وإرادته أخيرا . وقرر أن يتحرر من القتال والعنف .

وركبت معه روسلين عربته ، وسألته : كيف نعرف طريقنا فى الظلام ؟

فقال لها : علينا أن نتبع هذا النجم الكبير ، إنه يوصلنا إلى البيت .

وفى لمسة رائعة من المخرج الكبير « هيستون » يختفى كل شىء تدريجيا . . إلا هذا النجم الذى يظل بارزا يتحرك وحده على الشاشة ، صغيرا وحيدا ، وكأن النجم يقول لنا فى بساطة وإلحاح :

هناك طريق للخلاص من الألم ، من الضياع ، من العذاب الذى يعانيه الإنسان الحديث فى الحضارة الحديثة !

ويمضى « جى » مع « روسلين » يبحثان عن طريق جديد للحياة غير القتال والضياع فى صحراء نيفادا ! . . وصحراء نيفادا هى الصحراء التى تجرى فيها أمريكا تجارب القنابل الذرية . . ووراء « جى » و« روسلين » يقذف « جيدو » كلماته القاسية المحتجة ، لقد قضى جزءا كبيرا من حياته طيارا فى الحرب ، وقتل ناسا كثيرين ؛ ولذلك فهو وحده الذى يطالب بالعنف والقتال ، ويجد فيهما نوعا من التعويض عن مشكلته الخاصة مشكلة الوحدة والضياع . .

ولكن « جى » و« روسلين » لا يعبآن بكلامه ، ويمضيان وراء النجم الكبير . . يبحثان عن طريق جديد للحياة . .

هذه هى القصة الرائعة التى كتبها « ميللر » وارتفعت « مارلين مونرو » فى تمثيلها إلى القمة ولم تكن مجرد حيوان جميل . . وإنما كانت انسانا جميلا مفكرا .

إن الفيلم يحتج بشدة على الحضارة الحديثة وخاصة فى أمريكا . . وكثيرا ما يقال عن هذا العصر فى أمريكا إنه عصر الجاز ، أى عصر السرعة والزحمة ونصف الوعى ، ونصف الجنون . . عصر السكتة القلبية . ولكن أبرز مظهر لعصر الجاز وأقسى مظهر له هو « عدم الانتماء » . . أو تفكك العلاقات البشرية التى تدفىء القلب وتقضى على وحشة الحياة . إن عصر الجاز يجعل من الإنسان آلة تتقن العنف والتدمير ، ولا ترتبط مع العالم برباط جميل قوى .

و « ميللر » فنان كبير يصرخ مع غيره من الفنانين من أجل إنقاذ الإنسان من هذا المصير المحزن من الضياع والكآبة والوحدة . . والنجم فى قصة « ميللر » يرمز إلى السلام والطمأنينة والحب والعمل المفيد .

فلنتبع هذا النجم الكبير . . حتى نعرف الطريق الصحيح فى ظلام الإنسانية .

إرادة البشر

مرت فى حياة الحضارات الإنسانية فترة كان كل شىء فيها يفسر عن طريق الأساطير ، فإذا سقط المطر ، فإن المطر هو غضب أحد الآلهة ، وهكذا . . فالأشياء تمضى فى حياة الإنسان والعالم كما تريد تلك الأساطير الهائلة الضخمة ، وتقدمت الحضارات الإنسانية إلى مرحلة أخرى فتخلصت الحضارة من تهاويل الأساطير ، ويبدأ عصر « الدين » . وكان الدين يفسر الظواهر فى الطبيعة ، ويحدد قيمة الإنسان فى المجتمع وعلاقته بالعالم ، ويبدأ الإنسان يتطور ويخرج من مرحلة إلى مرحلة ، حتى وصلنا اليوم إلى مرحلة « إنسانية » . . بمعنى أن كل شىء فى الحياة يفسر من زاوية « الإنسان » . فإذا نظر العلماء إلى الطبيعة كانت نظرتهم تمثل سؤالا هو : ماذا يمكن أن نستفيده من الطبيعة لخدمة الإنسان . . وإذا نظروا إلى المجتمع كانت نظرتهم تعنى سؤالا هو : أى المجتمعات أنسب لحياة إنسانية

سعيدة ؟ . . أهو المجتمع الإقطاعى ، أم هو المجتمع الرأسمالى ، أم هو المجتمع الاشتراكى ؟ .

وهكـذا فنحن نعيش فى عصر إنسـانى يفسر الأشياء بمقياس الانسان ومن زاويته .

على أن « الإنسانية » ليست فردا وليست جماعة ، ولكنها تدور بين هاتين الوحدتين . . وحدة « الفرد » ووحدة « الجماعة » .

وقد ظهرت فى القرن الماضى فى أوروبا عدة ظواهر ، منها ظهور الصناعـة والمصـانـع الكبرى على نطاق واسع ، ومنها نشأة الفكرة « الرأسمالية » ونموها .

وقـد اقـترن بهذه الظواهر نمو النزعة الفردية . . لقد كان القرن الماضى فى حقيقته هو عصر « الفرد » لا عصر « الجماعة » ، فتفسير أى شىء فى حياة الإنسـان كان يعتمد على طبيعة الفرد . . طبيعته النفسية ، وطبيعته العضوية .

فالفرد كان مركز الحركة فى حياة ذلك القرن .

ولكن القـرن العشرين ، وخصـوصـا منـذ انتهاء الحرب العالمية الثـانية ، حمل إلى الثقافة والفكر تيارا جارفا من النزعة « الجماعية » فتغـيرت المقـاييس وأصبـح كل شىء مرتبـطا بمصلحـة الجـماعة ، ووصلت هذه الأفكار أحيانا إلى حد إلغاء شخصية الفرد ، والقضاء عليه كعنصر من عناصر تفسير الظواهر المختلفة فى الحياة والمجتمع .

وقد تسببت هذه النزعة الجماعية فى إيجاد الظاهرة التى نريد أن نقف عندها اليوم .

وتتمثل هذه الظاهرة فى تفسير السلوك الإنسانى بالظروف المحيطة به . . مثلا : فتاة نالت قسطا وافرا من التعليم ثم خرجت إلى الحياة ، ولكنهـا أخـذت تتصرف كما كانت جداتها يفعلن . . نفس عقلية الحريم . . ضعف فى الشخصية ، تبعية غير سليمة للرجل وللتقاليد الاجتماعية الرديئة . . مثل هذه الشخصية ماذا يكون موقفك منها ؟ . . هناك من يرى أنها ملومة فى موقفها ، وأنها مسئولة عنه . .

وهناك رأى آخر شائع إلى حد بعيد ، هذا الرأى هو أن هذا النموذج من الفتيات هو إفراز من إفرازات الوسط الاجتماعى ، فالمجتمع بظروفه وتقاليده وأفكاره وعقائده هو الذى خلق مثل هذه الفتاة ، والمجتمع هو المسئول عنها ، وعليك أن تغير المجتمع حتى تتغير الفتاة . . ومثل هذا الأسلوب شائع فى تفسير العقد النفسية المختلفة ، والسلوك الشخصى المضطرب ، وشائع فى تفسير المفاهيم الزائفة فى عقول الأفراد أو نفوسهم .

ما من شك أن هذه الطريقة « الجماعية » فى تفسير الظواهر والأشياء مدينة للنزعة الاشتراكية التى بدأت تشيع بأفكارها وعقائدها المختلفة منذ مطالع هذا القرن ، وأصبحت اليوم مظهرا رئيسيا من مظاهر الحياة فى المجال العلمى ، فهناك مجتمعات كثيرة جدا تعتنق الفكرة الاشتراكية فى صورها المختلفة ، أما فى المجال النظرى فهذه الفكرة

شائعة فى شتى فروع الثقافة ابتداء من الاقتصاد حتى الفن والأدب . إن الكتب العديدة التى تظهر فى الحياة الفكرية العالمية فى العصر الحديث متأثرة إلى حد بعيد بشيوع الفكرة الاشتراكية وانتشارها .

هذا هو ما أدى إلى نظرية تفسير « السلوك الإنسانى » حسب « الظروف » القائمة فى المجتمع والبيئة . . وهذا التفسير ضرورى ولازم عندما نعالج مشكلة فرد ، أو ظاهرة اجتماعية . . ولكن الشىء الخاطىء حقا هو أن نقف عند هذا الحد من حدود التفسير . . أن نفسر الإنسان بظروفه الخارجية وحسب ، إن المعنى القريب لهذه النظرية أو لهذه القاعدة هو : ان المسئولية الفردية للإنسان غير موجودة ، وان الارادة الإنسانية لا دور لها فى موقف الإنسان من الحياة . . وبلغة أخرى فإن التطرف فى هذه النظرية يعنى :

أن الإنسان كالكائنات الحية الأخرى ، هو إفراز للبيئة والطبيعة .

وهذا الرأى بمعناه المطلق رأى خاطىء وله أخطاره ، وخصوصا إذا وصل إلى حده الأقصى من التطرف والتعصب .

وقد شاع هذا الرأى فى أوساطنا الفكرية ، وأصبح تبريرا لكثير من ألوان الانحراف والاضطراب والتهاون فى الإحساس بالمسئولية .

وهذا الرأى نفسه خاطىء من وجهة النظر العلمية التى تعتمد على تفسير الإنسان حسب بيئته وظروفه . . فهذه النظرة إذا اعتمدت على المناهج العلمية الصحيحة فإنها لا يمكن أن تغفل أثر الإنسان فى

ظروفه وأثر إرادته فى توجيه مستقبله وتحديده ، فيجب أن نعترف أن الظروف التى تمر بالإنسان تؤثر فى شخصيته تأثيرا حاسما ، ولكنها لا تجعل منه « شجرة » مثلا ، ولا تجعل منه « حيوانا » . . لا تجعل منه كائنا يتكون من عنصرين : الظروف والغريزة . بل هناك أيضا عنصر الإرادة ، وعنصر الإحساس الذاتى . .

فموقف الإنسان من الحياة هو في الحقيقة مزيج من الإرادة والظروف الخارجية .

إن بإمكانك أن تتدخل فى تحديد مصيرك ، وبإمكانك أن تغير ظروفك ، وبإمكانك أن تحس بالحياة إحساسا جديدا غير الإحساس المفروض عليك . . وهناك قاعدة علمية تقول : إن التغيرات الكمية تحدث بكثرتها تغيرات كيفية . . فما معنى هذا الكلام ؟ معناه ان الفتاة التى ضربنا بها المثل من قبل ، والتى نالت نصيبا من التعليم ولم تستطع أن تغير من جوهر الأفكار السائدة فى أسرتها وفى مجتمعها . . . هذه الفتاة كان أمامها الفرصة لخلق نفسها من جديد . . فمهما كانت التقاليد مسيطرة عليها فإنها لو لجأت إلى القراءة وحصلت على مزيد من الثقافة ، فإن الزمن سوف يحمل إلى شخصيتها تغيرات جزئية تتزايد يوما بعد يوم . . وفى يوم تتحول هذه التغيرات الجزئية بتراكمها إلى تغير جوهرى شامل . .

إن هذا التغير الجوهرى يستطيع أن يقدم للحياة صورة مغايرة للصورة التقليدية القديمة ، سوف تصبح هذه الفتاة ذات تفكير حر ،

وتصبح على قدرة فى معالجة المشاكل التى تعترضها وتواجهها فى الحياة . . إنها تحمل مفهوما جديدا للحياة العملية ، وتحمل مفهوما جديدا للعلاقة بالرجل ، وتحمل مفهوما جديدا لوظيفة المرأة .

كيف تتم هذه التغيرات فى الشخصية التى بدأت مستسلمة للتقاليد وللأفكار القديمة ، إنها تبدأ من الإرادة . . فهذه الإرادة هى التى تدفع الفتاة إلى مزيد من الثقافة ، وإلى مزيد من مراجعة شخصيتها وسلوكها وما يعترضها من تقاليد . . هذا مثال . . إنه مثال على أن التغيرات الكمية البطيئة تؤدى إلى تغيرات كيفية . وفى المجال الإنسانى لا يمكن أن تبدأ هذه التغيرات دون عنصر الإرادة . وحتى فى التاريخ . . لنأخذ تاريخ الثورات ، إن الظروف تعمل على التحضير للثورة والتمهيد لها . . ولكن إرادة الفرد بعد ذلك تعمل عملا كبيرا جوهريا فى توجيه هذه الثورة . . كذلك كان نابليون بالنسبة للثورة الفرنسية . . وكذلك كان « لينين » بالنسبة للثورة الروسية .

وهكذا فإن إرادة البشر لها دور فى توجيه الظروف وتحديد مسالكها واتجاهاتها المختلفة .

ولنقف الآن عند مطلب رئيسى من مطالب حياتنا . . إننا نعيش فترة انقلاب وتغير ، فنحن نتخلص من ملامح مجتمع قديم ونحاول إن نخلق مجتمعا جديدا له ملامح جديدة . . فكما أننا فى حاجة إلى مجتمع صناعى متقدم بدلا من المجتمع الزراعى المتأخر . . فإننا أيضا

فى حاجة إلى إنسان من نوع جديد .. إنسان يفهم الأمور بطريقة جديدة ، ويتعامل مع الناس بطريقة جديدة . كيف نستطيع أن نخلق هذا الإنسان الجديد فى كل ميدان ؟

كيف نستطيع أن نخلقه فى ميدان العمل .. وفى ميدان الصداقة .. وفى ميدان الأسرة .. وفى ميدان الحب .. إننا قطعا لن ننتظر الظروف حتى تغيرنا وتقدم لنا هذا الإنسان ، بل لابد أن نساهم فى خلق هذه الظروف .. أكثر من هذا لابد أن نسبقها بقدر ما نستطيع .. هذا واجبنا ، وهذه هى معركتنا .. معركة خلق الإنسان الجديد الذى يتلاءم مع مستويات حياتنا الجديدة فى التفكير والشعور والعمل .. نحن فى حاجة إلى الشاب الذى يواجه الحياة بطريقة جديدة .. نحن فى حاجة إلى الفتاة التى تواجه الحياة بطريقة جديدة .. نحن فى حاجة إلى العالم الذى يفكر بطريقة جديدة .. إلى الطبيب ، إلى المهندس ، إلى العامل .. إلى هؤلاء جميعا .. وقد أخذوا يفكرون ويعملون بأسلوب المثقفين المدركين لتصرفاتهم الذين يلتزمون أصول الوعى والمنفعة الإنسانية العامة ، ويقدرون معنى المبادىء الجوهرية أكثر من تقديرهم للمبادىء الشكلية .

مثلا .. نحن فى حاجة إلى مجتمع يصبح الطب فيه منفعة اجتماعية عامة ، فلا تكون هناك تجارة بأرواح الناس ، وتنتفى فكرة العيادات الخاصة ، فتصبح كل عيادة مستشفى ، ويصبح المجتمع مسئولا تمام المسئولية عن صحة المواطن .. مثل هذا الموقف فى الطب يحتاج إلى طبيب ماهر فى عمله .. ولكن هذا لا يكفى

إنه يحتاج أيضا إلى طبيب يجد فى نفسه من الحوافز الذاتية المقنعة ما يدفعه إلى العمل ، بعد أن كانت دوافع العمل فى الماضى هى الدوافع المادية . . إن الطبيب اليوم إذا كان مثقفا ثقافة عامة . ثقافة غير طبية بالإضافة إلى ثقافته الطبية فانه يعتبر شيئا شاذا غريبا إلى حد ما . . أى أن مفهوم « الطب » اليوم لا يحتم الثقافة العامة البعيدة عن الثقافة الطبية . . أما طبيب المستقبل ، الطبيب الذى نريده . . فإن ثقافته العامة تعتبر جزءا أساسيا وحتميا من عمله . .

إن ثقافته العامة هى التى ستمنحه « معنى » لعمله ، وستمنحه رضا وراحة فى هذا العمل . . وسوف يتطور مجتمعنا حتما إلى القضاء على عنصر « الربح » الخاص فى العمل الطبى . . فيصبح الطب للناس . ولابد فى هذه الحالة أن يعرف الطبيب واجبه الإنسانى إزاء مجتمعه معرفة مثقفة ناضجة [1] . .

وهكذا فى العامل . . وهكذا فى الشاب وفى الفتاة . . لابد أن ينبع كل سلوك وكل تصرف من الوعى والثقافة والقدرة على التعاون .

فكيف نستطيع أن نصل إلى هذا الوضع الضرورى . إن الجانب

---

(١) كتبت هذه الكلام فى أواخر الخمسينات ، وكانت هذه هى آمالنا وأحلامنا فى تلك الأيام ، ولكن الأمور اختلفت الآن تماما مع صدور الطبعة الجديدة من هذا الكتاب « ١٩٨٩ » ، وأصبحت أحلامنا القديمة سرابا فى سراب ، ولكن من يدرى ، لعل الأمور تتغير ، وتتحقق أحلامنا من جديد !

« الإرادى » فى شخصية المستقبل هو جانب على غاية من الأهمية والقيمة ، وينبغى أن نعمل بإرادتنا على خلق الإنسان الجديد ، فى فهمه للأمور ، وتعامله مع الناس . الإنسان الخلاق القادر الذى يتخلى عن القيم القديمة . ويبنى عالما جديدا من القيم . .

كيف يمكننا أن نربى إرادتنا حتى نستطيع أن نعتمد عليها فى الوصول إلى هدفنا ؟

إن الثقافة وسيلة هامة من وسائل تربية الإرادة ، ومن خلال الثقافة يمكن للإنسان أن يفهم واجبه ، ويستثير حماسه الذاتى ، ويكون لنفسه ملكة مستقلة للحكم على الأمور وتقديرها تقديرا صحيحا ، والإنسان المثقف هو الإنسان الشفاف المرن الذى لا يتجمد فى موقف أو فى حالة . . الذى لا يتصلب أمام ظرف من الظروف أو مشكلة من المشاكل . . والشخص المثقف « طاقة » وليس « كتلة » . .

والفرق بين الطاقة والكتلة ، هو الفرق بين قطعة الخشب وتيار الكهرباء . . . فى الأول جمود وتصلب ، وفى الثانى مرونة وحيوية وقابلية سريعة للتشكيل . . فالثقافة العميقة تربى الإرادة ، وتخلق الشخصية المستقلة الفعالة التى لا تقلد فى العمل والقول ، وإنما تقول الكلمة الصحيحة حسب الاستنتاج الواعى من خلال الموقف ، والثقافة تؤدى إلى القدرة على مراجعة النفس باستمرار ، ونقدها نقدا ذاتيا مستمرا . . . والمراجعة النفسية والنقد الذاتى من أعظم وسائل بناء الشخصية السليمة الفعالة . . . الشخصية القادرة على التضحية ، على إتقان العمل المثالى الناضج المطلوب .

لقد أسرف « نيتشه » فى القرن الماضى فى « النزعة الفردية » .

وفى تقدير قيمة « الإرادة » . وكان لبعض الوجوديين العصريين نفس الموقف فجعلوا من الإرادة الذاتية قوة أساسية للحياة . .

وفى الطرف المقابل بالغ بعض المفكرين الاشتراكيين فى تقدير قيمة الظروف الخارجية بالنسبة للإنسان . . . ولكن الصحيح هو الاعتدال . . .

وبرنارد شو يقول : « إن الاعتدال لا يمدح أبدا لذاته » .

فقيمة الاعتدال تتمثل فى وظيفته ، وإذا صح التعبير ، فإن من الواجب أن نتطرف فى الاعتدال . . والمعنى الذى أقصده بالتطرف فى الاعتدال هو أن نقيم وزنا للعنصرين فى تفسير السلوك الإنسانى وتحديد مسئولية الإنسان ، فالعنصر الفردى وعنصر الظروف الخارجية ، هما معا عنصران ضروريان لتفسير السلوك الإنسانى . . وبعد أن نسلم بهذا فعلينا أن نختار العنصر الرئيسى منهما حسب الظروف التى نمر بها . . . ومن خلال تأملى لموقف الجيل الجديد فى حياتنا ، ولشيوع بعض التفسيرات التى تعفى هذا الجيل من المسئولية أحس تماما أن عنصر الإرادة الفردية هام ، ويجب أن ندعو إلى التزامه ونتنبه إليه خلال هذه المرحلة . . يجب أن نساهم بإرادتنا فى خلق الإنسان الجديد ، والمجتمع الجديد . . والإرادة تقتضى التضحية والجهد . . ونحن فى حاجة إلى أن نبذل مزيدا من التضحية

والجهد . . وأن نعمل على مقاومة الظروف التى تعوقنا ، وأن نخلق بقدر ما نستطيع صورا مثالية من السلوك والفهم . . .

يجب أن تعمل إرادتنا على دفع ظروفنا وتطورنا فى سبيل مزيد من التقدم .

منجم الفحم

في قصة للكاتب الروسى المعروف « جوركى » يقول البطل لنفسه ، « ما أجمل أن يكون الإنسان شيئا مذكورا فى هذه الأرض وبين هؤلاء الناس » .

وهذه الفكرة التى يعبر عنها بطل « جوركى » هى فى الحقيقة فكرة متصلة بالطبيعة الإنسانية على وجه العموم ، فالإنسان دائما يميل بفطرته إلى أن « يحقق ذاته » على أوسع نطاق ممكن ، وتحقيق الذات بالنسبة للإنسان لا يأخذ صورة واحدة وإنما يظهر فى صور متعددة تنقسم فى آخر الأمر إلى قسمين : القسم الأول هو القسم الطبيعى الغريزى الذى يتمثل بصورة واضحة فى الميل الإنسانى العام إلى « الأبناء » . . فالميل الطبيعى إلى تأكيد البقاء والعمل على استمراره يتمثل فى « الأمومة » و« الأبوة » ، فالأبناء هم الامتداد الطبيعى لحياة الإنسان ، ويشعر الإنسان نحوأبنائه بأنه « حقق ذاته » على صورة

ما . . وهذا النوع من تحقيق الذات هو النوع الفطرى الغريزى الذى يشترك فيه كل الناس وبلا استثناء ، غير أن هناك نوعا آخر من الميل إلى تحقيق الـذات بصـورة مختلفـة ، هذه الصـورة هى اعـتراف « الآخـرين » بوجـود الإنسان عن طريق اعترافهم بعمل من أعماله وتمجيدهم لهذا العمل ، ويتبلور اعتراف الآخرين بالشخص المعين ، فيما نسميه « بالشهرة » . . إن « الشهرة » لون من تحقيق الذات . . لون من الشعور بالرضا عن النفس ، والشعور بأن وجود الإنسان له ما يبرره ويؤكـده فى نظر الآخرين ، وليس من الغريب أن يكون فى النفس الإنسانية ميل إلى أن يعرفها الناس ويتحدثوا عنها ويعترفوا لها بشىء من الأشياء ، فالشهرة تزيد شعور الإنسان بالرضا عن نفسه ، وتحقق له ذاته تحقيقا ملموسا ، فالميل إلى الشهرة هو انعكاس طبيعى لرغبة الإنسان فى تحقيق ذاته وإشعار الآخرين بوجوده .

ولكن الإنسان العظيم هو الإنسان الذى يذوب فى عمل يؤمن به فيلهيه عن كل شىء حولـه حتى الشهرة ، حتى معرفة الناس به ، ولا شك أن العظماء الذين ينالون الشهرة هم بشكل عام أقل استمتاعا بشهرتهم وإدراكا لقيمتها ، بل هم أقل الناس رغبة فيها ، فالإنسان المشهور عن جدارة هو دون شك إنسان قد تعود على العطاء والعمل المجهد . وغالبا ما يكون قد حرم نفسه من أشياء كثيرة متاحة للإنسان العادى البسيط ، ومثل هذا الإنسان العظيم يشعر دائما بالزهد فيما يحرص عليه الأشخـاص العـاديون من شهـرة واسم لامـع أو غير ذلـك . . وأحب أن أذكـر هنـا مثـال الكـاتب الـروسى العـظيم

دستويفسكى ، فلقد ملأ هذا الكاتب الدنيا باسمه ومجده ؛ لأن فنه الخالد سوف يظل على الدوام نبعا باقيا لمعرفة النفس الإنسانية ، وتحليل نزعاتها المختلفة تحليلا عميقا مثيرا مليئا بالحرارة والصدق ، ولا يوجد إنسان فى العالم يستطيع أن يصف نفسه بأنه مثقف دون أن يكون قد قرأ شيئا غير قليل من أدب دستويفسكى ، وقد حاول الكاتب الإنجليزى المعروف سومرست موم أن يحدد أروع عشرة أعمال فنية فى أدب العالم كله ، فكان على رأس هذه الأعمال قصة دستويفسكى « الأخوة كرامازوف » .

لا أحد يمكن أن يطمع فى أبعد من هذه الشهرة التى نالها دستويفسكى ، ولا أبعد من هذا المجد الذى وصل إليه الكاتب الروسى لأنه مجد باق لن يزول ، إذ إنه ليس مرتبطا بسبب من الأسباب العارضة والمصادفات التى لا تلبث أن تنتهى . . كلا . . بل ان أسباب المجد الذى حصل عليه دستويفسكى باقية ما بقى الذهن البشرى العميق . .

ولكن نظرة أولية بسيطة إلى حياة دستويفسكى تؤكد لنا أنه عاش حياة قاسية رهيبة ، لا حنان فيها ولا صفاء للنفس أو للذهن . . لقد عاش سنوات دامية فى صقيع سيبريا لاشتراكه فى تدعيم بعض الاتجاهات الثورية فى روسيا ضد النظام القيصرى ، ثم حكم عليه بالإعدام ، وقدم هو وزملاؤه إلى المقصلة بالفعل . . ثم صدر قرار بالعفو قبل تنفيذ الحكم بدقائق ؛ مما أدى إلى أن بعض زملائه الذين شملهم حكم الإعدام ثم شملهم العفو بعد ذلك قد فقدوا عقولهم

من هول ما أصابهم ، ومات واحد من شدة الصدمة ، وعاش دستويفسكى بعد ذلك حياة شقية تطارده فيها الأمراض العصبية ، والديون الكثيرة ، حياة أكثر أيامها اضطراب وقلق ، وأقل أيامها راحة واستقرار . . حياة دامية محزنة لا يستطيع أن يتحملها القلب البشرى دون أن يصاب بالفزع ، ولا يستطيع أن يتحملها الذهن دون أن يصاب بالاضطراب والضيق ، إن دستويفسكى لم يكن يجد العزاء الكافى فى شهرته ومجده ، بل ربما مرت عليه لحظات كثيرة وهو غارق فى آلامه وديونه وأمراضه ، دون وعى بمكانته الأدبية أو قيمته لدى الناس ، ودون أن ينفعه شىء من هذا كله .

وربما كان هناك إنسان عادى بسيط ، لا يشعر أحد بوجوده ، يؤدى عملا يوميا تافها متكررا . . قد يكون هناك انسان على هذا الوضع الخامل ، ولكن قلبه مفعم بالسعادة والرضا .

إنه يعود إلى بيت متواضع ، وزوجة وفية ولقمة خبز هانئة مع أبناء بسطاء طيبين . . إنه فى مملكته تلك : سعيد هانىء لا يطمع فى مجد دستويفسكى بل ربما لا يفكر فيه أبدا ، وربما لو عرض عليه أن يشترى كل هذا المجد بليلة من لياليه المتواضعة الهانئة لما ارتضاه ، ولا فكر فى أن يتنازل عن سعادته البسيطة الجميلة فى سبيل ذلك المجد . .

ومن المعروف عن كاتب روسى آخر هو إيفان تورجنيف أنه لم يتزوج وأنه عاش حياته ينشد الحنان والحب دون أن يجد شيئا يملأ نفسه

بلحظة هنيئة خالية من التشاؤم والأسى ، لقد كان محروم القلب وهو الفنان الارستقراطى اللامع فى قومه وفى أنحاء الدنيا كلها .

كان تورجنيف يقول أنه مستعد أن يتنازل عن مجده الأدبى كله وشهرته كلها مقابل أن يجد زوجة تشعر باللهفة وهى تنتظره على الغداء إذا تأخر بعض الوقت . . أجل . . كان يتمنى الحنان والحب . . ولو فقد المجد وضخامة الاسم . .

من هذا كله يتبين لنا أن الشهرة ليست هى السعادة بل ربما توفرت الشهرة لإنسان على غاية من التعاسة والشقاء . . وربما توفرت لإنسان لا يشعر أبدا بأنها شىء هام كما يتصور الآخرون .

وبالرغم من هذا فإن الإنسان عموما يميل إلى أن يعرفه الآخرون ، ويجد فى ذلك لونا من المتعة والراحة ، وربما وجد فى ذلك لونا من العزاء الذى يعوضه عما يبذله من الجهد ، وعن العناء الذى يشعر به فى عمله وحياته ، ولا شك أن دستويفسكى وتورجنيف كانا يشعران فى بعض الأحايين بالراحة ـ رغم ما كانا يعيشان فيه من حرمان وألم ـ عندما كانا يدركان مكانتهما المرموقة ووضعهما الباهر فى حياة الناس . . على أن الثابت فى النهاية هو أن الشهرة الحقيقية الكبيرة تكلف صاحبها أكثر مما تعطيه ، وأن الذين يسعون إلى الشهرة ويجعلونها هدفا قد يصلون إلى شىء من البريق الخاطف ولكنهم لا يصلون إلى شىء أصيل باق .

وإذا كان الإنسان يميل إلى تحقيق ذاته عن طريق إشعار الآخرين بوجوده فإن مما لا شك فيه أن الإنسان عن طريق الثقافة والتجربة يستطيع أن يصل إلى حالة من التطور النفسى الذى يغنيه عن بعض الميول العادية لدى الآخرين ، إنه يستطيع أن يكتفى بثقافته ووعيه ويمضى فى طريق هادىء يلتمس الملذات العليا التى تتصل بالمعرفة والتأمل والفن والاكتفاء الذاتى عندما يشعر الإنسان أنه يعمل شيئا حتى ولو لم يعرفه الكثيرون . . قد يستغنى الإنسان عن ميله الطبيعى للظهور ولإشعار الناس بوجوده . . ولكن تظل حقيقة هامة فى حياة الإنسان . . تلك الحقيقة هى أن الانسان قد يبحث عن معرفة الآخرين به بسبب المتعة ، وقد يبحث عنها بسبب احتياجه إليها ، إن الإنسان يحتاج إلى حوافز تدفعه للعمل حيث يستطيع أن يتغلب على ما يصيب النفس من الملل ، ويقضى على ما يعترض مشاعره من فتور وإرهاق ، وتقدير الناس يعتبر من أعظم الدوافع الإنسانية للاستمرار فى العمل بل وللإجادة فيه . .

ويشتد احتياج الإنسان إلى شعور الناس به إذا ما كانت طبيعة عمله من ذلك النوع الذى يلتمس صاحبه ردود فعله فى الآخرين ، فلو حاولنا أن نوازن وما يقوم به « العامل » وبين ما يقوم به « المثقف » لاستطعنا أن نلمس الفرق ، فالكاتب أو الأستاذ الجامعى أو الإذاعى أو المدرس يحتاج احتياجا ملموسا إلى أن يجد نتائج عمله ظاهرة فى آراء الآخرين ووجهات نظرهم ، إن نوع عمله يقوم على « الصلة » بينه وبين « جمهور » ، أما «العامل » فعلى الرغم

من أنه يقوم بدور أساسى فى الحياة فإن عمله محدد واضح وإيجابى ، فالعامل الذى يصنع قطعة من « القماش » إنما يكرر نفس العمل كل يوم ، ويشترك فى عمله مع عدد كبير من زملائه ، وليس عمله منسوبا له وحده بل هو منسوب للجميع ، ثم ان النتيجة العملية وهى « قطعة القماش » تخرج إلى السوق لتستخدم « إيجابيا » من الآخرين . .

ولذلك فالعامل لا يكون إنسانا قلقا وهو يؤدى عمله ، ولا يحس باضطراب خوفا على مصير إنتاجه العملى . .

إنه بصورة عامة لا يعتمد فى حياته على القلق ، ولا على الصلة المباشرة بينه وبين جمهور معين ، ومن هنا فإن المعروف فى علم النفس الاجتماعى أن أقل الطبقات التى يشيع بينها القلق والنزعات النفسية المضطربة هى الطبقات العاملة ، كالفلاحين والعمال . . وأن أكثر الفئات الاجتماعية اضطرابا هى فئات « المثقفين » .

فالمثقفون هم الذين يميلون إلى التفكير المعقد فى الأشياء ، وهم الذين تمتلىء نفوسهم بألوان متعددة من الطموح ، وهم الذين يصارعون رغباتهم النفسية المختلفة ويصارعون عقبات كثيرة فى المجتمع والحياة . . عقبات قد تكون واضحة ومنظورة ، ولكنها أحيانا تكون غير واضحة ولا منظورة .

وفى مراحل معينة من التطور الاجتماعى تزداد أزمات المثقفين أكثر منها فى أى وقت ، ولعل أبرز المراحل الاجتماعية التى تنمو فيها أزمات المثقفين هى المراحل التى تتحدد فيها أهداف عامة للمجتمع ،

تفرضها ظروف معينة بحيث تتاح للأفراد حريات مطلقة فى التفكير والنظر فى الأمور ، فعندما قامت ثورة روسيا سنة ١٩١٧ كان على المثقفين فى روسيا أن يستمدوا أفكارهم من النظم الجديدة التى سيطرت على الدولة ، وأن يلائموا بين أنفسهم وبين الظروف الجديدة ، وقد كان هذا الوضع سببا فى أن الكثير من المفكرين الذين زاروا روسيا عادوا ثائرين عليها ؛ لأنهم بحثوا عن شىء هام ، وهو « حرية الفكر » ، فلم يجدوه ، وقد أدى هذا الوضع بشكل واضح إلى ضعف الإنتاج الأدبى والفكرى فى روسيا بعد الثورة . وإن أدى فى نفس الوقت إلى ازدهار فنون أخرى كالباليه ، والرقص الشعبى والموسيقى وغيرها من الفنون التى تعتمد على الجماعات لا على الأفراد ، كما أدى ازدهار العلوم العملية كالطبيعة والكيمياء والطب ؛ لأن النظام والدولة وجها إليها عناية كبيرة جدا .

وهذا المثال ينطبق على كثير من الثورات الاجتماعية . . سواء كانت ثورات بانية تقوم على أساس واضح من الرغبة فى العمل والبناء ، أو كانت ثورات مضادة تقوم على خدمة فئات استغلالية معينة ، كما حدث فى ألمانيا على يد هتلر ، وفى إيطاليا على يد موسيلينى ، وفى أسبانيا على يد فرانكو .

ونحن فى الوطن العربى اليوم نعيش فى مرحلة ثورة وبناء ، مرحلة تهدف أساسا إلى تطوير الحياة المادية للشعب حتى يتخلص من مشاكله الراهنة وحتى يستطيع مواجهة المستقبل بامكانيات سليمة

تقضى على ما فيه من مشاكل وعقبات . . وكما يحدث فى كل ثورة تهدف إلى خدمة الجماعة أحس بعض المثقفين العرب بأزماتهم الفردية الغامرة . . فالمثقف مطالب بأن يفكر بشكل يتلاءم مع احتياجات المرحلة القائمة ، بشكل يتلاءم مع احتياجات شعب يعمل على بناء السدود وخلق المصانع الجديدة وتوسيع الأرض الزراعية ، إن المثقفين مطالبون بالانضمام إلى الشعب العامل فى قضيته . وفى هذه المعركة يفقد المثقفون بعض الميزات . . ولكنهم يكتسبون أشياء جديدة هامة وضرورية فى مثل هذه المرحلة . . فالمثقفون مضطرون إلى التنازل عن الظروف التى تعمل على ازدهار فرديتهم ، وإرضاء احتياجاتهم النفسية ونزعاتهم الطبيعية ، مثل الاتصال الواسع بالجمهور وتحقيق الذات عن طريق الظهور والشهرة .

قال لى شاب مثقف ذات يوم ، عندما كنت أسأله عن ظروفه وعن الأعمال التى يقوم بها :

« إننى كمن يعمل فى منجم فحم ، أبذل الكثير من الجهد ، وأعرض نفسى للخطر ، فأسهر وأقرأ وأحرم نفسى من الحب ومن متع الحياة الأخرى . . ولكنى - كما قلت لك - أعمل فى منجم فحم حيث لا يرانى أحد ، إننى أعمل تحت الأرض ، كما أننى عرضة للخطر فى كل لحظة . . لا من يسمع بى ، ولا من يعرف شيئا عن أمرى . . الجماهير مشغولة بالسياسة ، والدولة مشغولة بالمشاريع . . وأنا وأمثالى ندير أجهزة متعددة . . ولكننا محرومون من الكثير » . . هذا ما قاله

لى الشـاب المثقف،وما أقـرؤه على وجـوه الكثيرين من المثقفين . . والصـورة التى صورهـا لى الشـاب المثقف صورة صحيحـة . . إن المثقفـين المخلصين كمن يعملون فى منجم فحم لا يراهم الناس ، بالرغم من أنهم معرضون للخطر فى كل لحظة . . إنهم محرومون من الكثير ، ولكنهم مع ذلك يعملون فى جهد ودأب ، إذا عرف الناس عنهم شيئا فهم يعرفون القليل . . إننا فى عصر من العصور التى تتجه فيهـا الحياة نحو الجماعات أكثر من اتجاهها نحو الأفراد ؛ ذلك لأن ظروف الجماعة تحتاج إلى مزيد من العمل والجهد حتى تتخلص من أمـراضهـا ومشاكلها ، وبعد ذلك سوف يتاح للشخصيات المستقلة الخاصة أن تزدهر وتتقدم .

والمثقف المخلص الـذى يؤمن بمبـادىء عليا ، يرضى أن يكون عاملا فى منجم فحم . . فمن قلب هذا المنجم العظيم سوف تخرج مظاهـر الحياة الجميلة فى مستقبـل هو الخبـز للجـائع ، والمستشفى للمريض ، والسلام للناس . . والرخاء والأمن والفن . . وإنها لآمال عظيمة إذا آمن بها الإنسان ، وأهداف سامية يمكن أن يتنازل الفرد من أجلها عما تمليه عليه طبيعة نفسه وآماله الذاتية الخالصة . .

إننا فى عصر من عصور التضحية . عصور العمل الضخم والسمو بالطبيعة البشرية إلى مراحل عالية من إنكار الذات .

ولا بأس فى مثـل هذه الـظروف من أن نعمـل جميعـا فى مناجم فحم . . نتعرض للخطر ولا يرانا أحد . .

ما دمنا نعمل من أجل شىء نؤمن به . . من أجل المستقبل .

المرأة والفضيلة والحب

حياة وحيدة موحشة .. بلا ذكريات ..

هكذا كانت سعاد تقول لنفسها وهى تجلس فى شرفة منزلها المطل على النيل .. وكان المساء هادئا وديعا يوحى بالتأمل .

أخذت تفكر فى حياتها الماضية ، وفى الهمس الذى يدور حولها الآن : إنها لم تتزوج .. إنها .. وحاولت أن تطرد تلك الكلمة القاسية التى يقولها الناس عن الفتاة التى بلغت الخامسة والثلاثين دون أن تتزوج ..

كل الصديقات من حولها تزوجن .. وكل واحدة منهن الآن تعيش حياة حافلة ، فيها أطفال وذكريات وآمال .. أما حياتها فليس فيها سوى البراءة والوحدة ، ومسحة من الحزن مرسومة على وجهها ، ولحن من الأسى يعزف دائما فى حياتها .. يستقبلها فى الصباح وهى ذاهبة

إلى عملها ، ويستقبلها عندما تعود إلى حجرتها فى المساء . . وحيدة صامتة بلا رفيق .

وسعاد هذه فتاة مثقفة تعمل مدرسة لغة فرنسية .

لماذا وصلت إلى هذا الوضع الذى لم تكن تتمناه أبدا ؟

إنها ليست جميلة . . . هذا صحيح . . . ولكنها ليست قبيحة أيضا ، وهى بالتأكيد ليست أقل جمالا من عفاف ، تلك الفتاة المنطلقة اللعوب التى تزوجت واحدا من زملائها الذين كانت « تعاكسهم » فى الجامعة . .

وهى طبعا أفضل من سميرة ، بنت خالها ، التى خرجت من السنة الأولى بالجامعة لتتزوج .

أما هى فقد أتمت تعليمها الجامعى ، وتخرجت فى قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب . . وهو القسم الذى لم تكن تدخله فى الماضى إلا بنات « الذوات » . . « بنات العائلات » .

وأكثر من ذلك فقد قرأت عشرات الكتب ، وعرفت عشرات الأسماء للكتاب العصريين فى الشرق والغرب .

إنها تعتبر نفسها مثقفة . . إلى جانب أنها جامعية أيضا .

فأين راحت كل هذه الميزات المختلفة المتعددة التى يضاف إليها ويتوجها أسرة غنية حياتها ميسورة ؟ . . فهى تسكن فى الزمالك ـ

أرقى أحياء القاهرة ـ وتملك سيارة ، وتحيط نفسها دائما بكل مظاهر الأسرة الناجحة .

لماذا لم تجذب إليها كل هذه الميزات شبابا مناسبين لها ؟ . . كيف تبددت حياتها حتى وصلت بها الأيام إلى هذا الشاطىء الحزين الموحش . . شاطىء الخامسة والثلاثين بلا زواج ، بلا أطفال ، بلا أمل ؟ .

إنها تذكر الثلاثة الذين تقدموا إليها .

لقد رفضتهم جميعا . . وكانت عندها أسباب تبرر لها هذا الرفض دائما . . . كان ذلك فى الماضى . . ولكنها الآن لا تدرى تماما : هل كانت على صواب أم لا .

إن المشكلة كانت دائما عندها مشكلة الأسرة . . كان لابد أن تجد لنفسها زوجا يتناسب مع مستواها الاجتماعى . . وأيضا كانت عندها مشكلة الحرص على سمعتها الخاصة ؛ لأنها لا تحب أن تسمح للناس بالحديث أو بإثارة الشائعات حولها . .

فرغم أن أسرتها غنية لكنها أسرة محافظة . . حريصة على مستواها الاجتماعى تمام الحرص .

فكيف كانت ـ مثلا ـ تستطيع أن تقبل محمود ؟

إنه شاب جامعى . . صحيح . . ولكنه من أسرة فقيرة . . فقيرة

جدا . فلو وافقت على الزواج منه فماذا يكون معنى ذلك بينها وبين نفسها ؟

إن معناه الوحيد أنها تنازلت عن مستواها الاجتماعى لأنها لم تجد الزوج المناسب ، ومعنى ذلك أيضا أن الشبان الذين « يملأون العين » قد رفضوها ولم يتقدموا إليها وربما قال الناس : إنها قبلت « محمود » لأنها ليست جميلة بدرجة تسمح لها بالزواج من إنسان آخر . . إنسان أعلى من محمود فى المركز الاجتماعى ، وفى مستوى الأسرة .

إنها دائما حريصة على التقاليد تحاول أن ترعاها ، وتحرق لها البخور ، ولا تتنازل عنها أبدا . .

وحتى بعد أن دخلت الجامعة ، وتخرجت منها وقرأت الكتب والصحف ، لم تستطع هذه العوامل كلها أن تزلزل تقديسها للتقاليد ، ومراعاتها المطلقة لكلام الناس .

كان السؤال الذى تلقيه على نفسها باستمرار هو : هل الزواج من « فلان » يناسب التقاليد الموجودة فى بيئتها الاجتماعية ؟

وماذا يمكن أن يقول الناس عن هذا الزواج ؟

وكانت الإجابة فى الغالب :

عيب . . ما يصحش .

هكذا قالت لنفسها عندما تقدم إليها محمود ، وعندما رفضته . . . منذ عشر سنوات تقريبا . .

ولكن محمودا الآن أصبح مدرسا فى الجامعة . . وتزوج من فتاة أخرى ، وهى تقرأ له بين الحين والحين مقالات فى الصحف المختلفة . . . ينادى فيها بآراء متحررة ، ويدعو فيها إلى أفكار جريئة . . وهو أيضا يكتب قصصا ناجحة ، مقروءة . . جعلته موضوعا للحديث عند بعض القراء المثقفين .

والغريب أن سعاد لم تعرف عن محمود فى الماضى هذه الميول الفكرية والفنية . . وهى تعرف الآن لماذا لم تكتشف فيه هذه الجوانب . إنها كانت دائما تفكر فى « وضعه » ، ولم تكن تفكر أبدا فى « شخصه » . . لم يكن يهمها الميزات التى يحملها فى أفكاره أو فى نظرته الخاصة للحياة ، وإنما كانت تفكر فى الميزات التى يتميز بها وضعه فى المجتمع . . من ناحية أسرته . . من ناحية مستواه الاجتماعى . وهى لم تستطع أن تتصور زواجها منه وهو الشاب الفقير الذى نشأ فى حوارى السيدة زينب ، والذى كان لا يزال يعيش فى بيته القديم عندما تقدم إليها . .

فهل تنزل من الزمالك إلى السيدة زينب ؟ مستحيل . .

إنها عندما رفضت محمودا ، لم تفعل أكثر من الحرص على التقاليد الشائعة المنتشرة فى وسطها الاجتماعى . . . وهذا هو ما حدث تقريبا مع أحمد و « على » .

لقـد تقـدم إليهـا أحمد ، وكان من الممكن أن تتزوجه . . فمنذ اللحظة الأولى يبدو أحمد ظريفا ذكيا تبدو عليه ملامح التفوق . . ولكن . .

لقد تعرفت على أمه ، فوجدتها « بلدى » جدا . . . إنها لاتقرأ ولا تكتب ، وتتحدث بطريقة تخلو تماما من الرقة . . فهى فلاحة جاءت من الريف لتسكن مع ابنها بعد أن تخرج فى الجامعة .

فكيف يمكن أن تتـزوج أحمد وأمه بهذا المستوى الخشن ؟ . . . وماذا يمكن أن يقول الناس عنها عندما يعرفون أن هذه هى أم زوجها ؟ .

ولم تسمح لنفسها بالزواج من أحمد عندما واجهتها الكلمات التى ترددت كثيرا فى حياتها . . عيب . . ما يصحش . . . .

وتابعت أخباره بعد ذلك أيضا .

لقد أصبح مدرسا فى إحدى مدارس القاهرة . وتزوج فتاة زميلة له فى الكلية ، وهى تراهمـا أحيانـا بالمصـادفـة ، ويبـدو أنهما سعيدان متفاهمان . . ولكنها لا تتصور حتى الآن كيف وافقت زوجة أحمد على الـزواج منه رغم أمه الجاهلة المتخلفة . . ربما كانت أمها من نفس النوع أيضا .

أمـا الشخص الثالث فهو « على » ، وكان من الممكن أن تتزوج « عـلى » ، لولا أنه جاء إليها بقيود وشروط . لقد طلب منها أن يتعرف

عليها ويخرج معها فلابد ـ حسب رأيه ـ أن يكون هناك حب يسبق الزواج ويكون سببا لهذا الزواج وأساسا له . .

ولكنها رفضت هذا الشرط تماما ، فكيف يمكن أن تخرج معه ويظهرا أمام الناس وحدهما . . . ماذا يمكن أن يقول الناس عنهما إذا ذهبا إلى السينما وحدهما أو جلسا فى مكان عام ؟ . .

إنها لا تستطيع أبدا أن تقبل هذا الموقف . فربما لم تؤد التجربة إلى الزواج . . فماذا يمكن أن تكون النتيجة إلا المتاعب النفسية وكلام الناس والإشاعات . .

و . . عيب . . ما يصحش . .

ورفضت « على » أيضا .

وكان من السهل أن تتابع أخبار على لأنه زميل شقيقها . . لقد أصبح طبيبا ناجحا ، وسافر إلى أوروبا فى بعثة ، وتزوج فتاة أوروبية قال عنها : إنها تفهمه وتتجاوب معه . . .

وهكذا تسربت الحياة من بين يديها . .

وعادت إلى ذهنها هذه الذكريات بصورة متقطعة ولمحات سريعة وهى تجلس فى شرفة المنزل ، وحيدة تحتضن كتابا . . وتتأمل حياتها بعد أن بلغت هذا العمر . . الخامسة والثلاثين .

ليس فى حياتها حب تذكره فيستريح قلبها إليه ، ليس فى « دولابها رسـالة » ، رسالة واحدة كتبها شاب من الذين عرفتهم . . لأنها لم تسمح لأحدهم أن يحبها . . أو يعبر لها عن عواطفه ، ويكشف عن مشاعره الخاصة أمامها .

ليس فى حياتها قبلة واحدة ، ولا لمسة يد حانية . كل شىء فراغ إلا من التقاليد ، ومراعاة التقاليد . . والخوف من التقاليد . .

★ ★ ★

هذه قصة ليس للخيال دخل فى خطوطها العامة ولا فى التفاصيل ، إنها قصة حقيقية تكشف عن نوع خاص من الفتيات فى مجتمعنا . .

وهذا النوع من الفتيات هو مزيج من التردد والخوف وعدم الفهم للعصر الذى نعيش فيه وللمرحلة التى نمر بها . . لقد جعلت هذه الفتاة من نفسها حارسة على « التقاليد » التى سمعت بها والتقطتها من الجيل السابق . .

وركبت فى مركب « التقـاليد » ظنا منها أنها ستصل إلى شاطىء السعادة . . ولكنها وصلت إلى شاطىء «الفراغ الروحى » الكامل . . شاطىء الضياع والأسى والوحشة . .

والـذين كانت تخاف منهم فى المـاضى وتخشى لسـانهم . . هم أنفسهم الذين يطاردونها اليوم بكلماتهم القاسية . . إنها لم تتزوج . . إنها عانس .

ولم تستطع هذه الفتاة أن تفهم روح العصر كله ، فظنت أن وضع الإنسان فى المجتمع هو شىء مثل لون عينيه لا يتغير أبدا ، ولم تدرك أننا فى عصر يتحرك نحو هدف واحد هو : أن يصنع الإنسان نفسه بمواهبه وجهده الخاص .

الإنسان وحده ، هو الذى يحدد قيمة نفسه ، ونوع مستقبله . . وقد دخلت هذه الفتاة الجامعة ، وقرأت الكتب . . ولكنها كانت تفعل ذلك كما تشترى فستانا جديدا . . كانت حريصة على المظهر الخارجى ولم تحاول أن تغير عقلها أو قلبها أى شىء . .

★ ★ ★

فى مسرحية شيكسبير الشهيرة عطيل يقول « ياجو » لعطيل : إن زوجتك ديدمونة ترقص وتغنى وتتحدث مع الشبان . .

ويرد عطيل :

ـ هذه أشياء فاضلة بالنسبة للمرأة الفاضلة . .

وهذا المنطق سليم . . . فلا يوجد شىء فى المجتمع لا يصح أن تمارسه المرأة ما دامت فاضلة . . أن يكون لها أصدقاء من الشباب . . أن تخرج إلى المجتمع بحرية . . كل ذلك جميل . . بشرط أن تكون المرأة فاضلة . .

وهذا هو طريق السعادة . . طريق الوصول إلى تجربة ناجحة فى

الحياة . أما هذه الفتاة فلم يكن باستطاعتها أن تنجح ؛ لأنها أطفأت قلبها تماما . . ولم تسمح لنفسها أن تعرف الحب أبدا . . وسارت فى الدنيا بمصباح وهمى لا يضىء . . . هو مصباح التقاليد .

الزواج الكاذب

الكتاب الذى نقرؤه ، واللحن الذى ننصت إليه ، والرحلة التى نقوم بها ، والصديق الذى نحب أن نقضى معه ساعة نشكو له ونسمع منه . .

كل هذه الأشياء « حصــون » تقيمهـا النفس لكى تهرب إليهـا وتحتمى بها فى لحظة العذاب ، فلحظة العذاب هى عدو يطاردك ، يريد أن يحرمك من الحب والطعام والعمل والنوم ، بل إنه يريد أن يحرمك من الحياة نفسها ، وكلما كان الحصن الذى تلجأ إليه النفس قويا ، فإن الانسان يستطيع أن يتغلب على عذابه ويصمد له .

وربما كان من حكمة الطبيعة وعدلها أحيانا أن يكون أكثر الناس عذابا هم أكثر الناس عبقرية ، فالعذاب الذى تعرض له بيتهوفن - مثلا - كان بإمكانه أن يحتمله بفضل موهبته الكبيرة وعبقريته . . كانت

موسيقاه عزاء له عن آلامه ، فكانت هذه الآلام تتجمع فى قلبه ولكنها لا تدمره ، لأن ألحانه تقلم أظافر الألم ، وتكسر أنيابه ، وتحيله إلى « عروسة » وديعة يمكن احتمالها .

وبيتهوفن لم يتحرر وحده من آلامه ، بل إنه يحررنا أيضا من آلامنا ، ويساعدنا على أن نلتمس عنده العزاء والخلاص ، وهو نفسه كان يعرف ذلك ويقول : « أتمنى أن يتعزى البائس إذ يجد بائسا قد صنع بالرغم من سائر عقبات الطبيعة كل ما فى إمكانه كى يصبح إنسانا جديرا بهذا الاسم » .

ولكن هناك كثيرا من الناس يعيشون وجها لوجه مع « الألم » دون أن يكون لديهم سلاح لمحاربته . . ليست لديهم حكمة ولا عندهم إيمان كبير شامل بشىء ، وليست لديهم موهبة مثل موهبة بيتهوفن ، بل ليست لديهم حتى فرصة الاستماع إلى ألحان بيتهوفن .

ماذا يفعل هؤلاء الناس العاديون وكيف يواجهون آلام الحياة ؟ كيف يستطيعون على وجه الخصوص أن يواجهوا تجربة صعبة عسيرة ؟

تلك هى المشكلة التى يعالجها الكاتب الألمانى « ليونارد فرانك » فى قصته الغريبة المثيرة « كارل وآنا » [1] . ففى القصة ثلاثة أشخاص من هذا النوع العادى البسيط ، وقد ربطتهم مأساة واحدة هى الحرب العالمية الثانية .

---

(١) ترجمها الأستاذ منير بعلبكى تحت عنوان « رجلان وامرأة » .

أول هؤلاء الأشخـاص هو « ريتشارد » ، جندى ألمانى بسيط ، دخل الحرب دون أن يفهم معنى لها أو يفهم من ورائها أى هدف ، وليس له أدنى علاقة بالصراع الذى يدور بين هتلر وأعدائه ، ولا يهمه أن تنتصر ألمانيا أو أن تنتصر إنجلترا . وهو لا يهتم بشىء فى الدنيا غير زوجته « آنا » تلك التى تركها وراءه فى غرفتها المتواضعة ، حتى يعود إليها بعد أن تنتهى الحرب .

إنـه لا يعـرف حتى كيف « يصفـر » لحنا . ولم يقرأ رواية يتسلى بتذكرها فى لحظات فراغه فى الميدان ، وهو لا يعرف « معنى » التأمل فى السماء أو فى الرمل أو فى المساء ، إن حياته متركزة على شىء واحد هو حبيبته وزوجته « آنا » . والحرب بالنسبة له ليس لها إلا معنى واحد هو مأساة افتراقه عن حبيبته ، ولذلك فهو يحلم بانتهاء الحرب حتى يعود إليها ، وكلما فرغ إلى نفسه قليلا أخذ يتذكر كل شىء عنها . . لون عينيهـا الأسود الجميل ، ولون شعرها القصير الأصفر الحلو ، ولـون بشرتها البيضاء الساحرة . . وهو يتذكر أيضا عاداتها : كيف كانت تتكلم ، وكيف كانت تنام ، وكيف تحمل الشوكة والسكين ، وكيف تقدم له الطعام ، كما يتذكر شكل ستائر الغرفة التى كانت تختارها .

« كنت أضـطجـع دائما على الجزء الداخلى من السرير فى محاذاة الجـدار ، وكـانت هى تضطجع على الجزء الخارجى ، وحين كانت تنهض من الفراش فى الصباح لم أكن أسمع لها حسا على الإطلاق . كانت دائما ساكنة جدا . ساكنة إلى أبعد حدود السكينة » .

هذا مثال من خواطره . إنه منذ أربع سنوات يكرر هذه الخواطر نفسها ، ويشعر أنها هى عزاؤه الوحيد فى هذا العالم . وهذه الذكريات هى الشىء الـذى يخفف من حرمانه ، ويمنحه نوعا من الدفء فى تلك الحياة المريرة الخالية من أى حنان أو عاطفة . . ليس فيها إلا أزيز الطائرات ، وانفجار القنابل ، وصوت المدافع ، وآهات القتلى الذين يموتون بنفس السهولة التى يموت بها الجراد . وبالرغم من هذا كله فهو يشعر شعورا خفيا بأنه لن يموت ، فهناك شخص « ينتظر عودته » و« يفكر فيه » ، وكأن هذا وحده يكفى لكى يحميه من الموت الذى ينفجر كل لحظة تحت قدميه .

و« ريتشارد » لا يعيش هذه الذكريات بينه وبين نفسه ، بل كان يرويها ويكررها كل يوم لزميل له فى الكتيبة هو « كارل » .

و« كارل » هو الآخــر جنـدى بسيط عادى ، لا يفهم عن هذه الحرب التى يشترك فيها شيئا ، ولايعرف لها أى سبب ، وهو يعانى نفس الحرمان المرير الذى يعانيه زميله ، « ريتشارد » مع فارق واحد يزيده تعـاسـة وحـزنا ، فهو غير متزوج ، بل إنه لم يعرف الحب فى حياتـه ، وقبل أن يدخل المعركة كانت حياته فارغة شقية ، وهو فى ميدان الحرب يعلم أنه لا يوجد فى هذا العالم من يهتم به ، ليس هناك من يسأل عنه أو يفكر فيه . . فهو محروم . . محروم حتى عظامه !!

ولذلك فهو يستمع إلى زميله « ريتشارد » عندما يروى ذكرياته عن « آنـا » حتى لقـد أصبحت « آنـا » بالنسبة له « إنسانة » قريبة من

قلبـه ، وبالرغم من أنه لم يرها أبدا ، فقد أصبح يعرفها جيدا . . يعـرف شكلهـا وعـاداتها وطريقة حديثها ، يعرف كيف تأكل وماذا تأكل . . يعرف كل تفاصيل حياتها بدقة كأنه عاش معها طويلا وعاشرها .

كان ينصت بكل قلبه إلى « ريتشارد » وهو يتحدث عن زوجته طيلة أربع سنوات ، وقلبه فارغ جدا ، وليس فيه صورة لإنسان آخر ، وهو محروم من النـاس حرمـانـا كاملا ، وشخصية « آنا » أصبحت هى الشخصية الـوحيدة التى تمنحـه الحنان على البعد ، وأصبحت تملأ أحلام يقظته ونومه ، إنها الوحيدة فى هذا العالم التى أصبح يعرفها ويحس نحوها بعاطفة عميقة .

وفى هذه الظروف يترك « كارل » ـ صديق الزوج ـ ميدان القتال ويذهب إلى حجرة « آنا » التى يعرف عنوانها بوضوح ودقة .

كانت « آنـا » تعيش فى غرفتهـا بالمـدينة وحيدة حزينة منذ أربع سنوات ، قلبها فارغ تماما ، وانتظارها لزوجها طويل وأليم ، ثم إن « آنا » لم تر زوجها منذ أربع سنوات . . وأخيرا ، وهذا هو الطريق الأساسى إلى قلبها ، فإن « كارل » يعرف كل شىء عنها . . يعرفه معرفة تفصيلية دقيقة وسيعاملها على أساس هذه المعرفة .

ودخـل كارل غرفة « آنا » . . وقال لها : ألا تعرفيننى ؟ . . أنا ريتشارد . . أنا زوجك ، ولم تصدقه « آنا » بالطبع ، ولكنها فوجئت

به يدخل حياتها فى أشد لحظات الحرمان والضيق ، ولم يدع لها فرصه لمناقشته ، فظل يلاحقها بملاحظاته وأسئلته التى استمدها من الأحاديث الطويلة الكثيرة لزوجها الحقيقى !

« ماذا حل بالشوكة القديمة التى كانت كل سن من أسنانها الثلاثة أصغر من الأخرى » .

« إن ستائر النوافذ جديدة ، لقد كانت تلك التى اشتريناها معا صفراء . لقد قال البائع إنها صفقة رابحة . . هل تذكرين ؟ » .

« وأقساط ثمن الأثاث ماذا تخبريننى عنها ، يا آنا ؟ » .

ملاحظات متعددة كثيرة من هذا النوع ظل « كارل » يطارد بها « آنا » . وكانت قلاع نفسها تنهار لحظة بعد لحظة ، فهى محرومة جدا ، قضت أربع سنوات لا تعرف غير العمل ، والوحدة والانتظار واليأس . . جعلت الحرب حياتها جافة قاسية ، أصبحت حياتها مثل حياة الآلاف والملايين : بلا طعم ولا معنى . . كانت تحاول أن تعيش من عمل لها بأحد المصانع ، وكان العمل يكاد يطعمها بصعوبة . . كانت حياتها شاقة من الناحية المادية ، والناحية المعنوية على السواء ، ثم وصلها ذات يوم خبر أن زوجها ريتشارد قد « فقد » ، وهذا الخبر غير صحيح ، فإن ريتشارد كان قد وقع فى الأسر فقط !

وفى هذا الجو من الأزمة النفسية والحرمان العنيف الذى كانت تعيش فيه « آنا » كان « كارل » زميل زوجها يدبر محاولة عجيبة ، لقد

قرر الفرار من المعسكر والذهاب إلى « آنا » التى يعرفها ويحبها دون أن يراها ؛ فقد أصبحت حياته فى المعسكر آلية لا تطاق ، وأصبح يشعر بحنين عنيف إلى أن يتخلص من حرمانه القاسى بالهرب والذهاب إلى « آنا » الحبيبة البعيدة .

وفى أول فرصة هرب بالفعل من المعسكر . واتجه إلى المدينة التى تقيم فيها « آنا » حيث يعرف بيتها ويعرف الحجرة التى تعيش فيها . . أما « آنا » فقد كان يعرف شكلها معرفة دقيقة « بحيث لو قدر له أن ينظر إليها فى شارع من الشوارع المزدحمة نظرة عابرة ، ومن بعيد . . لعرفها فى الحال » .

وبعد ثلاثة أشهر من فراره من المعسكر استطاع أن يصل إلى غرفة آنـا . . لقد قرر أن يقولها لها « إنه زوجها . . إنه ريتشارد » . . إن الفرق فى الملامح ليس خلافا أساسيا ، وكانت آنا تعيش فى وحدتها التى استمرت سنوات فأيقظ كارل فيها بعواطفه وملاحظاته الكثيرة كل شوقها إلى مزيد من الحياة . .

ويوما بعد يوم أخذت تتقبل الأمر رغم يقينها أنه يكذب . . إنها تعرف كذبه ، ولكنها فى حاجة إليه ، إلى حبه « وكان حبه لها متقدا ، ولكنه كان فى الوقت نفسه رقيقا رءوما مثل حب الأم ، ففى البيت ، وفى الشارع ، وفى المصنع ، وفى الطريق ذهابا وإيابا لم يكن يرى غير آنا ، كانت حياته هى آنا » .

وحـدث بعد ذلك شىء هام . . لقد أحبته . . لقد تأكدت أنه

ليس زوجها القديم . . ولكنها مع ذلك بدأت تسلم له بكل شيء ، كما لو كان هو زوجها فعلا . ويبحث عن عمل فى أحد المصانع وعثر على العمل ، واستغنت هى عن العمل بعد ذلك ، واكتفت بعمله هو ، وأصبح الجيران ينادون كارل على أنه ريتشارد ، وهى مستسلمة لا تعارض ، يملؤها إحساس عميق بالسعادة التى حرمت منها طويلا ، ولا يخيفها إلا احتمال واحد : هو أن يعود ريتشارد الحقيقى فجأة إلى البيت ، وكارل أصبح سعيدا هو نفسه . لقد انتزع سعادته بالكذب والوهم . ومن شدة حرمانه تحول الوهم إلى حقيقة واقعة . وكان الاحتمال الوحيد الذى يخيفه أيضا هو عودة ريتشارد . إن هذا الاحتمال يعنى بالنسبة له أشياء عديدة من بينها القتل .

وقد وقع ما كان يخافان منه . فتم تسيلم الأسرى وانتهت الحرب ، وعاد ريتشارد ، وأخذ طريقه إلى غرفته ، إلى زوجته الحبيبة القديمة « آنا » ، ورأسه ملىء بالأحلام السعيدة . . فهناك سوف يرتمى على صدر حبيبته ، وسوف يحلق لحيته الطويلة ، ويغسل وجهه الملىء بالغبار ، وسيعمل حتى يغير ملابسه الممزقة . . أى سيعود إلى الحياة إنسانا جديدا بسيطا ، يطرح عن كتفيه أعباء السنوات الأربع الماضية . . إن « آنا » هى كل أمله الباقى فى الحياة .

وعاد الزوج الحقيقى . . واكتشف المأساة كلها ، عرف أن زوجته تعيش الآن فى زواج كاذب ، ولكنها مع ذلك تتمسك به ، وانهار « ريتشارد » تماما ، وامتلأت عيناه بالعذاب ، واعتصر الألم قلبه ،

وعرف الآن أن مكانه فى العالم قد ضاع ، إنه لا يستطيع أن يغسل وجهه أو يستريح من عناء السفر وانهد ريتشارد على كرسى قديم وجلس يحدق فى الفضاء بعينين فاض بهما الهم . . أما كارل زميله الجندى القديم وآنا فقد قررا أن يرحلا إلى بعيد . . ويتركاه فى غرفته وحيدا حزينا ، وماذا تفيد الغرفة بعد أن خرجت منها آنا الحبيبة ؟ .

سار كارل وآنـا ، والأولاد الصغـار يرمـونهما بكـرات الثلج ، واللعنات تنصب عليهما من الجيران الذين اكتشفوا الحقيقة .

هذه هى سيمفونية العذاب التى قرأتها مع الأنباء التى جاءت من أطراف الكرة الأرضية تقول : هنا شرارة حرب . . وهناك شرارة أخرى .

ولماذا تقوم الحرب ؟ . . لكى تتعذب « آنا » كل هذا العذاب ويحترق ريتشارد فى نيران لا يعرف من أين تأتى ولا أين يذهب من لهيبها المخيف ، ولكى يعيش كارل فى وهم كاذب ويتصور من شدة حرمانه أنه حقيقة .

وتصبح الحياة بالنسبة لأمثالهم من الناس العاديين الذين لا حيلة لهم : ضيقة ، قاسية ، لا تعرف الرحمة ، وليس فيها أبدا طريق للنجاة .

ويقول المؤرخون بعد ذلك فى بساطة : هذه جريمة حرب !

العاشقة

من أين تأتى شرارة الحب الملتهبة الجميلة ؟

هل تنطلق من النجاح فى الحياة العملية ؟ أم أن مصدرها هو الوجه الـوسيم والمـظهـر الأنيق ؟ أم أنها تنطلق من حلاوة الحديث وذكاء السلوك ؟

ما هى بالضبط « الصفة » التى تحس المرأة أمامها أن قلبها يتحرك وتنفتح أبوابه ونوافذه ويحتضن الشخص الآخر . . وبعدها تقول عيون المرأة وتصرفاتها . . ويقول وجهها إنها تحب . .

ما هذه الصفة الساحرة ؟

من المؤكد أنه ليس هناك صفة محددة يمكن أن تكون سببا ثابتا ونهائيا للحب ، فلكـل عصر مثله الأعلى الخاص به للرجل وللمرأة معـا ، ولكن . . هنـاك دائما قاعدة رئيسية تدور حولها عاطفة

الحب ، وقد تتغير التفاصيل والجزئيات ولكن تظل هذه القاعدة العامة هى الأساس .

هذه القاعدة العامة هى التى يكتشفها ويحدثنا عنها الفنان الرقيق الحزين « إيفان تورجنيف » فى إحدى قصصه الجميلة الرائعة ، وهى قصة « ذات مساء » .

وبطلة القصة هى « ليزا » إنها فتاة مثقفة جميلة ، كل شىء فى حياتها قد نضج . . أنوثتها وعقلها وإحساسها الذكى الجميل بالحياة . . ولكنها تنتظر شيئا واحدا . . وهو سبب الحيرة والقلق فى حياتها . . إنها تنتظر الفارس الذى يملأ حياتها ، ويقول لها ، وهى الوردة الجميلة فى حديقة الحياة : « أنت جميلة . . إننى أحبك » . .

فمن هو الرجل الذى يمكن أن تحبه هذه الفتاة الناضجة ؟ من هو صاحب اليد الحانية التى يمكن لقلب هذه الفتاة أن يستقر معها كما يستقر عصفور جميل على غصن أخضر ؟

ويبدأ الرجال يظهرون فى حياة « ليزا » ويحاولون أن يكسبوا قلبها . وكان أول الرجال فنانا يصنع التماثيل ، وهو شاب وسيم ظريف ، ولكنه « مهووس » وطائش ، إنه يقفز أمامها ويغنى ويهدد بالانتحار إذا لم تتجاوب معه ثم يقرر فى اللحظة الحاسمة أن يؤجل الانتحار . . وهو لا يخفى فى قلبه شيئا . . كل شىء يحس به يظهر على لسانه . . ويتحدث وهو يصنع تمثالا لحبيبته ، ويجرى فى كل مكان ليعلن عن

حبه ، وهو أيضا لا يهتم بأحد . . ولكنه مشغول تماما بعمله الفنى وبحبه . .

وتحس من هذه الشخصية أنها لا تتميز بالاستقرار النفسى ، ولا تعرف لها هدفا محددا كما أنها لا تبصر أبعد مما حولها . . إن هذا الفنان الطائش يريد أن يلمع وينجح ، وهو يريد أيضا أن ينتصر فى الحب ليقول للناس إنه يحب فتاة جميلة وإنها تحبه ثم يتحدث الناس عنه أنه صاحب التماثيل وزوج الحسناء . وأحست « ليزا » بقلبها يخفق لهذا الفنان ، ولكن درجة النبض ليست هى أبدا درجة الحب . ربما كانت إعجابا بمهارة هذا الفنان الشاب ، وربما كانت استمتاعا بسذاجته وشخصيته الطائشة الظريفة المسلية ، وربما كان هذا الإحساس نوعا من راحة المرأة عندما تحس أن رجلا يحبها ، حتى ولو لم تبادله هذا الحب . ولكن هذا الفنان ليس أبدا هو الفارس المنشود ، ليس الرجل الساحر ، ليس الأمل الذى يهز حياتها ويفتح أبواب قلبها بعمق وحرارة .

ثم جاء الرجل الثانى . .

إنـه فى قمة شبابه أو فى بداية شيخوخته . . إنه فى الأربعين . . رجل هادىء وديع وعميق الثقافة واسع المعرفة . . وكما أثار « الفنان » فيها حاستها الفنية ، ولمس عندها « حبها للجمال » ، فقد لمس الرجل الثانى فى نفسها « حبها للمعرفة » . . إنها تريد أن تعرف . . تريد أن

تتعلم . وهى بحاجة إلى من يقودها إلى هذا العالم الواسع ، عالم المعرفة .

وقد وجدت فى الرجل الثانى هذه الصفات كلها ، إنه يختار لها الكتب التى تقرؤها ويشرح لها المشكلات الفلسفية الصعبة ، ويفسر لها العالم تفسيرا دقيقا مليئا بالعمق .

وقد أحست من تصرفاته أنه يحبها . . ثم . . اعترف لها هو بهذا الحب . . وخفق قلبها أيضا .

ومرة أخرى لم تكن درجة النبض هى درجة الحب ، بل كانت « إعجابا » واعترافا بالجميل . . إن هذا الفيلسوف الهادىء لا يدخل إلى حياتها من باب العاطفة أبدا بل من باب العقل . إنه بارد كأنه ثلاجة لا تحس معه بدفء الشمس ، بل تحس ببرودة ضوء الكهرباء . . وهى لم تمش فى حياتها هذا المشوار الطويل فى البحث عن عاطفة صادقة لكى تضع قلبها آخر الأمر فى ثلاجة باردة هى فلسفة هذا الرجل وأفكاره وثقافته . وهكذا لم ينفتح قلبها أمام الفنان الطائش ذلك الكائن الزئبقى المندفع المذعور كأنه أرنب صغير ، ولم ينفتح قلبها للفيلسوف الهادىء العميق ذلك الذى يحملها إلى عالم جميل ولكنه بارد كالثلج . .

وظلت حائرة يبحث قلبها عن عش ، واستولت الحيرة على حياتها ، وأصبح الظمأ إلى الحب عندها شديدا عنيفا ، يملأ يقظتها بالشرود ويملأ أحلامها بالفزع والإحساس العميق بالوحدة والكآبة .

وذات يوم تعرفت عليه . .

إنه شاب يبدو على وجهه الذكاء والحزن والعذاب ، وهو مريض نحيف ، ولكن عينيه تشعان بإصرار غريب وجاذبية كبيرة تلفت النظر إليه . . وكذلك تبدو عليه مظاهر البؤس والشقاء ، ولكن هذه المظاهر لم تجعل وجهه الشاحب يفقد روعة الكبرياء والاعتزاز الصامت بالنفس . وكانت كلماته قليلة متناثرة . . ولكنها قوية . . حاسمة . .

وخفق قلب ليزا . . وكانت درجة النبض فى هذه المرة مرتفعة جدا . . ولم تنم ليزا ليلتها . . أخذت تفكر فى « انساروف » صاحب هذا الوجه الشاحب والكلمات القليلة الحاسمة والكبرياء التى تختلط بالحزن والأسى . . لقد أحبت . . وبدأت حرارة الحب تتسلل إلى عروقها ، ويوما بعد يوم كانت حرارة الحب ترتفع وتزداد حتى ملأت حياتها وأصبح كل شىء فيها ملكا لهذا الحب الكبير .

ولكن من هذا الشاب ؟ .

إنه ثائر من بولندا يتعلم فى روسيا ، وهو ثائر على روسيا التى كانت ـ أثناء كتابة القصة ـ تستعمر بولندا .

وذات مساء اتفق الحبيبان على أن يلتقيا ، وكانت السماء تمطر مطرا شديدا ، وكان مكان اللقاء هو أحد الشوارع الخالية .

وتحت المطر الشديد وفى الشارع الخالى ، والناس كلهم يختبئون من العاصفة المطرة فى بيوتهم ، ارتمت ليزا على صدر حبيبها وقالت له وهى تلهث وتبكى : أنت حبيبى . . أنت زوجى أمام الله والناس . .

وقال لها انساروف : ياحبيبتى . . أنا فقير جدا ولا أملك شيئا . صحتى منهارة ، فأنا مريض ومستقبلى مهدد ؛ لأننى مصمم على أن أعود إلى بلدى لأشترك فى الثورة على بلدك . فماذا يمكننى أن أقدم إليك ؟ إننى لن أتنازل أبدا عن واجبى فى الثورة ، ولن أتردد فى أن ألقى بنفسى فى نار المعركة الحاسمة من أجل حرية بلدى . . .

ولم تدعه ليزا يكمل كلامه .

لقد احتضنته بحرارة وأسكتته بشفتيها ثم قالت له :

- ياحبيبى لاتقل شيئا ، أنا معك إلى الأبد ، وسأترك أسرتى ووطنى وأصطحبك إلى أى مكان فى العالم ، أنت حبى وأنت وطنى وأسرتى ..

واتفقا على أن يسافرا معا ، وتركت ليزا أسرتها وبلادها ، مع معارضة أهلها وأصدقائها . . ولكنها لم تعبأ بشىء . . لقد اختارت حبها واندفعت إلى المصير المجهول مع حبيبها الثائر . . المريض الفقير . .

وذهبت معه إلى بلاده . .

وهناك مات حبيبها بالسل ، ولكنها لم تعد . . بل كتبت رسالة إلى أهلها تقول إنها لن تعود ، وإنها ستواصل عمل حبيبها فهذه هى الطريقة الوحيدة لكى تعيش معه رغم موته .

هكذا يعطينا تورجنيف صورة للقوة الأساسية التى خلقت الحب الحقيقى فى قلب تلك الفتاة . إنها قوة تعتمد على صفتين هما : الحيوية والصدق : فقد كان انساروف شخصية ملتهبة قوية تعيش فى وسط المخاوف كأنها تعيش فى حديقة آمنة .

وكان صاحب هدف عميق محدد . . وهو هدف مثير : حرية وطن واستقلال شعب . ولقد تحول هذا الهدف الكبير عند « انساروف » إلى « مبدأ صوفى » . مبدأ يجعله غنيا عن العالم ، فهو فقير . . ومع ذلك يتصرف بكبرياء كأنه أغنى أغنياء العالم ، وهو مريض . . ولكنه يخطو فى الحياة خطوات الأصحاء ، ويشعر أن الدم الباقى فى عروقه هو دم ثمين لأنه يستغل كل قطرة منه فى سبيل هدفه الكبير .

وهكذا وجدت تلك الفتاة حبها ، فالفنان المهووس الطائش . . قادها إلى حب الفن ، والفيلسوف الثلجى البارد قادها إلى حب المعرفة ، أما الثائر فقد قادها إلى حب الحياة بما فيها من عذاب وسعادة وابتسامات ودموع ، بأوراقها الخضراء المليئة بالندى ، وأوراقها الصفراء التى يتكاثر عليها الغبار . .

ومن هنا تحولت الفتاة إلى « عاشقة » ووجدت فى قلب حبيبها : الوطن والأمل والسعادة . . لقد عرفت شرارة الحب من الحيوية والصدق .

الهاربون من الحياة

هذا الـــوجـــه الصـامت الكئيب ، تلقـاه فى الشـارع . . أو فى المقهى . . أو فى مكان العمل .

انتبه إليه جيدا .

إن صمته الخارجى يدل على أن الكلام الذى بداخله كثير ، وأنه كلام صعب لا يقال .

إن صمته إنذار وقرار .

إنذار للحياة بأن صاحب هذا الوجه الصامت الكئيب سوف يرد عليها بتصرف فيه رفض وفيه احتجاج . .

وقرار من صاحب هذا الوجه بالخروج من الصراع والتردد . . إلى حل يعطيه السلام وطمأنية النفس .

إلى كأس من الخمر . . لا تفرغ . . إلى طلقة رصاص واحدة يضربها بيده اليمنى فى رأسه . . إلى عزلة فى حجرة تقطعت كل الخيوط بينها وبين الحياة : فلا زوجة . . ولاصديق . . ولا ألم . . ولا أمل . .

إنه قرار بالفرار والهروب . .

ولكن : لماذا نهرب من الحياة بالنسيان عن طريق السكر ، أو بالانتحار ، أو بالعزلة . . . وأحيانا بالخروج من الحياة العادية إلى استراحة رمادية ، اسمها مستشفى المجانين ؟

لقد شغلت هذه المشكلة كل المفكرين فى العالم .

الكاتب الروسى الكبير « أنطون تشيكوف » يقدم لنا فى إحدى « قصصه » صورة لهذه المشكلة تتمثل فى شخصية ممثلة . بدأت هذه الممثلة حياتها بتفاؤل وإشراق ، وكانت من أسرة ميسورة الحال ، مات أبوها وترك لها ثروة . . واختار صديقه الأستاذ الجامعى وصيا على الفتاة .

أحبت الفتاة المسرح ، وقررت أن تصبح ممثلة ، والتحقت فعلا بإحدى الفرق المسرحية . . وكانت هذه الفرقة تسافر وتتنقل بين بلاد مختلفة .

وكانت الفتاة - واسمها كاتيا - تكتب لوصيها رسائل تفيض « بالشباب والصفاء الروحى ، والبراءة السامية » . . كانت تصف

الطبيعة بعشق . . وتتحدث عن المسرح بحرارة وحماس . . أما المستقبل فكان فى نظرها مليئا بالزهور .

كان للحياة فى شعورها طعم . . طعم جميل . .

وبعد شهور كتبت لوصيها تقول : « لقد وقعت فى الحب » .

وإزداد إحساسها بنشوة الحياة . . ازدادت تعلقا بالمسرح وإيمانا بالمستقبل . . أما الطبيعة فقد أصبحت فى نظرها أكثر جمالا وروعة .

ومر عامان . .

ثم بدأت تكتب لوصيها رسائل تفيض بالملل والشكوى ، فرفاقها فى المسرح « عصابة من المتنفعين الذين لا نصيب لهم من علو النفس . . إنهم قطيع من المتوحشين الذين لم ينضموا إلى المسرح إلا لعجزهم عن الاشتغال بأى عمل آخر ، ولم يسموا أنفسهم ممثلين إلا من قبيل التبجج ، ولا يوجد بينهم شخص واحد موهوب . ولكنهم خليط من التافهين والدساسين والسكارى والنمامين » .

وبعد فترة أخرى كتبت إلى وصيها تقول : « لقد خاب ظنى أقسى خيبة . . ولن أحتمل الاستمرار فى الحياة ، فأصنع بهالى ما تراه » .

وعرف وصيها بعد ذلك أن حبيبها قد هجرها ، وأنها قد حملت وولدت طفلا من حبيبها الغادر ، ولكن الطفل مات ، أما هى فقد حاولت الانتحار وتم إنقاذها فى آخر لحظة .

وعـادت إلى بلدتهـا ، حيث يعيش الـوصى عليهـا ، أستـاذ الجـامعـة . . أصبحت قليلة الكـلام . . كثيرة الصمت . . كانت تتذوق الطبيعة فأصبحت الطبيعة بالنسبة لها كأنها كتاب فى يد أمى لا معنى لكلماته وحروفه . . كان قلبها مليئا بالأحلام فصارت تعيش بلا أحـلام . كانت كلماتهـا متحمسة مليئة بالنشوة . . فصارت كلمات صفراء تهبط من لسانها فى صمت كأوراق الخريف . أما الناس فلم يعد لهم معنى . . ولم تعد تحس بهم إذا جاءوا إليها أو ابتعدوا عنها . . أما الفن - الموسيقى أو الرسم أو القراءة - فلم يعد فيه لذة ولا متعة . . لقد فقدت شهيتها المعنوية وأصبحت نفسها مشلولة عاجزة .

واستمرت هكذا لفترة من الوقت ، لاعمل لها إلا أن تعيش من ثروة أبيها الباقية . . وأن تزور الوصى عليها بين الحين والحين .

وفجأة تحرك فى نفسها ألم فظيع . لقد هاجمها سؤال واحد هو : ماذا ينبغى أن أفعل ؟

إن الحياة أصبحت بالنسبـة لها صعبـة ، وهى « لا تستـطيع الاستمرار على هذا النحو . . إن ذلك فوق طاقتها ، وبدأت تشعر أنها لا تستطيع المضى فى هذه الحياة » .

لقد فقدت « الهدف » من الحياة ، وتلك هى المأساة .

ما الذى يمكن أن تفعله ؟ لقد عصرت براءتها وصدقها وحماسها للحياة فى عاطفة حب نحو رجل وقدمتها إليه . . فتركها وهى حامل

منه . . كذب عليها . . ووضع زهرة حبها الجميلة تحت أقدام احتياله ووضاعته .

وكانت تظن أن الفن أخلاق . . فأحبت المسرح كفن . . وأحبته أيضا لأنه مهنة حبيبها الفنان . . وبعد ذلك اكتشفت الزيف الذى يغطى هذه المهنة الجميلة ، والكذب العميق الذى غرق فيه حبيبها حتى أذنيه ؟

أصبحت الحياة بلا هدف . . وقد حاولت أن تعتزل وتهدأ بعيدا عن العالم ، ولكن السؤال عن « هدف الحياة » حطم زجاج وحدتها واقتحم عليها البيت .

وقررت أن تسافر بعيدا . . لعلها تجد جوابا للسؤال الملىء بالعذاب .

ويتركنا الكاتب هنا . إنه لا يقول لنا أكثر من أنها راحلة إلى بعيد . . ولنا أن نتصور بعد ذلك أى شىء . . أن تنتحر . . أن تعود إلى عزلة أكثر قسوة من عزلتها الأولى . . أن تصاب بالجنون .

المهم . . . لقد هربت من الحياة .

وفى هذه القصة نلمح تأثير الظروف الاجتماعية على نفسية الإنسان ، فلو لم يكن مجتمع الفتاة مليئا بالكذب والاحتيال . . لما فقدت إحساسها « بهدف الحياة » ، ولاستمرت تحب الحياة وتتحمس لها . ويجب ألا ننظر إلى هذه القصة على أنها قصة حب فاشل . .

فعشرات الفتيات يفشلن فى الحب . . ولكنهن لا يقعن فى كل هذه التعاسة الدائمة . . أما مشكلة الممثلة فهى هنا - فى جوهرها - أن الفتاة اكتشفت خلال تجربتها أن الحياة خالية من المعنى . . خالية من الهدف .

على أن العذاب الذى يشعر به الإنسان عندما يفقد الشعور بهدف فى الحياة ليس مصدره فقط الظروف الاجتماعية .

فقد تكون رغبتنا فى الهروب من الحياة نتيجة « لعجزنا الشخصى » عن العثور على هدف ما لهذه الحياة .

وقد نعجز عن الوصول إلى هذا الهدف بعد تفكير عميق وتأمل واسع فى الأشياء .

ويروى لنا الأديب العالمى مكسيم جوركى قصة من هذا الطراز ، إنها قصة المتشرد « كانوفالوف » الذى كان يعمل خبازا ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب . ولكنه كان يتأثر جدا بما يسمعه من روايات وأحداث .

لقد انتحر هذا الشخص !

كان يقول : « إننى لا أجد فى داخلى شيئا أتشبث به . . لقد ظللت أبحث عن هذا الشىء وأتوق إليه ، ولكننى لم أستطع أن أعثر عليه » .

ثم يقول عن نفسه : أنا الملوم .

وكان لهذا الرجل - رغم بساطته وتشرده - ملاحظات غريبة على الحياة والناس ، فهو يقول مثلا : « إننا دائما نشكو من الغير ، ولكننا بشر مثلهم ، فكأننا أيضا عرضة ن يشكو منا الغير ، وإذا كان هناك من يعترض طريقنا ، فلابد أننا أيضا نعترض طريق غيرنا » .

ويقـول . . « إن النـاس ينشئـون المـدن ويشيدون البيوت ، ويحتشـدون فى جماعـات ، ويفسـدون الأرض ، ويختنقون ، ويقف بعضهم فى طريق بعض . . لماذا نعيش فى جماعات كبيرة إذا كان من العسير على شخصين أو ثلاثة أن يعيشوا معا فى وئام » .

هذا نوع من تأملات هذا المتشرد الغريب ، وهى تأملات مليئة بالحكمة والتجربة . ولقد وصل إلى هذه النتائج الفلسفية عن طريق التفكير الشخصى والتجربة الخاصة لا عن طريق القراءة .

يقول جوركى عن هذا الرجل : « إن سوء الحظ قد قضى على هذا الجسد القوى أن يولد وبين جوانحه قلب رقيق . . ومن هنا فقد ظل هذا الكيان أمام غزوات الحيرة ، وسموم التخبط فى شئون الحياة » .

أما هو فكان يقول عن نفسه أشياء غريبة :

« لماذا جئت إلى هذه الدنيا القائمة المزدحمة ؟ ولماذا قدر لأمى أن تنجبنى فى هذه الحياة ؟ !» .

« إننى لا أمنح أحدا غير الأسى ، ولو أنك تأملت حياتى جيدا لتساءلت معى : من الذى أسعدته يوما ؟ . . إننى لم أسعد أحدا رغم

أننى عرفت أناسا كثيرين فى حياتى . . إن فى كيانى شيئا فاسدا » .
« من الذى يحتاج إلى ؟ لا زوجة هناك ، ولا أولاد ، ولا مكان أستطيع أن أقول إنه دارى . . بل إننى لا أملك مجرد الشوق إلى شىء من ذلك . . وإنما أواصل العيش فى شقاء ، دون أن يدرى أحد أى مبرر لحياتى .

« ليس فى داخلى شىء أتشبث به » .

وقد ظل البحث عن هذا الشىء ، الذى هو هدف الحياة ، ينخر فى عظام هذا الرجل حتى قضى عليه . . وانتحر !

كان يتمنى أن يكـون قادرا على إسعـاد أحد . على أن يحس فى داخله شوقا لإنسان ما . كان يتمنى من أعماقه أن يفعل شيئا يجعل انسانا فى هذه الدنيا يحتاج اليه .

لو وجد شيئا من هذه الأهداف فى حياته لاستراح :

ولكنه لم يجد . فاندفع وراء الخمر ، وكان يقول عنها . . إنها تجرف الهمـوم . وتـرك الاستقرار إلى الحركة والرحلة الدائمة . . لعله يجد أشياء جديدة . . وجوها جديدة . . تجارب جديدة .

ولكنه لم يجد الحل . . فانتحر .

إن السكر لا يعطيه سوى وهم مؤقت ، ولا يمكن أن يكون مبدأ من مبادىء الحياة ، والرحلة الدائمة لم تقتل شعوره بالضياع والحزن . .

انه لا يجد شيئا يرشده إلى الصواب .. إلى الحقيقة ..

وهـو فى غاية الإنصـاف للنـاس ؛ وهـو لذلك لم يتهمهم بصنع مشكلته .. فالمشكلة العسيرة التى يعانيها ليست هى : الناس .. وإنما هى نفسه الخاوية من الداخل !

إن عدم العثـور على هدف فى الحياة هو سبب الهـروب منها .. والذين يحددون هدفا معينا فى الحياة ثم يكتشفون أنه زائف لا يختلفون عن الذين لا يجدون هدفا من الأساس ..

وقد يبدو العثور على الهدف مسألة ميسورة .. ولكنها فى الحقيقة أصعب مشاكلنا فى هذه الدنيا !.

إن الثروة أو البيت الأنيق أو الزوجة الجميلة .. كل ذلك قد يكون من أتعس مظاهر الحياة ، إذا لم نجد هدفا نؤمن به ، ويضىء طريقنا ونفوسنا باستمرار .

وأصعب الأشياء فى الحياة يمكن احتمالها إذا كان هناك هدف .. فالفقر والإجهاد والضنى .. كل هذه الأشياء لن تمنع الابتسامة عن وجه إنسان له هدف ..

وأجمل الأهداف فى حياتنا ما كان مبنيا على الفهم والعدل .

فالذين يتراءى لهم أن هدفهم فى الحياة هو أن ينجحوا بأى ثمن ، حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين .. هؤلاء ينصبون مصيدة عنيفة لأنفسهم سوف يقعون فيها حتما ..

إنه هدف خاطىء مبنى على الظلم .

ومثلهم هؤلاء الذين يضعون على أكتافهم أقسى الأعباء فى بداية العمر ، ويظنون أنهم سوف يغيرون الحياة بلمسة واحدة . . ثم يكتشفون شيئا فشيئا أن الحياة لا تعطيهم فرصة لتحقيق هذا الهدف الضخم الذى تصوروه .

وفى سن الثلاثين ، فى عز الشباب ، يصبح الواحد منهم منهارا يائسا كأنه فى الثمانين من عمر ملىء بالفشل !! .

إنه هدف مبنى على الطموح الخاطىء . . وعدم الفهم . . وهذا هو الخطأ الأصلى وجرثومة العذاب والشقاء .

لابد أن يكون للإنسان هدف واضح وجميل . . .
ولابد أن يكون للمجتمع أيضا هدف واضح وجميل . . .

وبدون هدف يسعى إليه الإنسان ويسعى إليه المجتمع . . . بدون هذا الهدف تتحول الحياة إلى جحيم .

صــور وخواطــر

١ ـ امرأة وحيدة

كانت الساعة العاشرة مساء أحد الأيام .

كنت أسير وحدى فى أحد الشوارع ، وفجأة لمحت فتاة تجرى نحوى ووجهها مذعور ، وكانت الفتاة تنادينى باسمى فى إلحاح ولهفة ، وتكاذ تمسك بى من فرط الخوف . وأسرعت إليها .

إنها فتاة وديعة رقيقة خجول تعمل « سكرتيرة » فى مكتب رئيس تحرير الصحيفة التى كنت أعمل بها . لم أكن قد تبادلت معها أكثر من كلمات التحية العابرة ، وأن كنت أشعر دائما أنها إنسانة هادئة رقيقة وديعة .

ما الذى حدث فأفزع هذه البراءة كلها وهى تمشى وحدها فى

« أمـــان الله » ؟ . . قالت لى الفتـــاة فى صوت مضـطرب وكلمات مرتعشة : إن هناك عربة تطاردنى منذ خرجت من عملى فى طريقى إلى البيت . . . وان العربة اقتربت منها ، وما زالت تطاردها . . . وان الذين بداخل العربة يلقون فى أذنها بكلمات جارحة .

ثم قالت لى أنها ترجونى أن أقف معها قليلا حتى تمضى العربة . . الذئبة .

وهـدأت من روعهـا وسرت معهـا حتى ركبت « المترو » . وفى الخطوات القصيرة التى سرنا فيها معا قلت لها : لماذا تعملين فى الليل ؟

قالت :

لأننى طالبة بالنهار . . . أدرس فى كلية الآداب . وبعد قليل من الصمت قالت : هذه أول مرة تحدث لى . . . آسفة لأننى أزعجتك . وغاب وجه الفتاة عنى ولكننى لم أستطع أن أنسى وجهها البرىء وقد اكتسى بصفرة الخوف والفزع . وكنت أفكر فى شىء واحد هو : أن بعض النـاس فى مجتمعنـا ما زالـوا يؤمنـون بأن « المرأة الوحيدة فى الـطريق » ليس لها سوى معنى واحـد . . . هو أنها امرأة ساقطة . والحقيقة أن أصحاب هذه العقلية هم الساقطون . فهناك امرأة تمشى فى الليل وحيدة لأنها تعمل وتكافح وتضنى شبابها وقلبها من أجل حياة جديدة !

هناك نساء جديدات فى وطننا الجديد .

واللعنة على هؤلاء الذين أفزعوا الوجه البرىء لفتاة مكافحة تمشى وحدها فى الطريق .

اللعنة على الذين يركبون العربات وهم لا يستحقون المشى على الأرض .

اللعنة على الذين لا يحترمون الفتيات الوحيدات .

٢ ـ أمى

كانت علاقتى مع أمى مليئة باللحظات العميقة التى لا تنسى . . . كانت أمى فلاحة لا تعرف القراءة والكتابة ، وكانت ظروف حياتنا الأولى صعبة وقاسية ، وكنت أحس دائما أن أمى تحتمل أكبر جانب من مسئولية حياتنا بشجاعة كبيرة ودون أن تشكو . . . فهى أقلنا طعاما ، وأكثرنا أسى و حزنا وصبرا وكفاحا ، وهى دائما تقف بعيدا عن المسرح عندما تكون هناك ثمرة من ثمرات الكفاح أو لون من ألوان الفرح .

وبعد أن تخرجت أنا فى الجامعة بعام ماتت أمى . . . أى قبل أن تستمتع بثمرة واحدة من ثمرات كفاحها من أجل أولادها . . . وأنا أكبرهم .

وكنت أشعر أنها إنسانة سيئة الحظ جدا . . . فقد ماتت نتيجة كفاحها الطويل بعد مرض استمر ثلاث سنوات متصلة . . .

ومـاتت فى القـاهـرة ، وقررنا أن ندفنها فى قريتنا التى تبعد عن القاهرة بمائة وعشرين كيلو مترا . . . وسافرت أنا بالقطار على أساس أن أنتظر جثمانها الذى كان مقررا أن يصل ظهر اليوم نفسه . . . ولكنه تأخر . . وتأخر . . ولم يصل إلا بعد الغروب .

وعلمت أن سبب التأخر كان راجعا إلى أن عربة الموتى التى كانت تنقلها . . . أصيبت بخلل شديد فى الطريق . .

وتألمت لسوء حظ أمى حتى بعد الموت ، ولكننى كنت مسيطرا على نفسى تماما ، فلم أبك . . . وخصوصا أننى كنت أتظاهر بالتماسك أمام إخوتى الصغار .

وصلينا عليها فى الجامع . . . ومشينا فى الجنازة . . . حتى وصلنا إلى المقبرة .

وهناك علمنا أن المقبرة لم يتم فتحها بعد . . . . وأن علينا أن ننتظر ما يقترب من الساعة أمام المقبرة حتى يتم فتحها .

وبلغ بى الحـزن أقصاه . . . فقد شعرت أن هذه الإنسانة التى تعذبت فى حياتها لم تنج من سوء الحظ حتى فى لحظاتها الأخيرة وهى فى طريقها إلى النوم الأبدى حيث تهدأ من عذاب الدنيا وتستريح .

حتى المقبرة ما زالت مغلقة فى وجه الأم العزيزة . . . التى تعذبت طويلا وصبرت طويلا .

ولم أملك نفسى أمـــام هذا المـوقف . . . فبكيت . . . وبكيت بمرارة . . وبشكل لم يحدث لى فى حياتى قط . لقد حزنت يومها حزنا لم أشعر بمثله ، ولا أظن أننى سأشعر بمثله فى يوم من الأيام .

ماتت فى الأربعين من عمرها .

وعاشت حياتها كلها عذابا طويلا من أجل أولادها ، ولم تستطع أن تفرح لحظه بثمرة الكفاح .

بل لقد دفعت الثمن وحدها . . . فى سبيلنا جميعا .

وعندما أذكرها ـ وإنى لأذكرها دائما ـ أرى فيها ، وهى المرأة الأمية البسيطة التى لا تقرأ ولا تكتب ، مثلا رائعا للمرأة العظيمة .

إنها تفوقنا جميعا نحن الذين تعلمنا وعرفنا الكثير من متع الحياة ومسراتها .

٣ ـ مرحبا بالخريف

مرحبا بالخريف . مرحبا بالأوراق الصفراء التى تتساقط فى تسامح وتواضع ورضا كامل على الأرض . . مرحبا بروح التأمل الهادئة التى تملأ الطبيعة فى هذا الفصل من فصول العام . . إننى لا أحس أن الأوراق الصفراء المتساقطة قد ماتت ، بل أحس على العكس أنها أدت رسالتها فى الحياة ، وأنها ترحل بعد أداء هذه الرسالة بدون ندم ، وأنها تفسح الطريق لمواليد جديدة من مواليد الطبيعة . . وأحس أن هذه الأوراق الصفراء المتساقطة قد تركت الجزء لتذوب فى الكل ، تركت أغصان الشجرة لتذوب فى الحياة الكبيرة الواسعة .

ما أجمل الهدوء الذى يسود الطبيعة كلها فى الخريف .

وما أجمل المعانى التى يثيرها هذا الهدوء فى نفوس الذين يتأملون معنى الحلم الذى لا عنف فيه ، معنى الصفاء فى وجدان المتصوفين ، معنى التجرد والتحكم الكامل فى الغرائز والشهوات .

والطبيعة فى الخريف لا تنام ولا تموت كما يتراءى للعين . ولكنها فى الحقيقــة تعـود إلى ذاتهـا . وتبحث وتنقب . وتستعـد للبـداية من جديد . . والعـودة إلى الذات هى أصعب رحلة فى حياة الكائنات الحية جميعا ، وهى فى نفس الوقت أجمل رحلة أيضا . إنها فى العادة تكـون مرحلة صادقـة لا ادعاء فيها ولا أكاذيب . إن الكائن الحى عندما يعود إلى ذاته فإنه لا يخفى عليها سرا من الأسرار ، ولا يتظاهر أمامها بما ليس فيه ، إن الكائن مع ذاته هو القاضى والمتهم . . هو الجـرح والسكـين . . هو الوجه والمرآة فى نفس الوقت . . والخريف يذكرنى بجميع الصفات التى أحبها وأتمنى أن أملكها . . . فالخريف هو التواضع والتسامح والبعد عن الزحام . . والبعد عن المظاهر . . والخريف هو الحقيقة الداخلية التى لا ترتدى ثيابا تخطف الأبصار . إنه الصمت الملىء بالمعانى الكبيرة ، والسكون الذى يضم بين جناحيه معظم الحقائق الأساسية فى هذا العالم . والخريف فى بلادنا أجمل من كل فصول السنة وهو أكثر الفصول همسا وحلاوة وعذوبة .

لذلـك كله فأنـا أحب الخريف وأهواه وأفضله على غرور الربيع وقسوة الصيف والشتاء .

فمرحبا بالخريف .

٤ ـ أمنية

وجـد نفســه فجأة يسير وسط الطريق وحيدا بأفكاره ومشاعره ، معزولا عن كل ما حوله بما يدور فى عالمه الداخلى من أحلام وهموم . . .

وقفزت إلى ذهنه أمنية واحدة . . . إنه يتمنى أن يجد فرصة ليعيش فى عزلـة . يستمـع إلى صوت الحياة ولا يتكلم . ويقـرأ ولا يكتب ويعيش بين الناس فلا يحس به أحد ولا يراه أحد . إن الرؤية أمام عينيه منذ ميلاده إلى اليوم كثيرة مزدحمة متلاحقة ، ولذلك أوشك أن يفقد قدرته على التمييز الصحيح بين الأشياء ؛ من كثرة ما مر أمام العـين . . . ومن شدة الـزحام . كذلك فإن الأصوات تحاصر أذنه بكثرة ، فلم يعد يستطيع أن يميز بين صوت الموسيقى أو خرير المياه ، وبـين أصـوات المـدافع أو نقيق الضفادع ، واختلطت أمامه أبيات الشعر البديع بكلمات النثر العادى الذى لا جمال فيه . ولم يعد يعرف ماهو الجميل وماهو القبيح ؟ ! .

وأفقدته خيبة الأمل المتتالية حاسة الثقة بالناس . لذلك فهو يتمنى أن يحصل على عزله طويلة . . . عزلة يتعلم فيها الصمت ، ويتعلم فيهـا ضبط الـنـفس ، ويتـعلم من جديد كيف يميز بالعـين بين المرئيات ، وبالأذن بين الأصوات ، ويتعلم كيف يخطو بأقدامه وليس وراءه كرباج الزمن يلسعه ويطارده ، وليس أمامه سراب من الأمل يجذبه وراءه ولا ينال منه قطرة ماء . يريد أن يتسكع فى طرقات الحياة بلا خوف من الوقت ولا خوف عليه . يريد أن يجدد آماله ، بل يريد أن يفقد آماله حتى لا يعرف معنى اليأس . فأكثر اليائسين هم أكثر الناس أحلاما . . أما الذين بلا أمل ولا حلم فهم ـ فى نفس الوقت ـ الذين لا يعرفون معنى اليأس ولا يعرفون معنى الهزيمة . إنه يريد هذه العـزلـة الكـاملة لعـدة سنوات . . يريد أن يتخفف من أعباء روحـه . . يريد رحلة بعيدة عن زحـام الحياة . . رحلة فى الـظلال الهادئة . . حيث لا يلقى خصومة الناس ولا محبتهم .

فهل يستطيع تحقيق هذا الأمل الذى يلح عليه . . أم أن المسألة ليست سوى حلم من أحلامه ، ونوع من « الهلوسة » يلاحقه عادة فى لحظات الإرهاق والتعب الروحى ؟ ! . .

٥ ـ العيون

تستطيع العين أن تجمع كل طاقة القلب فى نظرة واحدة .

يمكن للعين أن تحمل المرارة فى نظرة ، وتحمل أسى الأيام فى نظرة ، ويمكن للعين أن تتكلم بدون ألفاظ ينطق بها اللسان ، وأن تقول فى لمحة واحدة ما يظل اللسان يرويه فى ساعات أو فى أيام . . إن الإنسان يتركز كله ، ويمكن تلخيصه كله فى العين . . ولذلك فأنا أحب العيون ، وأخاف العيون .

والفلاسفة والشعراء لم يهتموا بشىء فى الإنسان بقدر ما اهتموا بالعين . فالعيون تعوم فى بحر خفى من الدموع والأفراح ، بحر قد نراه أحيانا وقد لا نراه ، ولكنه قائم وراء العين . وأقوى الغيون تأثيرا هى عيون الأبرياء . . عيون الأطفال والمظلومين ، فإنهم لا يستطيعون التعبير بلسانهم بقدر ما يستطيعون التعبير بعيونهم .

كم أحب العيون وأخاف العيون . . كم أحب الحديث الصامت الذى ينطلق من بين الجفون . فهو يملك من التأثير على القلب أقوى مما يملكه أبرع الشعراء وأكثرهم عبقرية فى صناعة الألفاظ .

٦ - وجـــه

لو كنت نحاتا لأقمت لوجهها تمثالا كتماثيل الفراعنة لا يقهره الزمن .

أحلى الوجوه وجهها . . . قامتها كأنها غصن طويل رائع فى شجرة صفصـاف . . . عيونها . . . شعرها . . . لا تسلنى عن شىء من هذا كله . . فلا جواب عنه إلا بالشعر ، وأنا لست من الشعراء . . .

ولكن الذى يثير العجب فى هذا الوجه الجميل أنه يخفى وراءه قلبا من الصخر ، وقسوة لا حدود لها ، وجفافا فى كل معانى الإنسانية ، فلا عاطفة حب فى حياتها ، ولا عاطفة صداقة ، ولا عاطفة ولاء لأى شىء . . . كل شىء فى حياتها ملفق وأنانى وبعيد عن الصدق .

جمود ، وفحم محترق ، وحصى ، ورمـــل . . . هذا هو قلبهـا ووجدانها وعالم نفسها المعتمة !

لذلك . . .

لو كنت رساما أو نحاتا لرسمت لوحة أو أقمت تمثالا للجمال الرائع الذى يوحى بشىء واحد هو القبح !

الفهرس

الموضوع	الصفحة

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ فى أزمة الثقافة المصرية .
٢ ـ أبو القاسم الشابى « شاعر الحب والثورة » .
٣ ـ ثورة الفقراء .
٤ ـ فى أضواء المسرح .
٥ ـ أدباء معاصرون .
٦ ـ مقعد صغير أمام الستار « دراسات فى النقد المسرحى » .
٧ ـ أدباء ومواقف .
٨ ـ أصوات غاضبة فى الأدب والنقد .
٩ ـ كلمات فى الفن .
١٠ـ محمود درويش « شاعر الأرض المحتلة » .
١١ـ بين أنور المعداوى وفدوى طوقان ـ صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر .
١٢ـ الانعزاليون فى مصر ـ رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين .
١٣ـ أدب وعروبة .
١٤ـ عباس العقاد بين اليمين واليسار .

تحت الطبع

١ ـ كفافى شاعر الإنسانية .

٢ ـ دفاع عن طه حسين .

٣ ـ أزمة الثقافة فى مصر .

٤ ـ بصراحة أدبية .

٥ ـ أدباء ومواقف ـ الجزء الثانى .

٦ ـ أدباء ومواقف ـ الجزء الثالث .

٧ ـ مع الرواية العربية

دراسات نقدية

٨ ـ هل كان العقاد شاعرا ؟

٩ ـ شخصيات وقضايا مسرحية

١٠ ـ سينمائيات

١١ ـ كتابات فى الغربة

١٢ ـ بين السياسة والثقافة

هذا الكتاب

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٦٣ باسم « التماثيل المكسروة » ولكن المؤلف اختار له اسمه الحالى « تأملات فى الإنسان » ابتداء من الطبعة الثالثة التى صدرت سنة ١٩٧٧ ، وقد صدرت من هذا الكتاب خمس طبعات ، وهذه هى الطبعة السادسة ، ويقول المؤلف عن هذا الكتاب فى المقدمة :

« إننى أحب هذا الكتاب أكثر من أى كتاب آخر لى ، وذلك ببساطة لأننى كنت أحاول أثناء كتابته أن أعالج نفسى من الحزن والضيق بالحياة . كنت أحاول أن انتصر على عوامل الهزيمة الروحية التى أوشكت أن تسلب منى أى حماس للحياة أو ابتهاج بها . وكلما عدت إلى فصول هذا الكتاب تذفقت فى روحى عزيمة تريد أن تنتصر على الحزن والأسى والتشاؤم . وبمرور الأيام اكتشفت أن الكثيرين يشعرون نحو هذا الكتاب بنفس مشاعرى ، وذلك لأنهم اصطدموا فى طريق الحياة ببعض الأحزان الكبيرة . ودخلوا مع هذه الأحزان صراعاً حاداً أرادوا أن ينتصروا فيه وأن يواصلوا حياتهم رغم عدوان الحزن والكآبة .